يَدُ اللّٰهِ

« سَـارِقو اللّٰه »

طبعة أولى بالعربيّة

١٩٨٨

*

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية
شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩ - ١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

مَاريّا ڤينوڤسْكَا

يَدُ اللهِ

« سَارِقو الله »

تعْريبُ
أديبُ مُصْلح

سلسلة « الشهود »
٢٩

هذا الكتاب معرّب عن :

MARIA WINOWSKA

Les Voleurs de Dieu

ÉDITIONS SAINT-PAUL
PARIS - FRIBOURG

غالبيّة الرسوم التي يزدان بها هذا الكتاب
مقتبسة ، مع الشكر ، من مجلّة
VOIX DE SAINT PAUL - FRIBOURG (Suisse)

الأديبة ماريّا ڤينوڤسكا

الفهرس

توطئة ٧
مقدّمة الكتاب ١١
سارقو الله ١٧
العَذراء ترئس المجمَع ٢٨
أمّ الله ٤٢
الأب ألكسَندر ٥٩
دَيرٌ ســـرّيّ ٧٣
الأيقـــونة ٩٣
استجواب الأسقف ١٠٧
عيدُ ميلاد في أوكرانيا ١١٩
عماد عام ١٩٤٤ ..... ١٣٥
اعترافٌ عَلنيّ ١٤٧
الزّاد الأخير ١٦١
"تعال، أيها الطّفل يسوع!" ١٧٥
قدّاس الأب ميشيل الأخير ١٩٥
الليلة الكبرى ٢٠٩
كيف احتفلت كاترين بمناولتها الأولى ٢٢٣
الصّلبان ٢٣٩
القديس أنطونيوس والشرطيّ وفطائر المرفع ٢٤٩
دمٌ بدم ٢٦٥
وجهًا لوَجه ٢٧٣
الفهرس ٢٨١

توطئة

الإيمان قابعٌ في صدر كلّ إنسانٍ، قد يَطْمُسه تراكم الرتابة والتقاليد، وآليّة الشعائر والطقوس، وإغفاء الضمير، فتخمد جذوته، ويخبو ضياؤه، ويخمل اندفاعه.

فالإيمان، شأنه شأن الحرّية، وسموّ النفس، وصلابة الإرادة، وكلّ ما يجعل من الإنسان إنسانًا، لا ظِلَّ إنسانٍ، يفتقر إلى التمرّس، ومقارعة الأهواء، والتغلّب، في كلّ لحظة، على نزعات التخاذل والتردّد والغرور، ومزالق الجبن والخوف والصَغارة، بل لا بدّ له، فوق كلّ ذلك، لكي يحتفظ بزخمه وحدّته وطاقاته اللامحدودة، من العودة، بلا انقطاعٍ، إلى منبعه الثرّ الصافي، إلى كلام الله، الذي ما زال، مذ نُطِق به، أبديّ الجدّة، متلألئ النضارة، نابضًا ببواعث الحياة، ونافحًا كلّ مَن يلتزم به قدراتٍ لا تخطر لبشرٍ بخيال.

وبالتالي، فقلّةٌ هم من كان الإيمانُ فيهم، بفضل معاناة طوعيّة متّصلة، يقظًا أبدًا، متجدّدًا باستمرارٍ، مهيمنًا على سلوكهم، مسيّرًا لعلاقاتهم مع الله والناس، ودافعًا بهم، في الدروب الضيّقة الضَنْكة، شطر كمال إنسانيّتهم، على صورة الله.

وليس كالمحن الكبرى ما يمتحن الإيمان، ويحمل المرء على البحث

عن الله الكامن في أَعماقه، والتشبّث به. ولا ريب أَنّ أروع صفحات تاريخ الكنيسة هي تلك التي كُتبتْ أيّام كانت الكنيسة مضطَهَدة، وكان المؤمنون لا سلاح لهم، ولا سند ولا دليل، سوى الإنجيل.

الحوادث التي يسردها هذا الكتاب هي حكايات إيمان صقلته وأبرزته ورفدته محنةٌ كبرى بزخمٍ أكبر، يوم خُيّلَ إلى الشيوعيّة، عند بدء غزوها، أن لا استقرار لها إلاّ باغتيال الإيمان في النفوس، فهي والإيمان لا يتعايشان، ولا بدّ للمادّية، كي تسود، من قتل الله.

وواضعة هذا الكتاب كاتبةٌ بولونيّةٌ تتمتّع بأسلوبٍ فذٍّ، إلاّ أنّها لم تستخدم براعة أسلوبها للتزييف والاختلاق، ولا لابتكار الأساطير، بل إنّها حرصت على انتقاء نخبةٍ مختارةٍ من فيض الأحداث المثيرة التي شهدتها، أو سمعت شهودها، بعد أَن أمعنت فيها تمحيصًا وتبيّنًا، ولا سيّما أنّ بعض هذه الأَحداث قد رافقتها ظواهر خارقةٌ. والخوارق، في عالم اليوم المغرور بعلمه، مَهزأةً وترّهاتٍ. ومن ثمّ، فقد كانت شديدة التبصّر في الاختيار، ولكن على غيرِ وَجلٍ ولا استحياء.

غير أَنّ الخوارق لا أَهمية لها إلاّ بقدر ما هي رمزٌ للإيمان ودليلٌ عليه. وَإِنَّمَا الأجدر منها بالإعجاب والتأمّل هو عمل الإيمان في النفوس، وما يحدثه فيها من انقلابٍ كلّيٍّ: "جذور تُنتزَع من الأرض لتنغرس في قبّة السماء".

بطرس سار على سطح الماء، سحابةَ اللحظات التي كان الإيمان وحده يسيّره. ولكن أروع من السير على سطح الماء صاعقة الإيمان

التي حلّت بنفس بولس، على طريق دمشق، فجعلته يبذل، من غير حساب، كلّ ما بقي من حياته، في سبيل من كان عازمًا على تدميره. وكذلك فعل الإيمان البطيء النفّاذ الذي أحال ماجنَيْن متهتّكيْن، فرانسوا الأسّيزي وشارل دي فوكو، زاهدين، متسوّلين، يجرّان في تيّارهما قوافل متلاحقةً من الصابين إلى كمال الروح، والذين عَمَرت قلوبُهم بحبّ الله والبشر.

اليوم أَيضًا يلقى الإيمان اضطهادًا شرسًا، ليس بوسائل العنف فحسب، على حدّ ما يجري في بعض مناطق عالمنا، بل بما هو أدهى وأوقع فتكًا: بالتشكيك بقيم الروح الذي تروّج له، في خبثٍ واستهتارٍ، جميع وسائل حضارتنا المادّيّة الزائفة، وما تمخَّضت عنه من تيّاراتٍ إيديولوجيّةٍ تبدو متنابذةً، إلاّ أنّها، في الواقع، تنبع من معينٍ واحدٍ هو الكفر بمبادئ الروح، وتلتقي على هدفٍ واحدٍ هو الاستعاضة عن الإيمان والضمير والله بأصنامٍ تتّخذ ألفَ شكلٍ ولونٍ.

هذا ما حملني على نقل هذا الكتاب إلى العربيّة، علّ ما انطوى عليه من مُثُلٍ رائعةٍ يُوقظ الإيمان الغافي في صدورنا. وكانت قد نُشِرت ترجمتها العربيّة تباعًا في مجلة "المسرّة" من عام ١٩٨٠ حتّى عام ١٩٨٣.

حسبي أن تنبعث من ثنايا هذه الصفحات بعض ومضات إيمانٍ لتنشب في حنايا الصدور "نارًا آكلة".

أديب مصلح

مقدّمة الكتاب

إنّ الأَحاديث التي تؤلّف هذه المجموعة إنّما تورد أَحداثًا واقعيّةً موثوقًا بها، قد تمّ التحقّق منها تحقّقًا دقيقًا، وقد اقتصر عمل المؤلّف على رسم ملامح الأشخاص، وجوّ المسرح، ثمّ على تمويه المعالم.

حتّى الحوار، في حالاتٍ عديدة، كان هو هو الذي نطق به الشهود، غير أنّ الأبطال قد استعاروا غير أسمائهم، إلاّ من بات منهم في مأمنٍ من أيّ خطرٍ، شأن الأب أَلكسندر.

مثل شجرةٍ، بتأثير دَفْعِ النُسغ، نما هذا الكتاب على وقع أحداثٍ امتدّت على طول سنواتٍ عديدةٍ، ولم يتبلور لها طابعٌ مشتركٌ، إلاّ مع مرور الزمن.

ولا يدّعي المؤلّف تفسير بعض الوقائع التي يسردها، بل إنّه، في حين يضعها تحت تصرّف القرّاء، يدع جميع القضايا التي تهمّ أولي الاختصاص مطروحةً. فما يبدو لنا وكأنّه خرقٌ لنواميس الطبيعة ليس، ربّما، سوى وجهٍ لا يزال مجهولاً من وجوهها.

فقد يقوم اعتراضٌ يقول إنّ تجدّد الإيقونة المدفونة قد تمّ بتأثير ضربٍ من مضادٍّ حيويٍّ تنطوي عليه التُربة، وأنّ الأخت تيودورين قد أثارت عمليّة الصَقْل عندما مرّت بمنفضتها على وجه الإيقونة.

ومع ذلك، فوقائع "التجلّي" المباغت الذي حلّ بعـــدد كـــبيرٍ مـــن إيقونات، كان الزمن قد طمس معالمها، وشاعت في روسيّا في أعقاب ثورة أكتوبر، وبُذل جهدٌ مضنٍ، في سبيل إسدال ستارٍ من الصمت حولها، ما زالت تبحث عن تفسيرٍ مقنع.

ولربّما كانت معلّمة "أنجيل" الصغيرة قد حُملت على الشهادة بزَيف الرؤيا الجماعيّة التي تجلّت في صفّها، لو أنّها لم تَهْوِ، في الحال، إلى الجنون.

كما أنّ ظهور "والدة الله" لـــ "پـــيوتر إيـــڤـــانوڤـــيتش" مـــا زالت في مَنْأًى عن أيّة رقابةٍ مادّيّةٍ، ويمكن عَزْوُها لهذَيان محتضَرٍ...

ولكن ما همّ كلّ ذلك؟

نحن لا نجري وراء اقتناص الخوارق، غير أنّنا لا ننكر الأَحداث عندما تتجاوز فهمنا. بل إنّ ما ظفرنا به من تجارب الحرب والأســـر قد علّمنا أنّ "الحقيقيّ ليس دائمًا سهل التصديق" على حـــدّ قـــول الأب نوبير. ومن ثمّ، فإنّ كل ما نطالب به أولي الاختصاص هو أن يلزموا، إزاء الأحداث الدينيّة، مثل ما تفرضه عليهم مـــن صـــدقٍ فكريٍّ أكاديميّة العلوم، في التقارير التي تنشرها والتي تتوافق وموقف الكنيسة: فطالما أنّ حدَثًا لم يفسّر تفسيرًا علميًا صرفًا دقيقًا، يظـــلّ أمره مطروحًا على بساط البحث.

ولم تكن المعجزات هي التي أملت اختيار الأَحاديث التي انطـــوى عليها هذا الكتاب، بل كان رابطها المشترك الخفيّ هو اقتحام الله لحياتنا كبشرٍ، والانقلابات المباغتة الصاعقة التي تنجم عن ذلـــك الاقتحـــام.

فالجذور تُنتزَع من الأرض وتغرس، على الإثر، في قبّة السماء. إيّاك أن تسأل من طالهم الانقلاب تفسيرًا آخر. فهنا، أَيضًا، كان علينا التزام نطاق الاختبارات الشخصيّة التي لا سبيل إلى التحقّق الموضوعيّ منها، لو أنّ هذه الانقلابات لم تحدث أصداءً راحت تنتشر شيئًا فشيئًا، بل هي تنطلق أحيانًا إلى أقاصي الأرض – فلنذكر الحادثة الكبرى على طريق دمشق – ولو أنّ الثمار لم تنهض شاهدًا على جذور الشجرة السرّيّة.

في كلّ ارتداد حقيقيٍّ إلى الإيمان، يمكن مباغتة الله في أثناء عمله، إذ إنّ كلّ ارتداد يحطّم نظامًا ما، أو بالأحرى، يحطّم فوضى مستقرّةً مترسّخةً، وينثر شظاياها في أعقاب صدمة مفاجئة لا تخضع، في الواقع، لأيّة مراقبة. وفي حين أنّ المعجزة لا تتجاوز نظام الكون الظاهر، يشهد كلّ رجوعٍ إلى الإيمان حَدَثًا خارقًا يسمو فوق المادّة أو يستعصي على الفهم.

للمحن الكبرى معالجات كبرى: فحقب الاضطهادات، قد شهدت أبدًا ازدهار نِعَمٍ خارقة؟ والشرّ، عندما يبدو وكأنه قد أحرز الظفر، يثير انتقام الحبّ الذي يستخدمه منطلقًا للقفز نحو قمم تَعدو الوصف. وكم من الجرائم قد باتت "أخطاءً سعيدةً"! فالله لا يُحجم عن نشْدان أَوليائه في المعتقلات، ومَرابع الفجور، وفي أشدّ المستنقعات قَذارةً؛ وليس "انطوان تريكا" ولا "بوكدان كريلا" بحالاتٍ فريدةٍ.

وفي هذا المجال، يحتلّ الصغار مكانةً مشرّفةً، من جراء صغرهم وتواضعهم. ولم يكن من السهل الاختيار بين فَيض الوثائق التي لبّت طلباتنا! فما كانت "كاترين " ولا "كريستينا " ولا " يوريك "

استثناءً؛ وليس في پـــولونيا من مدرسة لا تشُنّ حربًا في سبيل التعليم الدينيّ. فهذا التعليم المسموح به "من فوق" يلاقي، "من تحت"، مـــن صنوف المضايقة وأساليب الإرهاب، كلّ ما يخطر ببالٍ. وهو، بالتالي، يصبح، في الواقع، مبادرةً يتولاّها الصغار أنفسهم. إنّنا نعرف مدارس أضربَ تلامذتها الصغار، كلّهم جميعًا، من غير استثناء، حينما حـــاول المدير إلغاء دروس الدين، فأَقْفرت الصفوف عدّة أيامٍ، وأَخيرًا توقّف القتال، لخلوّ الساحة من المقاتلين، وحُملت هيئة التدريس قَسْرًا علـــى الاستسلام. ولا بدّ من ملاحظة أنّ الصغار، في معظم تلك الحـــالات، لا يبوحون بشيءٍ من أمرها لوالديهم "لئلا يعرّضوهم" ويتحمّلـــون، وحدهم، كامل مسؤوليّة "حماقاتهم".

يوم أمس روى صديقٌ قادمٌ من پـــولونيا حلقةً جديدةً من معركة الصلبان التي باتت شهيرةً. فعلى حدّ ما جرى في مركز الوقايـــة، قـــد أخفى تلامذة المدرسة، التي يدرس فيها أبناؤه، الصلبان، إخفاءً محكمًا، وقد استدعت المخابرات ابنه البكر، البالغ من العمر اثنتي عشرة سنةً، واستخدمت جميع الوسائل لتحمله على الإقرار بأنّه قد تصرّف بإيعـــازٍ من أبيه، إلاّ أنّه قد نفى في إباءٍ قائلاً: "لي من العمر ما يؤهّلني لتحمّـــل المسؤوليّة، وليس لوالدي علمٌ بشيءٍ"، وكان ذلك صـــحيحًا. وقـــد صرَّح لوالده، بعد أسبوعٍ، وبعد أن كان التلاميذ قد كسبوا القـــضيَّة: "لم أشأ أَن أطلعك على شيءٍ، إذ كنت أُوثر ألاّ أكذب، وكنت علـــى علمٍ بما سيواجهونني به من إرهابٍ وتعذيبٍ".

وقد خلَص هذا الصديق إلى القول: "إنّنا لنتساءل من أين لهـــم

هذه الحكمة؟ إنّ صغاري هم الذين ينعشون إيماني، ويبدو في بعض الحالات أنّهم يتصرّفون بوحيٍ من الله...".

والشهادات في هذا المضمار وفيرةٌ. فالنظام الذي يدّعي "تغيير الطبيعة البشريّة" يستهدف، في المقام الأوّل، الأحداث الذين يقاومون بطريقة خاصّة بهم تتّسم ببساطة وبراءة تتحدّيان أَمْكَر الفخاخ وأَدْهاها. إنّ قراءة ما يصدر عن بعضهم من أقوالٍ تذكّر ببرناديت وميلاني وجانّ دارك. فطفولتهم تتجاوز، عابثةً، جميع الأشراك التي تُنصب للإيقاع بهم، فيتملّصون منها ببراعة، في حين يُخيّل وكأنّهم قد أُخِذوا في حبائلها. ومع ذلك، فهم ليسوا عباقرةً، ولا حتّى، أحيانًا، من ذوي الأخلاق المثلى، وبملاحظتهم عن كثَب، يمكن مباغتة نعمة العماد في أثناء عملها فيهم.

وقد يغزو الله، أحيانًا، أوكار الزنابير أيضًا، فيوقع حتّى بأشدّاء الحزب المتصلّبين، وهنا يتجلّى ظرفه. ولئن كانت بعض صفحات هذا الكتاب تبلغ من التأثير حدّ الدموع، غير أنّ بعضها يبعث على الضحك! وإذا ما طُردت النعمة من الباب الرئيسيّ، فهي لا تأنف التسلّل من السلالم الخلفيّة، أو حتّى من منافذ اللاوعي. ولم تكن "السمكات الكبيرة" التي اصطادها الأب پول والأب فرانسوا هي الأولى من نَوْعها.

ولا تدّعي هذه الصفحات الدفاع عن أيّة قضيّة دينيّة، أو فرض أيّة نظريّة. إنّها شهادةٌ فحسب، فالنور لم يوجد ليختفي تحت المكيال، بل يكفيه أن يتحرّر ليشعّ، ونحن قد نزعنا عنه المكيال.

ماريا ڤينوڤسكا

١٩٥٨

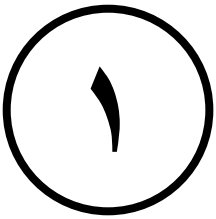

سارقو الله

سَارِقو الله

عندما شرعت مِغْلاة الماء تُدَندن، قطع الأب بـــول عنها التيّار الكهربائيّ، ثمّ ارتمى، تحت وطأة التعب، وهو ما زال مبلّل الثيـــاب، تنخُر الرطوبة عظامه، على مقعدٍ راح يئنّ تحته بكلّ نوابضه.

منذ لحظاتٍ، كانت الريح قد ازدادت هياجًا ترافقها نفحاتٌ من الثلج تزوبع في عتمة الليل البهيم، وقد فتحت العاصفة نافـــذةً غـــير محكمة الإغلاق أخذت تصطفق بعنف، ممَّـــا قطـــع علـــى الكـــاهن استرخاءه، ظنًّا منه أنّ بالباب طارقًا. ولكنّ أحدًا لم يـــدخل، فيمَـــا تفاقمت الجلبة، وقال في نفسه: "إنها ربّما نفسٌ تتألّم"، ثمّ مدَّ ســـاقيه المنهكتين، علَّه يريح قليلاً قدميه اللتين لفَّهما بأكداسٍ مـــن الخِـــرَق البالية. لقد كان البرد صقيعيًّا، غير أنَّ الإرهاق قد أفقده كلّ رغبةٍ في الحركة. ومع ذلك كان يحثّ نفسه على الانعتاق من التعب، بصوتٍ مرتفعٍ وفقًا لعادة كانت تلازمه منذ حداثته، ممَّا جعل أبنـــاء رعيّتـــه يَرْوون عنه أنّه أبدًا يُكلِّم ملاكه. وخطرت إذ ذاك بخَلَد الكاهن تلك

الأقاويل، فراح يناجي ملاكه قائلاً: "إذا كان الأمر كما يُشيِّعون، أيّها الملاك الطيّب، فإنّني أرجوك الآن أن تُصلح لي الشاي، فأنا، كما ترى، أكاد أَنفُق من النصَب، وعليَّ أن أكون بعد قليلٍ، متأهّبًا".

بعد أربع ساعاتٍ سيحلّ منتصف الليل ويحين معه موعد قدّاس الميلاد، والأب بول عائدٌ لتّوه من أحد "فروعه" كما كان يسمّي الرعايا القريبة الموكلة إليه خدمتها. وفي الكنيسة كان المؤمنون، منذئذٍ، ينتظمون في صفٍّ طويلٍ أمام كرسيّ الاعتراف، وكان ذلك كافيًا ليدفعه إلى النهوض فجأةً ويتمطّى بعنفٍ بحيث يكاد يحطّم عظامه. لقد كان الثوب الأسود يموج حول جسمه النحيل الطويل كما لو كان معلَّقًا على عصا، وقد لطّخت الأوساخُ أهدابه ووشّحته هنا وهناك بُقعٌ خضراء.

وكان ما زال ماضيًا يستحثُّ نفسه قائلاً: "عندما سأتناول كوبًا من الشاي سأصبح أفضل حالاً، فإنّه لمن الحماقة التخاذل في مثل هذه الليلة. ألا هيّا أيّها الأحمق! ألا تدري أنّهم في انتظارك؟ وقد تلتقط شبكة الاعتراف سمكةً كبيرةً، فهذه ليلة دون الليالي".

– "مع من تتكلّم؟" أتاه هذا السؤال، فجأةً، من خلف ظهره، فالتفت بغتةً، وإذا بغريبٍ يتوسّط الغرفة، وكان قد ولجها من غير استئذانٍ، في حين كتَمت جلبة اصطفاق النافذة صريرَ الباب. وكان الغريب ينظر إليه شزْرًا، وقد كرّر سؤاله مهدّدًا: "أجبني، مَن هو الذي تخاطبه؟"

وما لبث الأب پـــول أن استعاد رباطة جأشه مـــدركًا أنّ مـــا يحدث كان لا بدّ أن يحدث، عاجلاً أو آجلاً، وبكلّ هدوءٍ أجاب:

– "إنّني أُكلِّم ملاكي. أمّا أنت فما شأنك بي؟"

– "أنا لا أبغي سوى بضعة إيضاحاتٍ من شأنها تلقينك عـــدم الهزء بي في ما بعد. ألا هيَّا اجمع ما يلزمك من أمتعةٍ، ريثما أقوم بجولةٍ تفتيشيّةٍ في منزلك".

كان الأب پـــول قد لمح، في ما مضى، الرجل الـــذي جـــاء، اليوم، يهدّده، غير أنّه كان على علمٍ واسعٍ بصيته، بعد أن ضـــمّت السجون مئات "الرجعيّين" بفضله. فقد شاع عنه إتقان فنّ التحقيق مع الموقوفين الذين كان يلهو بهم لهو الهرّ بالفأرة قبل افتراسها، وقد محضه الجميع بغضًا فريدًا، واعتبروه أشهر حقيرٍ في المنطقة كلِّها. أمَّا هو فكان يتمتّع بزرع الرعب، مع كلّ خطوةٍ يخطوها، وكان مكتب المباحث السرّيّة يوليه أشدّ القضايا إحراجًا، لعلمه بأنّ ما يدعى قلبًا عند سائر الناس لم يكن لديه سوى عضلةٍ محصَّنةٍ ضدّ كلّ إحـــساسٍ أو رأفةٍ، بحيث يمكن الاطمئنان إليه في المهمَّات الصعبة... ذلك كان "أنطوان تريك" الذي قدم لتوقيف الأب پـــول.

وسرعان ما حلَّ في صدر الكاهن، محلَّ الخوف الذي كان قـــد استولى عليه للوهلة الأولى، قلقٌ ملازمٌ من نوعٍ آخـــر، نـــابعٍ مـــن خشيته ألاّ يستطيع الاحتفال بقدّاس منتصف الليـــل الـــذي بـــات وشيكًا، وألاّ يلبّي انتظار المؤمنين المنتظمين في صفٍّ طويـــلٍ أمـــام

كرسيّ الاعتراف. وانطلقت من أعماقه دعوةٌ حارَّةٌ: "أيّتها العذراء، يا ملكة "يسناغورا"، هلمّي لنجدتي".

في تلك الأثناء كان رجل المخابرات قد فتح على التوالي جميع النوافذ والأبواب ثمّ أخذ يجوس خلال الأدراج قاذفًا أرضًا كلّ ما تبلغه يده من سجلاّت عماد، وأَضاميم خبز التقديس، مربوطةً بأشرطةٍ زرقاء أو زَهريّة، وبقايا شموعٍ، وأوراقٍ بيضاء. ثمّ بعد أن دقّق في مراسلات الكاهن الشخصيَّة دسَّها في حقيبته الضخمة، وسأل الأب پول عن المكان الذي يستخدمه لرقاده. ذلك السؤال، الذي كان يشغل باله منذ لحظات، كان جديرًا بالطرْح حقًّا، إذ إنّ الغرفة الوحيدة التي يتألّف منها الكوخ الخشبيّ الزريّ الذي كان مقرًّا للأبرشيّة لم يكن يحتوي أيّ سريرٍ، ولولا زهد الأب پول الشهير والنزيه عن كلّ ريبة، لكان قد ذهبَ المخبر في تأويله خلوّ الغرفة من سريرٍ أبذأَ تأويلٍ. ولكنّه أعاد طرح السؤال كرّةً أُخرى:

– "أين تنام إذن؟"

– "وفقًا للظروف. فأنا، حينًا، أفترش هذه الأريكة المهترئة، وأحيانًا أستوطئ الأرض، ولم يتهيّأ لي، بعدُ، الوقت كي أفكّر باقتناء سريرٍ".

وبينما كان الكاهن يردّ على أسئلة المخبر، كان في أعماقه لا يفتر عن توسّل السماء بدعواتٍ حارَّة، علَّ أهل السماء يحنّون عليه، على الأقلّ، بإقامة القدّاس الأخير، قدّاس الميلاد الذي احتشد للاحتفال به جمعٌ غفيرٌ من المؤمنين.

وخطَر للمخبر "تريك" أن يختبر وَثارة أَريكة الكاهن، غير أنّ صرير نوابضها جعله يقفز عنها مضطربًا لاعنًا الكاهن وزهده. ولكنّ الأب پول رأى أن يأخذه باللين، فدعاه إلى مشاركته بعض الشاي. وتردّد المخبر لحظةً، إذ إنّ القوانين تَحظُر على أمثاله تناول أيّ شيءٍ في منازل المتَّهمين. ولكن البرد كان لا يُطاق. ثمّ... إنّها ليلةٌ تختلف عن سائر الليالي بحيث إنّه هو نفسه كان يتمنّى ألاّ تُوكل إليه مهمّةٌ في ليلة الميلاد تلك. وكان لا بدّ له، أخيرًا، من أن يوافق. فبادر الأب پول إلى إصلاح الشاي من جديد، وجاء بالأقداح والسكّر، وأخرج من علبة صَفيحٍ بعض قطع الحلوى. وفيمَا كان المخبر يتابع جميع حركات الكاهن في شيءٍ من الحذَر، لمع فجأةً على الأرض، عند قدميه، إضمامةٌ من خبز التقديس، أسرع تلقائيًّا إلى لمّها. وللحال هاجمت ذاكرته الغافية ذكرياتٌ من الماضي السحيق... تراءت له أمّه التي، وحدها، أحبّته في هذا العالم... يوم كان صبيًّا صغيرًا... وعشيّة الميلاد حيث كان يشترك الجميع في تناول الخبز المقدّس، وأجراس العربة على طريق الكنيسة، قُبيل منتصف الليل. لقد كان، إذ ذاك، عضوًا في جوقة الترتيل، إذ كان يتمتّع بصوتٍ رخيمٍ... وكم كان يلقى، لدى عودته إلى البيت، من مشقّةٍ في الانعتاق من أكوام السُترات والأَحرِمة الصوفيّة التي كانت تلفّه بها يد الأمّ الحانية، خشية أن يُصاب بلفحة بردٍ!

وكأنّ الكاهن كان يقرأ ما يدور في خَلَد ضيفه، فسأله: "ألا

نقتسم هذا الخبز المقدَّس، حسب تقاليدنا العريقة، رمزًا للسلام والمحبَّة؟". وانتفض المخبر وكأنّ أحدًا قد فاجأه عاريًا، وأجاب: "ألا تبًّا لترّهاتكم".

ثمّ أردف، بعد أن تناول كأس الشاي من يد الكاهن:

– "يبدو أنّك تراني وحشًا، على حدِّ ما يراني الجميع هنا".

وأطرقَ الكاهن لحظةً، ثمّ أجاب:

– "لا، لست أراك وحشًا، بل أراك إنسانًا تعيسًا يتوهّم أن لا أحد يحبّه".

وانفجر رجل المباحث ضاحكًا وقال:

– "هيّا، أيها الغُراب العجوز، لن تقنعني أبدًا أنّني خَليقٌ بالمحبّة".

في تلك الأثناء، كان الكاهن جالسًا على مقعدٍ خشبيٍّ واطئٍ إزاءه، يحرّك السكّر في الكأس المثلومة ويجيل في رأسه ضُروب الأفكار، وما لبث أن أجابه:

– "بالضبط، هنا تكمن أسرار الله التي تدهشنا وتهزّنا. غريبٌ جدًّا أن يُحَبّ ماكرٌ مثلك، ولكنّها حقيقةٌ لا ريبة فيها. إنّ الله يحبّك، بل إنّي أجرؤ على القول إنّه يخصّك بمحبَّةٍ فريدةٍ".

وانتصب الرجل بعنفٍ معترضًا:

– "إنّك لتهزأ بي".

ولكنّ الكاهن أجابه بهدوء:

– "احذر من كأس الشاي. ثمّ تيقَّن أنّني أُكلِّمك بكلّ جدٍّ. حرٌّ أنت أن تصدّق أو لا تصدّق، ولكنّني أنا واثقٌ ممّا أقول. فالميلاد قد حدث بسبب وجود أشخاصٍ أشرارٍ مثلي ومثلك، وإلهنا لم ينحدر ويأتِ إلينا لأنّنا أنقياء كالأطفال، بل لأنّنا قذرون. لا بل إنّي أجرؤ على القول إنّنا بقدر ما نحن قذِرون نحن نستأهل رحمته".

ومرَّةً أُخرى، من خلال الثُغرة المُشرَعة، تدفَّقت الذكريات إلى رأس "أنطوان تريك" الذي ازداد إحراجًا وقال، كمن يدفع عن نفسه التُهمة:

– "إنّك تعتبرني مجرمًا، ولكنّني في الواقع أقوم بواجبي وأومن به. فنحن طالما لم نجتَثَّ جذور الرجعيّين وعبَدَة الأوثان من أمثالك، لن تتمكّن دولة پولونيا الشعبيَّة من الانطلاق. أمّا أنا فلست بسارق...".

– "لا بل أنت سارق فعلاً، ردّ الكاهن في حزمٍ، وقد التمعت عيناه الزرقاوان ببريقٍ مفاجئٍ، وهذه هي جريمتك العظمى".

وانتصب رجل المخابرات شاحبًا من الغضب:

– "أتتجاسر؟ ألقد بلَغَتْ بك القِحة هذا الحدّ؟..."

ثمّ حدّق في عيني الكاهن واستأنف:

– "وماذا سرقت؟"

– "لقد سرقت الله!"

وتجمّدت يد رجل المخابرات على قبضة مسدّسه، وقد باغته جواب الكاهنِ، وغشيَ الذهولُ أساريره، ثمّ ارتمى على المقعد وسأل مرتعشًا:

– "أأنا قد سرقت الله؟ كيف؟ أجبني من فضلك".

وردّ رجل الدين منتصبًا هادئًا كالقاضي إزاء متّهمٍ:

– "بخطاياك. إنَّ الله لم ينحدر إلى هذه الأرض القذرة عبثًا، بل إنّه جاء ليأخذ على عاتقه خطايانا الحقيرة، خطاياي، وخطاياك، وخطايا العالم أجمع. فإذا ما نحن حَبَسْناها عنه كنّا كمَنْ يسرقه وأفرغنا الميلاد من كلّ معنًى. ألا تُعاني أبدًا من الشعور بقذارتك التي تقزّز نفسك؟ ألا تحتقر نفسك أبدًا عندما تتبيَّن حقارة ذاتك؟ إنّ الله قد شاء أن يأخذ على عاتقه كلّ ما حلّ بك من حقارةٍ وقذارةٍ، وما عليك إلاّ أن توافق إذ قد تُركتْ لك حرّية الرفض أو القبول. وقبولك هو الميلاد في قلبك وعلى الأرض جميعها يا بنيّ! قبولك هو استعادتك للبراءة، هو السلام يُمنح للناس ذوي النوايا السليمة، هو سرّ الطفولة الإلهيّة في داخلنا. ألم تكن لك أمٌّ؟ ألم تكن أنت، أيضًا، طفلاً سعيدًا؟ هذا ما يقدّمه لك الميلاد، وما عليك إلاّ أن تقول نعم".

وانهار "أنطوان تريك" وراح يحدّق، شاحب الوجه، مرتعبًا، في قامة الكاهن الهزيلة، ثم أردف:

– "وإذا قلت نعم، فما الذي سيحدث؟"

– "سيحدث أنّك ستأتي وتعترف!"

في تلك الأثناء كان القلَق قد أخذ كلّ مأخذٍ من نساء الأبرشيّة التقيّات، وهنّ يقلّبنَ طوايا ضمائرهنّ ليكون اعترافهنّ كاملاً لا شائبة فيه، عندما فتح الأب پول باب الكنيسة بصخَبٍ وهجم مسرعًا بخطواتٍ واسعةٍ نحو كرسيّ الاعتراف.

وقالت إحداهنّ: "هذه واحدةٌ أُخرى من جلساته الخاصّة. إنّه يشغَلُ نفسه بلَمّ الرَّعاع، في حين يهمل المؤمنين الأتقياء". وقد زادت صدمتها حدَّةً عندما خرج الكاهن فجأَةً من كرسيّ الاعتراف وصاح بصوتٍ مدوٍّ:

– "في ليلةٍ مثل هذه، دَعوا الأَولويّة لكبار الخطأة". وراح يشقّ بيده ازدحام التائبين المنتظرين.

وقالت عجوزٌ أُخرى: "ونحن إذن؟... إنّني سأشكو الأمر إلى الأسقف".

أمّا الأب پول فقد غمره فرحٌ عارِمٌ، وذاب في صلاة شكرٍ عميقةٍ. ولم يكن يتساءل هل كان الأمر مجرّد هُدنة، فقد اصطاد "سمكته الكبيرة"، وكان متيقّنًا أن رَجُله الآن قابعٌ في ظلّ إحدى زوايا الكنيسة يبكي فرحًا مثل عجلٍ صغيرٍ. وفيمَا كان يغلق إحدى نوافذ كرسيّ الاعتراف ليلتفت إلى النافذة الأُخرى قال:

"يا سيّدي يسوع، لقد أحسنت صنيعًا بمجيئك إلينا، فلولاك لكان قُضيَ علينا".

العَذراء ترئس المجمَع

العَذراء ترئس المجمَع

خلافًا لعاداتها المألوفة، لم تواكب الأمّ الرئيسة الراهبات لـــدى مغادرتهنّ المعبد، إذ كانت شديدة الرغبة في خَلْوةٍ مع الربّ، قبـــل التئام المجمع، ولا سيّما أَنّ النقاش كان منذرًا بالتعقيد، فقد كانـــت المواضيع المدرجة على جدول الأعمال تبدو مستعصيةً، ولم يكن من مواجهتها بدٌّ. وكانت الأمّ الرئيسة ترى أن لا جدوى من أيّ نقاشٍ، إذ لا يمكن خرق جدارٍ بنطحة رأسٍ، ولا دَرْء المياه المتدفّقة بمنـــديلٍ جيبٍ، إلا أنّها كانت تؤمن، من جهةٍ أُخرى، أنّ التخـــاذل حيـــالَ الشرّ يولّد القُنوط.

منذ أن انتُخبَتْ بالإجماع رئيسةً عامّةً، غالبًا مـــا حاكـــت الأمّ بريجيت "دون كيشوت" يقارع الطواحين الهوائيّة. فقد كانت تتمتّع بعقلٍ واقعيٍّ منظّمٍ، وبمواهب إداريّة متمرّسة، ولم تكن لتتقاعس إزاء أشدّ مسؤوليّاتها دقّةً وخطورةً، غير أنّ الأحـــداث كانـــت، أبـــدًا، تتجاوزها. وكانت قد ورثت عن والدها الجنديّ تأهّبًـــا للنـــضال،

بوجه سافرٍ، ثمَّ، في أثناء فترة الابتداء، ترسّخت لديها رغبةٌ كامنةٌ في أن تُكرَّم بنعمة الاستشهاد. ولم تكن لترتعد أمام الإعدام، ولكن، في تلك الأثناء، كان عليها مواجهة اختبار الحرب العفنة التي شاء الله أن يمتحنها بها، وكانت تلك الحرب من الخسَّة بحيث فقدت حتّى مظاهر الحروب، وكأنّ پولونيا الشعبيَّة قد أبت أن يكون لها شهداء، بل آثرت أن تمسي راهباتها مُسوخًا، أو دمىً في جَلابيب سوداء، فالسخريّة أفْتكُ بطشًا من البنادق، وإذن، فلا بأس أن توضع أولئك النسوة المعتمِرات في خزائن زجاجيَّةٍ وكأنّهنّ مخلّفات عصورٍ عفّاها الزمن، ولا بدّ أن تُجتثّ جذورهنّ من تربة الحياة وتعزلن عن الشباب، فتلقين حَتْفهنّ على مهلٍ، ولا بدّ لأمواج التاريخ التي لا تقاوم من نسفهنّ، عاجلاً أم آجلاً، كما تعبث الريح بقشّةٍ تائهةٍ. وكانت تتمتم، في صمتٍ:

– "على هذا النحو يخطّطون، يا ربّ، ويبدو أن الوقائع التي يدبّرون قيادتها، في خبثٍ شيطانيٍّ، تؤيّد مخطّطاتهم. ولن تلبث أَن تُقْفَل مدارسنا، وتسيطر على مستوصفاتنا ومَشافينا أيدٍ غريبةٌ، فتُقْفِر من المرشدين الروحيّين ومن كلّ عونٍ دينيٍّ، ويُقضى بالموت على مشاريعنا الرسوليّة جمعاء. وها إنّ تلك المساحات الضيّقة من الأرض التي بها كنّا نستعين على توفير أَوَدِنا قد صُودرتْ، وها إنّ ثلاثًا من بناتي رهينات السجن، وحُجَّة سَجْنهنّ ليست، على حدّ ما هو واقع الأمر، كونهنّ راهباتٍ، بل هي تهمة الاتّجار بالعملات الأجنبيَّة وإخفاء المتمرّدين.

"والأدهى من كلّ ذلك هو أنّ أعداءنا قد نجحوا في التسلّل إلى داخل البيت، حتّى إنّنا قد اضطررنا إلى طرد تلك المبتدئة... سامحها الله... وذلك الكاهن الموالي للدولة والذي حاول تثبيط عزائم بناتي، قبل أن أتمكّن من إعادة الأمور إلى نِصابها. لقد سعى إلى بثّ شعاراتهم الميتة: "التكيّف مع الثورة" ومجاراة "مسيرة التاريخ التي لا تعرف التقهقر". عفوكَ، ربّي، فأنت لم تخلقني من زجاجٍ، ولن تأخذ عليّ جَهْري بما يجول في فكري، ومقاومتي لتقدّمهم المزعوم الذي يحوّل الإنسان إلى آلةٍ صمّاء.

"في غضون ساعة، علينا استعراض جميع هذه القضايا على التوالي، وإبرازها إلى النور، واستقراؤها من كافّة نواحيها، ولكن، ربّي، أنّى لنا الإحاطة بها والإجابة عليها؟

"إنّني أعلم، ربّي، أنّك تعيد إلى خاطرنا "فضيحة الصليب"، فالصليب لم يكن مجيدًا إلاّ في ما بعد، في اليوم الثالث... قبل ذلك لم يكن سوى عنوانِ عارٍ.

"لا أسألك، سيّدي، أن تردّ عنّا محنتك، بل أسألك القوّة على الصمود. بعد ساعة، ستكون جميع رئيسات أديرتنا هنا، متعلّقاتٍ بشفتيّ، متلهّفاتٍ لما سأقول، وأنا لست أعرف أيّ تِرْياقٍ أقدّم لأدوائهنّ الخطيرة الواقعيّة. إنّني أتوقّع، منذ الآن، ما ستقوله لي كلّ واحدة منهنّ، وعليّ أن أوفّر العون للجميع، في آنٍ واحد، وكأنّ عليّ أن أحقّق دائرةً مربّعةً!... ولكن الجروح الداميةَ لا تضمَّد

بالألفاظ المنمّقة، وبناتي لسن مفتقراتٍ إلى ألفاظٍ، وأنا أرى نفسي فقيرةً، تائهةً، فارغةً، عاجزة..."

كانت الأمّ بريجيت، وهي تجيل هذه الخواطر في رأسها، جاثيةً مستقيمة الظهر، وقد أخبأت يديها في طيّات أَردانها العريضة، وشخصَت بأبصارها إلى بيت القربان، وكأنّها تتوقّع، حقًّا، جوابًا خفيًّا يبعث الطمأنينة في ذهنها القلِق.

وفجأةً تطلّعت إلى الساعة في معصمها، وانتصبت على عجَلٍ، فاليوم، دون جميع الأيّام، لا يسوغ أن تتأخّر عن الموعد، غير أنّها، قبل أن تبلغ الباب، أوقفها خاطرٌ طارئٌ، فاستدارت يسارًا، واعتلت كرسيًّا، وانتزعت من الجدار لوحةً عتيقةً كساها الزمن بطبقةٍ سوداء، وتمتمت، مُطرِقة الرأس:

– "يا سيّدة المشورة السديدة، إرأسي أنت اجتماعنا. ألم أَتخلَّ لكِ، منذ اليوم الأوَّل، عن مكاني؟ ألستِ الرئيسة العامّة على جمعيّتنا؟ إنّ الوقت عصيبٌ، ولذلك أعيد إلى ذاكرتك العهد المُبرَم في ما بيننا، وطالما أنت حاضرةٌ، فلن أخشى المواجهة".

في غرفة الطعام كادت الأخت تيودورين تُكذّب بصرها عندما شاهدت الأمّ الرئيسة، التي عهدت فيها جدًّا لا يلين، وقد أثقلت ذراعيها تلك اللوحة. وجلست في مكانها المألوف، وهي ما تزال تلهَث، وقالت للأخت التي كانت تسكب لها كوبًا من مَغْليّ الشعير المحمّص، الذي كَانت تدعوه، مَجازًا، "قهوة":

– "يا ابنتي، امسحي هذه اللوحة واحمليها إلى قاعة الاجتماع".

حينئذٍ فقط، أدركت الأختُ تيودورين أنّ تلك كانت صورة العذراء السوداء التي قد طالما شاهدتها في المعبد، ولم تكن ملامح الصورة التي يعسُر تمييزها هي التي ساعدتها على التعرّف بها، بل إطارها الخشبيّ المنقوش. وبخشوعٍ، مرّت عليها بمنفضة الريش ثمّ بممسحةٍ مبتلّة، فيمَا كانت الأمّ الرئيسة تتناول إفطارها في صمتٍ وفي عجلةٍ، فقد كانت خمس دقائق فقط ما زالت تفصلها عن موعد الاجتماع.

كانت النار الهادرة في المدفأة والتي أوقدت قبل فترةٍ قصيرة، عاجزةً عن بعث الدفء في جوّ غرفة الاجتماع التي سادها بردٌ صقيعيٌّ. فقد كان شتاء عام ١٩٥٣ ذاك ينذر بقسوةٍ فريدة، وكان الدير، منذ مطلع شهر كانون الأوّل، يعاني افتقارًا إلى الفحم، ولم تكن الجمعيّات الدينيّة لتحصل على نصيبها من الفحم إلاّ بالتقتير وبعد مراجعاتٍ مضنية. وحدّثت الأمّ الرئيسة نفسها، وهي تقصد المِنْضَدة التي انتصبت في وسطها الإيقونة التي نزع عنها الغبار: "هذه أيضًا مسألةٌ ينبغي طرحها على بساط البحث".

وراء الكرسيّ المخصّص للأمّ الرئيسة كانت خزانةٌ يعلوها صليبٌ، وعلى هذه الخزانة وضعت الأمّ بريجيت الإيقونة في كثيرٍ من العناية، بعد أن رازت المسافات بدقّةٍ بحيث ساوى إطار الإيقونة العلويّ أقدام الصليب. وفي إزائها كانت الشُرفة المغلقة بالزجاج

تسكب دَفْقًا من الضياء الشتويّ الذي كان قد صفَّاه ثامر ثلجٍ حديثٍ. ولكن، رغم تلك الإضاءة، كانت الإيقونة ما تزال عميقة الإبهام، إلاّ أنّ التقاليد المتوارَثة كانت كفيلةً بتغطية هذا القُصور الحسّيّ بما توفّره من فيض الأساطير الورعة حيث تمتزج الوقائع بالخيال امتزاجًا وثيقًا.

وافتتحت الأمّ الرئيسة الجلسة قائلةً:

– "بناتي العزيزات، يمكنكنّ، ولا ريب، التنبّؤ بما ستكون بداية حديثي. فالوضع على قدرٍ كبيرٍ من الخطورة، وأُمُّكنَّ الأرضيّة المسكينة الماثلة أمامكنّ، تشعر بعجزها عن معالجته. ولقد سألت الله، قبل قليلٍ، أن يلهمني سواء السبيل، وعند مغادرتي المعبد أيقنت أنّ أفضل ما نقوم به هو أن نوكل رئاسة المجمع إلى أمّنا السماويّة، فهي رئيستنا العامّة، وهي على علمٍ بكلّ ما نقاسيه من همٍّ وغمٍّ. وبفضل هذه الإيقونة الموقّرة ستؤازرنا بحضورها، وبنُصحها، وبإلهام الروح القدس الذي يلازمها. فلنفتتح مجمعنا، إذن، بالتزام لحظة صمتٍ إزاءها، ولتسألها كلّ واحدةٍ منّا توفير ما تفتقر إليه من قوّةٍ وبصيرةٍ".

وفي إثر هذه الكلمات، التفتت الأمّ بريجيت شطر الإيقونة، فحذَتْ حَذْوها راهباتها السبع والعشرون جميعهنّ، وخلال لحظةٍ لم يَعُدْ يُسمع سوى هدير النار في المدفأة، ونعيق فريقٍ من البوم على حافّة النافذة، وتنفّس الأخت أَمبرواز المصابة بالربو.

وفجأةً، أطلقت الأمّ "بترونيل" صرخةً عقبتها في الحال صرخاتٌ أُخرى، من الحدَّة والتلقائيّة، بحيث قرّرت الأمّ بريجيت نفسها التي كانت قد عقدت حاجبيها غضبًا، وأَوشكت على إعلان ثورتها على هَتْك جوّ الخشوع، التطلّع إلى ما أثار انفعال الراهبات.

وقد اعترفت، في ما بعد، أنّها فعلت ذلك في كثيرٍ من الحذَر والتحفّظ، فهي، بفِطْرتها، تأبى الانسياق مع الإيمان بالخوارق، وقد طالما قاومت، في عنفٍ، كلّ ميلٍ لدى راهباتها إلى تخيّل الرُؤى، ولا سيّما أنّ الملحدين الحاكمين كانوا يترصّدون أيّ مظهرٍ من مظاهر الهوَس الدينيّ ليتذرّعوا به في مكافحة الدين. وبالتالي، فقد كانت الأمّ بريجيت تحارب كلّ ادّعاءٍ بالخوارق محاربتها للطاعون، ملتزمةً، في هذا المجال موقف تشكّكٍ متصلّبٍ، وواقعيّةً راسخةً، واتّزانًا عقليًّا يتحدّى كلّ امتحانٍ.

ومع ذلك، كان عليها الإقرار بالمعجزة والاعتراف بها، في شيءٍ من الإحراج الممزوج بالدهشة. لقد فركت عينيها، مرَّةً تلو مرَّةٍ، واستنجدت بالقدّيس توما الرسول شفيع المتشكّكين والواقعيّين، كما حاولت أن تردع معاونتها وأمينة صندوق الجمعيَّة اللتين كانتا فاغرتي الفم، وقد سحقهما الذهول. بل كان أعضاء المجمع جميعًا يحاكون مجموعةً من تماثيل ملحٍ، وقد أفلتوا من نطاق الزمان والمكان، ونشبت أبصارهم بالإيقونة.

كانت الأمّ بترونيل هي الأولى التي لاحظت الحدَث وتخيّلت أنّ اللوحة تتحرّك. فقد التمعت في أعلاها، تحت الإطار، رُقعةٌ ذهبيّةٌ

بعرض خمسة سنتمترات، ولكن تحت هذه الرقعة لم يكن شيءٌ يتحرّك في الواقع، بل ظلّت الإيقونة المبهمة غارقةً في الجمود. أمّا ما كان يوحي بالحركة فيها فهو امتداد الرقعة المضيئة واتّساعها. وفجأةً انبثق في وسط اللوحة نتُوءٌ أزرق داكنٌ، وبعد لمحة، تلألأت في قلب هذا النتوء نجمةٌ ذهبيّةٌ متشعّبة الأشعّة، ثمّ برزت أَهدابٌ تزيّنها تَوشياتٌ دقيقةٌ، ثمّ بقعةٌ شاحبةٌ سمراء انفرجت عنها طيّات الوشاح، ثمّ لاح حاجبان دقيقان.

حينئذٍ استعادت الأمّ بريجيت رُوعها، وتيقّنت أنّ المشهد المفاجئ الذي وقع عليه بصرها كان يعني تجدّد الإيقونة التي انزاحت عنها من أعلاها إلى أسفلها أَدرانٌ تراكمت خلال قرونٍ، مثلما ينزاح الستار، وتكشّفت منها ألوانها الأصليّة، وملامح الوجه، ورؤيا المجد التي كانت قد ألهمت الفنّان، وهو يحاول أن يعبّر عمَّا يندّ عن الوصف والتعبير.

لقد برزت الآن العينان بكلّ ما انطوتا عليه من حزنٍ ورقّةٍ، وكأنّ نظرهما يخترق الغلاف المادّي لينفذ إلى أعمق سرائر النفس، فيتجلّى ما حقّقه الفنّان المجهول من إعجازٍ في التعبير عن ذلك الحبّ الذي يشمل بعطفه الوجود بأسره، ويهَبُ نفسه كاملاً لكلّ من ينصبّ عليه وكأنّه هو الأوحد في الدنيا، حبّ أمٍّ لا تميّز ولا تختار، بل تغمر به الجميع، بحيث استقرّ، في رُوع كلّ راهبة، أنّها وحدها كانت تستميل تلك النظرة المثقلة بالحنان، النافذة كالسيف.

لقد بذلت الأمّ بريجيت الكثير من الجهد الجريء كي تنزع عن المعجزة بصرها، كم كانت تؤْثر أن تظلّ وبناتها، إزاءها، في تأمّلٍ أخرس. غير أنّ وظيفة الرئيسة العامّة، في پولونيا تلك الأيّام، لم تكن لتتيح أيّ عبثٍ أو تهاونٍ، فالرؤيا لا بدّ أن تتلاشى، ولا بدّ من شهودٍ يثبتون أمام الكنيسة حصولها، ولم يكن ليغرُب عن بال الأمّ بريجيت حالات الإيحاء الذاتيّ والهوَس الجماعيّ، فآثرت، في أَوْج حدوث المعجزة، التزام جانب الحذر.

في تلك الأثناء، كان الوشاح الداكن ينسدل ببطءٍ، مسفرًا عن وجهٍ بيضاويٍّ تذهّبه أشعّة الشمس، وعن أنفٍ ينتصبُ في وسطه مستقيمًا ودقيقًا. إلاّ أنّ الأمّ بريجيت مزّقت أخيرًا جلال التأمّل قائلةً:

– "يا بناتي، أمامكنّ قِرطاسٌ وحبرٌ وأقلام، فباسم الطاعة المقدّسة آمركنّ أن تسجّلن، كلٌّ منكنّ على حِدَةٍ، ما تشاهدنه، فنحن بحاجةٍ إلى مَحضَرٍ حسب الأصول نضعه بين يدي سيادة الأسقف".

لم تبدُ، قطّ، الطاعة المقدّسة للراهبات عبئًا ثقيلاً مثلما بدت في تلك اللحظة، عندما اضطررنَ، متحسّرات، إلى الإشاحة بأبصارهنّ عن الإيقونة التي كانت ما برحت تنزع عنها وِشاحها. وحدَّقت الأمّ بريجيت في ساعتها وقالت: "انتبهن، فاليوم هو الخامس عشر من كانون الأول من عام ١٩٥٣، والساعة هي التاسعة والدقيقة الرابعة والثلاثون...". ثمّ كانت هي القدوة إذ شرعت فورًا بالكتابة.

السيّدة العذراء

سيدة شيستوهويا

لقد اسْتَمَرَّ "تجدّد" الإيقونة اثنتين وخمسين دقيقةً. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة كان الفنّانون غير المنظورين قد فرغوا من مهمّتهم، وتجلّى سطح الإيقونة بأكمله مصقولاً بعنايةٍ وناصعًا، ما عدا مثلّثًا في الجانب الأيمن السفليّ، وكأنّه قد تُرك عن قصد، ليقوم دليلاً على ما كانت عليه الإيقونة من تراكم الأَوضار فوقها. وقد خُيّل إلى الراهبات، أوّل، الأمر أنّ بقاء ذلك المثلّث كان يعني توقّفًا مؤقتًا في المهمّة المعجزة، وأَصررن على انتظار اللمسة الأخيرة التي من شأنها إزالة كلّ أثرٍ قديمٍ. غير أنّ الأمّ بريجيت أنذرهنّ ضاحكةً:

– "لقد قُضي الأمر يا بناتي: ألا ترين أنّ ما تبقّى من أَثرٍ هو البرهان القاطع الكفيل بدَحْض كلّ ادّعاءٍ بأنّنا قد استبدلنا إيقونتنا بإيقونةٍ أُخرى؟ إنّ أهل السماء لشديدو الفطنة، وعلى قدرٍ وافرٍ من المرح أيضًا".

وتحت أبصار الإيقونة "المضيئة" الحانية، عكف المجمع على مقارنة سبعٍ وعشرين شهادةً اتّفقت جميعها حول أدقّ التفاصيل، وعلى وضع المَحْضر الذي سيقدّم إلى سيادة الأسقف، ثمّ انتقل المجمع فورًا إلى البحث في جدول الأعمال.

وقد سألتُ، في ما بعد، الأمّ بريجيت في كثيرٍ من الدهشة:

– "وكيف حرمتِ راهباتك فرصة استعادة أنفاسهنّ، في أعقاب ما آنسنَ من انفعالاتٍ حادَّة؟".

فأجابت:

– "لم يكن في سبيل ذلك فُسحةٌ، فكثيراتٌ منهنّ كان عليهنّ العودة بقطار المساء، وكان برنامج أبحاثنا حافلاً".

– "وماذا، إذن، عن الأبحاث التي كانت تبدو مستعصيةً؟"

– "لقد سارت الأمور على أَهون وجهٍ. لم تتلاشَ المشكلات بالطبع، ولكن أصبحت لدينا القدرة على استشفاف الحُلول من خلالها".

أمّا الأسقف، فبعد أن اطّلع على الحدث أمر بالكتمان في انتظار أوقات أكثر ملاءمةً، وقد أيّدته الأمّ بريجيت وراهباتها أشدّ التأييد في هذا المَنحى خشية أن تنتزع منهنّ الإيقونة "المتجدّدة". لقد تحمّلنَ، بشجاعةٍ، تضحية التخلّي عن الإيقونة للكنيسة، ولكنّ خوفهنّ من أَن تُفضي إشاعة الأمر إلى استيلاء وزارة الأديان عليها واستغلالها بعرضها في أحد المتاحف قد عقل ألسنتهنّ.

ولذلك، أنا أيضًا قد جَهَدتُ، أيّتها الأمّ بريجيت العزيزة، في تمويه المعالم.

أمّ الله

أمّ الله

كان الليل ما يزال حالكًا عندما أطلق المنبّه صوته الحادّ، فاستيقظت "هانيا" مذعورةً، ولكنّ عودتها إلى أرض الواقع الصلبة استغرقت بضع دقائق، ريثما استطاعت الانعتاق من رؤى حلمٍ كانت تشاهد فيه نفسها تتزلّج على جبال "تترا"، وقد تلألأ الثلج بألف بريقٍ، وراحت الريح تصفر في أذنيها، بينما كانت هي تَثْني ركبتيها استعدادًا للقفز... إذًا، لم تكن الريح هي التي تصفر، بل كان صرير المنبّه المزعج، وأخذت تفرك عينيها اللتين ما برحتا مثقلتين بالنعاس. فالساعة لَمْ تتعدّ الثالثة صباحًا، ولكنّ زميلاتها بانتظار موعد التبديل، وقد أُنيطت خدمة المستشفى كلّه بخمسٍ منهنّ، ليس إلاّ.

وعندما استوت جالسةً، دهمها من خلال الحاجز دَفْقٌ من الأصوات المتنافرة؛ فقد كانت أمواج التأوّهات تتصاعد مدًّا صاخبًا، وتنتشر، في صراخٍ حادٍّ، ثمّ تتراجع، في هديرٍ رتيبٍ، لتعود إلى أَوْج

حدّقها من جديد؛ ولقد طالما ألفتْ "هانيا" تلك الـــضوضاء حتّـــى أصبحت قادرةً أن تميّز وسط ذلك اللغَط، النداءات الملحاحة، مثل ذلك الصوت الرقيق المنبعث من غرفة المبتورين، والذي كان يردّد، منذ يوم أمس، نداء "أُمّي" ترديدًا رتيبًا متواصلاً. فالهذَيان كان يهدم حواجز الحياء التي تلجم الأفواه، فيتصاعد من جميع المَهاجع، في مثل لازمةٍ عنيدة الترداد، أيًّا كان منشأ المرضى وجنـــسيّتهم، نـــداءات استغاثة بالأمّ البعيدة، المخلصة، التي لا تنسى.

"إنّ كلّ جريحٍ يمسي كالطفل". جالت تلك الخاطرة في ذهـــن "هانيا" فيما كانت تَغْمس وجهها في وعاءٍ يحتوي على ماءٍ عكرٍ؛ فقد كان القصف المدفعيّ قد فزر الأنابيب، وافتقر المستشفى إلى المـــاء؛ ولكن لو اقتصر الافتقار على ذلك السائل الثمين فحسب، لهانـــت الأمور؛ ففي مساء الأمس، كان رئيس الأطبّاء قد أعلن، متألّمًا، أنّ صيدليّة المستشفى قد باتت خاويةً تمامًا، وأردف قائلاً للممرّضات: "تدبّرن أموركنّ بحسب ما تستطعنَ إلى ذلك سبيلاً، ولا بـــأس، في سبيل إنقاذ معنويّات المرضى، من حقنهنّ أحيانًا بشيءٍ من... الماء".

وصعقت "هانيا" لدى سماعها ذلك، وانفردت برئيس الأطبّـــاء لتسأله ملتهّفةً:

– "وماذا عن عقاقيري ضدّ التكزّز التي أشرفت على النفاد؟"

وأَشاح الطبيب بعينيه اللتين خضَّبهما السُهاد بلـــون النجيـــع، وأجاب:

– "لقد خلا منها وِفاضُنا، ولا أمل في أن يزوّدنا بهـا أولئـك البلاشفة الأَوغاد".

في أعقاب سقوط "ڤـرسوڤـيا" كان الجيش الأحمر قـد تـابع زحفه، وسيطر على مدينة (...) القابعة على ضفاف الـڤـيـستول، ومنذ ثلاثة أيّامٍ ما انقطع الجرحى والمرضى الروسيّون يتدفّقون علـى المستشفى الذي كان غاصًّا، من قبل، بالمصابين من رجـال المقاومـة البولونيّين، وبات مستخدمو المستشفى يواجهون وضعًا مـن الحـرَج بمكانٍ؛ ولم يكن ليغرُب عن بال "هانيا" أنّ قوانين مهنتها تفرض عليها عدم التمييز بين مريضٍ وآخر؛ إلاّ أنّها، رغمًا عنها، لم تكن لترى بعين الرضى أولئك الدُخلاء الروس؛ وها قد جاءها الافتقار إلى العلاجـات الأساسيّة بمزيدٍ من الحَرج، طارحًا على وجدانها حالاتٍ جديدةً عصيبةً؟ وقد حاولت أن تلتمس للاضطراب الذي يجتاحها مخرجًـا، فـسألت رئيس الأطبّاء:

– "إنّ ما بحَوزتي من حُقَنٍ معدودٌ ومحدودٌ؛ فلمن حَقُّ الأَولويّة حين تتساوى درجات الخطر؟"

حينئذٍ حدّق فيها الطبيب وأجاب:

– "إنّك ممرّضةٌ، وتعلمين ما يعني واجب مهنتك، فلا تتخـاذلي إزاء مسؤوليّاتك".

وتفاعلت الثورة في أعماق الممرّضة، وكادت تَجْأَر باستنكارها، إذ كان عليها، وفقًا لتعليمات الطبيب، أن تصدر في بعض الحالات

أحكامًا بالإعدام. وأيًّا كان خيارها، كان عليها أن تدع بعض المرضى يتعرّضون لأبشع صنوف الاحتضار. وأحسّ الطبيب بما يجيش في صدر الممرّضة، فمرّ بيده الرقيقة على غطائها الأبيض قائلاً:

– "يا بنيّتي، أنا أعلم أنّك، في أثناء دراستك المهنيّة، لم تتهيّئي لمثل هذا النمَط من المآزق. فنحن نعيش في أحوالٍ غريبةٍ لم يكن ليتنبّأ بها أيّ كتاب مدرسيٍّ؛ لا يحقّ لي أن أنفذ إليك توجيهاتٍ مبهمةً؛ بل عليك أنت أن تواجهي الحالات الواقعيّة، واثقةً بالعناية الإلهيّة".

بينما كانت تلك الذكريات الحديثة تتوارد إلى بال "هانيا" متمازجةً مؤلمةً، شكّت المشط في شعرها (راجيةً ألاّ يكون قد انتشر فيه القمل من جراء القذارة السائدة) واعتمرت غطاء رأسها الأبيض وتأهّبت للخروج، وفجأةً هاجمت ذهنها المقاطع الأخيرة من حديثها بالأمس مع رئيس الأطبّاء، فتصاعدت من نفسها الصلاة، وهي تصلح سريرها الميدانيّ، قائلةً: "يا إلهي، لقد خلقتني امرأةً، ومهمّة المرأة هي وهبُ الحياة لا الموت".

وكان المُصابان بالتكزّز قد عُزلا في غرفةٍ ضيّقةٍ، رغم الافتقار إلى الأمكنة، إذ إنّ ما ينتابهما من اختلاجٍ وتشنّجٍ كان من شأنه بعث الجزَع والقُنوط في قلب سائر المرضى؛ وقد حُشرا الواحد قرب الآخر: أحدهما كان بولونيًّا في السابعة عشرة، والآخر روسيًّا يناهز الأربعين.

وارتعدت "هانيا" عندما تذكّرت أنّ عليها مقابلتهما بعد

لحظات؛ فرغم ممارساتها الطويلة للتمريض، لم تكن قد استطاعت أن تألف مثل تلك النوبات المريعة التي تجعل الأجسام تحاكي أقواساً مشدودةً؛ وكانت تستقْري في خيالها مراحل المرض المتعاقبة التي تسبق النهاية الأليمة، والتي يزيدها حدّةً احتفاظ مرضى التكزز بوعيهم تامًّا، لا يفقدونه لحظةً واحدةً؛ فحتّى حين يعقد المرض ألسنَهم، تظلّ عيونهم تسدّد نظراتٍ صاحيةً مخيفةً...

مرّةً أُخرى أحصت "هانيا" حُقَنها، ومرّةً أُخرى توطّد لديها اليقين بأنّها تملك ما يكفي لواحدٍ فقط، لا لاثنين، فأيّهما سيظفر بحُظوتها؟

وتطلّعت إلى ساعتها، وفي نوبة تخاذلٍ انهارت على كرسيّها الواطئ؛ فلقد كانت، بكلّ جَوارحها وبكلّ أوتار قلبها، قد حدّدت اختيارها.

"يانك" الفتى الأزرق العينين الذي كان قد جيء به في حال يدعو للرثاء، لم تكن جراحه في الواقع بالغة الخطورة، وقد خُيّل أنّ إنقَاذه قريب المَنال، عندما برزت فجأةً، منذ يومين، دلائل التكزّز. كم كان يتشبّث بالحياة، وكم كان يقاوم، بعنفٍ، قبل كلّ نوبة! عشيّة أمس، كان يبدو الخطر قد تضاءل بفضل العلاج، وكان يقول لها في كثيرٍ من التفاؤل: "سأنجو، سترين ذلك، بضع حُقناتٍ أُخرى، وسنرقص معًا".

وتلمّست "هانيا" الحقيبة المعلّقة بكتفها... كان فيها بالفعل بضع حقنٍ أُخرى؛ ولكن... هناك المريض الآخر... ذلك المارد الجِلْف الذي انتصب شعره كشعر فرشاةٍ قاسيةٍ؛ لم يكن يتكلّم سوى

روسيّة تدلّ مفرداتها المحدودة الخشنة على ثقافةٍ بدائيّة؛ وهو على كلّ حالٍ كان مقتصدًا في الكلام، قليل الشكوى؛ وكان عند وصوله إلى المستشفى قد عرض على "هانيا" ميداليّةً للسيّدة العذراء العجائبيّة، وسألها:

– "من هي هذه المرأة التي وجدتها مرميّةً على الأرض؟"

وقد أغضب الممرّضةَ هذا السؤال الذي كشف لها عن مدى الإلحاد الذي انحدر إليه الشعب الروسيّ، فأجابته، بحدّةٍ، وهي تؤكّد كلّ لفظةٍ من ألفاظها:

– "هذه المرأة هي القديسة العذراء". وعندما لمحت في عينيه الحيرة، أضافت بالروسيّة:

– "هذه هي أمّ الله".

وردّد الرجل من بعدها "أمّ الله". وخُيِّل إليها أنّ الموضوع قد طوي. ولكنّها كانت تنظر شَزْرًا إلى ملامحه المعبّرة عن بلاهةٍ مستحكمة، وتفكّر راثيةً له: "إنّ هذا المسكين لا يفقه حتّى معنى هذه العبارة"، ولم يكن الوقت ملائمًا لتلقينه درسًا في الدين، ولم يكن يبدو، هو – پيوتر ايڤانوڤيتش – راغبًا في ذلك. وكان عليها أن تختار بين هذا الوَغْد و "يانك"... أو أن تدعهما كليهما يَلقيَان حَتْفهما.

مرّةً أُخرى عدّت "هانيا" الحُقَن، وتحقّقت أنّها تكفي لأحدهما فقط، لا لكليهما. ولو هي وزّعتها بالقِسطاس بينهما لأقامت، ربّمَا،

العدل، ولكنّها ستعرّضهما كليهما للموت؛ ولو هي اختارت أحدهما فستظلّ تَبعة حياة بشريّة تَرِين على ضميرها، لأنّها ستقتل الآخر؛ ومرّةً أُخرى، تبيَّنت أن جوارحها كانت قد وقفت على اختيارٍ، في حين أنّ وجدانها كان ما برح يتخبّط في حيرةٍ قاتلة؛ ووجدت نفسها تجثو وتصلّي: "أيّتها العذراء ارحميني"؛ ثمّ غادرت مُخدَعها الحقير، مسرعةً، في حين كان ديكٌ يصيح بعيدًا.

كان الممرّ معتمًا يفوح بروائح البنج؛ ومن فُرجة الأبواب كان ينبعث مزيجٌ من روائح التعرّق المُزْكم والدم النتن والأمتعة القذرة؛ وعلت شفتيها ابتسامةٌ وهي تتذكّر مبادئ النظافة والصحّة الوقائيّة التي كانت قد تلقّنتها؛ فلو كانت تلك المبادئ صحيحةً لكان على جميع الجرحى أن يهلكوا وسط ذلك الافتقار المُدْقع إلى أشدّ العناصر الأساسيّة ضرورةً؛ غير أنّ الجروح كانت تلتئم خلافًا لكلّ توقّعٍ، وكانت الطبيعة تبذل من مواردها بسخاءٍ حيث كان العلم والفنّ يعلنان عجزهما.

ولكن كان، أيضًا، للافتقار الناجم عن الحرب ضحاياه، وكانت مقاومة المرضى تتراخى وتهبط إلى حدودها الدنيا عند ساعات الصباح الأولى؛ حينئذٍ كانت حَشْرجات الاحتضار تختلط بالهذَيان وبصيحات الألم الحادّة والفُواق.

وعرَت "هانيا" رعشةٌ عندما سمعت مُحتضَرًا يقول: "مثل عصفورٍ في قفصٍ تَنْشُد نفسي مَهربًا فتصطدم وتتخبّط قبل أن تخرج".

كان الممرّ خاويًا تغمره الرهبة، لا نور فيه سوى ما يتسلّل من مصباحٍ شحيحٍ؛ وكانت الممرّضة "تيريز" تخرج من القاعة ذات الرقم ٣ وهي تحمل سطل نفاياتٍ، فبادرتها "هانيا" بالسؤال:

– "كيف الحال؟"

– "منذ لحظات لفظ (ستازيك) أنفاسه".

قبل أن تلج القاعة ارتدت "هانيا" معطفها الذي كان معلّقًا بمسمار؛ وكان المصابان بالتكزّز في أقصى القاعة، وقد عُزلا عن سائر المرضى بحجابٍ رقيقٍ. بين سريريهما كانت فتاةٌ صغيرةٌ قد غافلها النوم على كرسيّها، ويدها ما برحت ممسكةً بمحقنةٍ؛ أيقظتها "هانيا" بقولها:

– "هيّا إلى النوم يا (يولاند)، فأنا هنا". وسألتها الفتاة:

– "هل أتيتِ بالحقن؟ فقد نفد كلّ ما كان لديّ منها".

ردّت عليها "هانيا" في شيءٍ من العصبيّة:

– "اذهبي فارقدي، ودعيني أتدبّر الأمور".

وقبل أن تغادر، التفتت "يولاند" إلى السرير اليساريّ وقالت:

– "تشجع يا (يانك)؛ فبما أنّ (هانيا) قد أتت، سيسير كلّ شيءٍ على أفضل وجه".

وسألتها "هانيا": "وماذا عن الآخر؟"

– "إنّه نائمٌ".

وما إن انفردت "هانيا" وحدها، حتّى أخرجت من جيبها علبة الحقن، فيما كان "يانك" يلاحقها بنظره، وقال لها:

– "لقد حان الأوان، فالطبيب قد أمر بحقنةٍ كلّ ساعتين".

أجابت "هانيا" وهي تحاول الابتسام:

– "الطبيب، الطبيب؛ ليس عليك، بل عليّ أنا تنفيذ أوامره، وأنا أعرف أن لا بأس من تمديد الفترة الفاصلة بين الحقنة والأُخرى".

وفجأةً انتصب "يانك" جالسًا وبادرها بالسؤال:

– "امحَضيني الحقيقة أيّتها الأخت (هانيا)، هل حدث نقصٌ في الحقن؟"

لم تكن الممرّضة تتوقّع سؤالاً مباشرًا على هذا القَدْر من الصراحة، وأحسّت أنّ وجنتيها قد تخضّبتا، فأمستا كشقائق النعمان؛ وتظاهرت بمراجعة مفكّرتها وردّت في لهجةٍ حادّةٍ محاولةً إخفاء انفعالها:

– "لا تكن أحمق، فلديّ كلّ ما يلزم".

ولكن "يانك" لم يقتنع فأردف قائلاً:

– "أيّتها الأخت (هانيا) إن كنتِ في الواقع تواجهين افتقارًا إلى الحقن فإنّني أوثر معرفة ذلك، لأكون متأهّبًا للموت الذي لا أخشى مواجهته؛ فلقد رضيت بالتضحية على حدّ ما لقّنتني أمّي؛ لذلك أسألك مصارحتي؛ إنّني أعلم بأنّني سأحتفظ بوعيي كاملاً حتّى نهاية الشوط، ولست راغبًا في أن أراكِ قد كذبتِ، فصارحيني، أيّتها الأخت (هانيا)".

وكان صوته وهو يلفظ هذه العبارات الأخيرة قد اكتسى لهجةً متوسّلةً، منكسرةً، هزّت الممرّضة في أعماقها، فأطرقت، نهبًا للحيرة؛ وعبثًا كانت تجتاز خاطرَها العباراتُ التقليديّة، فالوقت لم يكن ملائمًا

للألفاظ الخدّاعة؛ ولم تكن جميع مبادئ مهنتها لتحملها على الكذب إزاء ذلك الفتى الذي كان يعلّق عليها نظرًا مُفعمًا بالتوسّل. ولم يكن من حقّها أن تخيّب أمله، في مواجهة الموت... ثمّ... برق في بالها أملٌ خاطفٌ... فالأمر لم يكن قد قُضيَ نهائيًّا؛ وبعد أن تأكّدت بلمحةٍ من أطراف ألحاظها أن المُصاب الآخر كان نائمًا مُغلَق العينين لا يبدي حراكًا، أعلنت بصوتٍ أجشّ:

– "الحقيقة أنّ لديّ ما يكفي لمعالجة واحدٍ منكما، لا كليكما".

وانهدّ "يانك" على وسادته، كمن تلقّى في صدره طعنة خنجرٍ، ثمّ تمالك نفسه ليسأل بصوتٍ جريحٍ:

– "وإذًا، فمن ستختارين؟"

أمّا "هانيا"، بعد أن أفلت منها إقرارها بالواقع، فكانت ترتعد وتصبّ على نفسها اللوم، وتتخبّط بحثًا عن مخرجٍ وتتمتم الأعذار، في حين كان الفتى قد تشنّجت ملامحه وملأ الذعر بصره وازداد إصرارًا وإلحافًا في السؤال:

– "إذًا، أنتِ التي ستقرّرين الخِيار".

وفي تلك الأثناء كانت، هي، قد دفنت وجهها بين راحتيها، وانخرطت في البكاء، وقد رانت عليها عوامل الإرهاق والسُهاد والحيرة، متراكمةً؛ إلاّ أنّها حاولت أن تقاوم من جديد، فنهضت ووصلت المِغلاة بالتيّار الكهربائيّ لإعداد المحقنة، وقالت:

– "هيّا، هيّا، ستتناول الآن حُقنتك، وفي ما بعد سنرى".

ولكنّه ألحّ في السؤال:

– "وهو، إذًا؟"

– "هو؟ سيحصل أيضًا على حُقنته، ولكن أنتَ اهدأ رُوعًا".

في تلك اللحظة كان كلّ ما يَشغل الممرّضة هو أن تتفادى، بأيّ ثمنٍ، النوبة التي كانت قد أخذت تثير تشنّج يدي "يانك" ورقبتــه؛ ولقد كان أثر الحقنة فوريًّا.

ثمّ التفتت إلى السرير الآخر، والمحقنة في يدها، وفتح الروســيّ عينيه وتطلّع إليها وصاح محتجًّا: "كلاّ!"

فكادت تسقط من يدها الحقنة الثمينة التي كانت موشكةً على فتحها؛ وكان الروسيّ لا يزال يسدّد إليها نظراتٍ صافيةً تمامًا ويردّد في حزمٍ:

– "كلاّ، كلاّ!"

كانت "هانيا" تفهم الروسيّة، ولكنّها تلقى عناءً في تكلّمها، وقد حيّرها ذلــك الــرفض غــير المتوقّــع، ولا ســيّما أنّ "پــيوتر ايــڤــانوڤــيتش" كان، حتّى ذلك اليوم، أكثر المرضى لين عَريكة؛ فتقدّمت من سريره، وهي ما تزال قابضةً المحقنة، لكنّه انتزعها فجأةً منها، وردّد للمرة الثالثة:

– "كلاّ، كلاّ!"

وصاحت به "هانيا" مذهولةً: "ما الذي دَهاك؟" فأجاب وهــو يحتفظ بالمِحقنة في يده الغليظة:

– "لا بأس، لا بأس؛ لقد أدركتُ جيّدًا أن ليس لديك ما يكفي كلينا من الحقن وأنّك تواجهين مشكلة الخيار". ثمّ أشار برأسه إلى "يانك" وأردف قائلاً: "هو شابٌّ، أمّا أنا فَقد تقدّمت بي السنّ؛ هو له أبٌ وأمٌّ، أمّا أنا فيتيم كليهما؛ هو متشبّثٌ بالحياة، وأنا عازفٌ عنها؛ لذلك أرفض الحقنة؛ فما الجدوى وأنتم لا تملكون ما ينقذ كلينا؟ وأنا أوفّر عليك حيرة الخِيار فأختار عنك".

ولم يكن الروسيّ قد أَسهب قطّ في الحديث على هذا النحو؛ وكانت "هانيا" تصغي إليه ولا تدرك جيّدًا كلّ ما يقول، وردّت عليه قائلةً:

– "هيّا، هيّا، "پيوتر ايڤانوڤيتش"، دعني أتصرّف".

فكان ردّه أن سحب غطاء السرير فوق رأسه واستدار شطر الحائط؛ لقد أحسّ بأنّه أدلى بكلّ ما كان عليه قوله، باذلاً في سبيل ذلك جهدًا كبيرًا، وأنّه أدّى مهمّته، وطُوي الأمر. وعبثًا حاولت "هانيا" أن تخرجه من الصمت الذي اعتصم به، إذ كلّما كانت تدنو منه ممسكةً بالمحقنة كان يدفعها بيده قائلاً: "كلاّ!"

وقد حاول "يانك" بادئ الأمر أن يحذُو حَذْوه، وأخذ يردّد:

– "إن رفضت أنت، فسأرفض أنا أيضًا".

حينئذٍ فتح الروسيّ عينيه وخاطبه:

– "لا تكن أحمق" – ثمّ أردف بعد فترةٍ من التأمّل: "أنت لك أمٌّ تنتظرك، أمّا أنا فلا أحد ينتظرني".

وكانت الساعات تنساب كدمٍ يجري من جرحٍ نازفٍ؛ وكل ساعةٍ كانت حبلى بالحياة والموت. أمّا "هانيا" التي كانت مهمّات الخدمة لا تني تتلقّفها، فكانت تؤوب بانتظامٍ إلى قسم التكزّز بمحقنتها وحقنها الثمينة؛ وكان "پيوتر ايڤانوڤيتش" مقيمًا بعنادٍ على رفضه الذي ما لبث أن اعتلنت آثاره، فقد كانت النوبات تنشب في فتراتٍ تزداد تقاربًا؛ وعندما أُحيط رئيس الأطبّاء بالأمر التفت إلى "هانيا" وأسرّ: "لقد قُضي عليه". ثمّ حدّق إليها طويلاً وأردف: "لن يبكّتك ضميرك، فلم يكن الخِيار خيارك". أمّا هي فلم تستطع الإجابة لأنّها كانت تغصّ بالنشيج.

وبقدر ما كانت النوبات تتسارع وتشتدّ حدّةً، كان "پيوتر إيڤانوڤيتش" يبدو أكثر صحوًا، لا بل كان يبتسم أحيانًا وهو يتمتم كلماتٍ مبهمةً؛ وفي أثر كلّ نوبةٍ تنتابه كان يلتفت صوب "يانك" مردّدًا: "لا بأس".

وفي المساء رفضت "هانيا" أن تُستَبدَل بها ممرّضةٌ أُخرى، وأصرّت على البقاء حتّى النهاية؛ وقرابة الساعة الحادية عشرة، بعد أن قامت بجولتها النظاميّة، جاءت فجلست على مقعدٍ واطئٍ إزاء السريرين حيث يرقد المصابان؛ وكان "يانك" مستغرقًا في النوم بعد أن نال منه الإرهاق؛ لقد نجا، ولكن بأيّ ثمنٍ؟! أمّا الروسيّ فقد كان يقاوم بشكلٍ ظاهرٍ التصلّب الذي كان كالغُلّ يحيط بعنقه؛ وكان بعينيه الصافيتين يتابع كلّ حركات الممرّضة، وقد حاول في إحدى

الفترات أن يبتسم لها، غير أنّ ملامحه المتشنّجة لم تُسفر سوى عن تكشيرٍ أليمٍ.

ونال الإرهاق من "هانيا" فغلبها النعاس لحظةً؛ إلا أنّ نأمةً خفيفةً أيقظتها مرتعدةً، فرأت "پيوتر إيڤانوڤيتش" وقد استوى على سريره وحدّق إلى زاويةٍ من الغرفة وقد اتّسعت عيناه؛ والتمع أملٌ خُلّبٌ في ذهن "هانيا" فوثبت واقفةً، إذ لم يكن يبدو أمرًا طبيعيًّا أن يزول على هذا النحو الفجائيّ، وعلى عتبات الموت، التشنّجُ الذي كان، لساعاتٍ خلت، يشُدّه كالقوس؛ ولكنّها تنبّهت، فجأةً، إلى أنّ الروسيّ لم يكنْ يراها، أو أنّها بالأحرى كانت تحجب عنه الرؤيا التي كان يتابعها، وبحركةٍ من يده أشار لها بالابتعاد، فيما كانت عيناه اللتان تزدادان بريقًا معلّقتين في نفس الزاوية؛ وَتَطَلَّعْت "هانيا" إلى حيث كان يحدّق فلم تشهد شيئًا، ودنت من سريره، وفجأةً أخذ "پيوتر ايڤانوڤيتش" يتكلّم بصوتٍ عذبٍ وجرْسٍ موسيقيٍّ:

– "آه! كم هي جميلةٌ! كم هي نيّرةٌ! كم هي طيّبةٌ! اُنظري: إنّها تبتسم لي! اُنظري: إنّها تدعوني! ولكن، من أنتِ يا سيّدتي؟ أجل، أجل، أنا قادمٌ".

وسكت لحظةً، كأنّه ينصت، ثمّ صاح بكلّ قوى رئتيه:

– "أمّ الله".

ومع هذه الصيحة لفظ روحه.

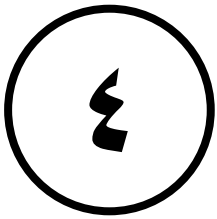

٤

الأب ألِكسَندر

الأب ألكسندر

قال سيرْج وهو يطوي صحيفته: "هناك بَونٌ شاسعٌ بين نظرتكم إلى المجرمين ونظرتنا، نحن، إليهم؛ فالنظرة الغربيّة المستوحاة من الحقّ الرومانيّ تقضي بأن يُقصي المجتمع المسيء، مثلما يطرد الجسم الخلايا المعطوبة؛ ولا ريب أنّ هذا الموقف ينطوي على مبدإٍ اجتماعيٍّ سليمٍ؛ ففرض الحَجْر على البُرْص هو وقايةٌ للمعافَين. أمّا نحن فنرى أنّ المجرم هو أوّلاً خاطئٌ، ومن ثمّ إنسانٌ بائسٌ يتعلّق أمره بشؤون الروح أكثر من تعلّقه بالعدالة البشريّة؛ ونحن نقابله باحترامٍ، لأنّه يوحي بذكرى البريء الأكبر الذي صار، لأجلنا، خطيئةً، ولقي التعذيب كمجرمٍ أثيمٍ؛ وحتّى عندما يستأهل المجرم عقابًا، فإنّ ما ينحدر إليه من انحطاطٍ في أعين المجتمع يخوّله الحقّ بالرأفة".

وقد اعترضتُ في عنفٍ: "تلك هي نظريّة دوستويفسكي في "الجريمة والعقاب" التي لا نستسيغها كثيرًا؛ إنّني أشتمّ شيئًا من المازوشيّة في ذلك التغنّي بالمجرمين الذي يبرز في بعض روائع الأدب الروسيّ؛ أوَليس ذلك تشويهًا لمعنى الخطيئة التي يجب مقتها لذاتها؟"

أجاب: "نعم، يجب كُره الخطيئة، لا الخطأة؛ ولا يغرُبَنّ عن بالك ما قاله القديس أغوسطينوس في هذا الشأن؛ ولا يسوغُ الخلط بين أَعتى مجرمٍ وجريمته، إذ إنّ نفسه الثمينة تتعدّاه، وهي أبـدًا قـادرةٌ علـى استيعاب الله؛ لا بل قد تصبح الخطيئة نفسها حافزًا؛ فشاول لم يكـن ليصبح بولس لو هوَ لم يجلب على نفسه جمرات الغفران المتّقدة من قبل ذلك الفتى الذي أوعز هو برجمه؛ لقد كان القدّيس اسطفان هو الذي مهّد له طريق دمشق..."

– "ألست تحاول أن تقيم، من استثناءٍ رائعٍ، قانونًا دائمًا؟"

"لكي أجيبك، عليّ أن أَسبُر، على غِرار الله، أَغـوارَ الكِلـى والقلوب؛ وماذا ندري، نحن، عن اثّار النعمة مـن النفـوس الـتي أحرقها البغض الذي هو رفضٌ للحبّ؟ إنّ القشرة الحـصينة الـتي تغلّف قلوب أدعياء الفكر والفرّيسيين، لهي أشدّ قسوةً وحُؤولاً دون تسرّب النعمة إليها، إنّ المجرم والقدّيس يستويان في بُعـدهما عـن فصيلة الفاترين الذين يتقيّؤهم الله من فمه؛ ولا تَنـسيَنَّ أنّ الـربّ نفسه قد رقّى إلى رتبة القداسة وَغدًا محكومًا بالإعدام".

– "ومن ذا الذي تعنيه بحقّ السماء؟"

– "اللصّ الطيّب؛ إنّه، على ما أعلم، هو الوحيد الذي ضمن لـه الخلاص، بما لا يقبل الريب، المسيح، رفيقُه في الصلب، عندما قال له: "الحقّ أقول لك، إنّك اليوم ستكون معي في الفردوس". مَن سواه يسعه أن يفخر بمثل هذا اليقين؟ إنّ كنائسنا الشرقيّة تقيم وزنًا كبيرًا للـصّ

الطيّب، شفيع السجناء والمحكومين بالإعدام؛ وأنت ألا تزال، بعد هذه السابقة، تجد ضَيرًا في استشفاف قدّيسٍ ممكنٍ كامنٍ داخل مجرمٍ بائسٍ؟"

– "إنّ ما تقوله يكاد يكون مفارقةً، ومع ذلك..."

– "إنّ المسيحيّة، في الواقع، هي طائفةٌ من المُفارقات. وإنّ الصليب ما برح ينهض فضيحةً! وثقْ أن لا دوستويفسكي ولا برنانوس قد جَسَرا على المضيِّ في نظريّاتهما حتّى النهاية؛ وحادثة اللصّ الطيّب هي تَحدٍّ ما زال قائمًا، وإنّ الوقوف على بعض خفاياها يقتضي تقصّيها لا من الخارج كما يفعل المتفرّج، بل من الداخل، تقصِّيَ المدقِّق. وإنّ بعض الحقائق لا يحسن قولها من خلال حاجزٍ، بل لا بدّ من مشاطرة السجناء مصيرهم في سبيل البلوغ إلى عقولهم وقلوبهم؛ إليك مثالاً على ذلك الأب ألكسندر الذي كان بدوره لصًّا طيّبًا؛ فبعد أن كان كاهنًا زريًّا يُلحق بكهنوته العار، ارتقى، في نظري، إلى ذُرى أسمى بطولةً، ولقي نَحبه في سبيل الإيمان، شأنه شأن أيّ شهيدٍ حقّ".

– "في قلعة بطرس وبولس؟"

– "أجل. فأنا من القلائل الذين نجوا من قلعة "تروبيتز كوي" حيث كان المئات منّا مكدّسين شأن القطعان؛ ففي الزنزانة التي كنت ملقًى فيها، كان يتعذّر علينا أن نجلس جميعًا، بحيث كان لا بدّ من أن نقعد القرفصاء بالتناوب، فوق مياهٍ آسنة. وكان الجليد من الشدّة بحيث يفتّت الصخور، وقد تفزّرت، من جرّائه، أنابيب المِرحاض

الوحيد، حتّى صرنا نغوص في غائطنا؛ وإنّني لأستميح عذرًا عن سرد هذه التفاصيل المنفّرة! إلاّ أنّني أودّ أن أرسم خلفيّة اللوحة كي تتّضح دقائق الأحداث في ما سَيَلي من روايتي.

"طوال ثمانٍ وأربعين ساعةً ظللنا واقفين إلى أن خارت قوانا، فانهَرْت مثل الآخرين في الحَمأة النتنة؛ أمّا طعامنا فكان مقتصرًا على الماء، نُعطى معه كلّ يومين سمكة رَنكة مدخّنةً كانت تتلوّى لطعمها أمعاؤنا؛ أما الخبز فكان علينا محرّمًا، وكثيرًا ما كنّا نطوي خمسة أيّامٍ على الطَوى.

"وكانت مجازر الإعدام تنفّذ كلّ ليلة، إذ كانوا يسوقوننا إلى باحة السجن حيث يطلقون الرصاص على الثالث أو الرابع من كلّ طابورٍ، وفقًا لنَزْوة مَفْرزة الإعدام؛ وكلّما فُتِح الباب؟ كنّا نتساءل عمّن سيقع عليه القَدَر؛ وقد استمرّ الأمر أسابيع على هذا النحو... وكانوا، في سبيل خنق أصوات الطلقات، يديرون محرّكاتٍ كبيرةً مدوّيةً، إذ كانوا، في تلك الحقبة، ما زالوا يدارون رأي الأهالي المدنيّين... الذين، مع ذلك، لم يكن من اليسير خداعهم، إذ حالما كانت المحرّكات تشرع في الضجيج، تعكف المدينة كلّها على الصلاة لأجل المحتضَرين.

"وكنّا نحفر قبورنا بأيدينا، ونقف طابورًا أمامها، بحيث كان المصابون بالرصاص ينقلبون إلى الحفرة الفاغرة خلفهم والتي تغطّى بطبقةٍ رقيقةٍ من التراب، بانتظار شِرذِمة أُخرى من الضحايا؛ وغالبًا ما رأينا، بعد أربعٍ وعشرين ساعةً، التراب لا يزال يتحرّك.

"وبين صفوفنا، كان الأب الكسندر..."

وتوقّف سيرج لحظةً، وأشعل سيجارةً، ثمّ استأنف:

– "وكان للأب ألكسندر في المنطقة سُمعةٌ نَكْراء؛ لقد كان متزوّجًا شأن جميع كهنتنا، وأبًا لأسرةٍ كبيرة؛ وكان يستخدم جميع الوسائل، المحلّلة منها والمحرّمة، كي يضمن لأبنائه مراكز مرموقةً؛ ثمّ إنّه كان مُدمنًا على الشراب، كالثَقْب لا يرتوي؛ وغالبًا ما اكتُشف، في الصباح، مرميًّا في الساقية، ثملاً، فاقد الصواب؛ لقد كان الإدمانُ أقوى منه؛ وعندما كان الأسقف يؤنّبه، كان يأخذ في قرع صدره الذي يرنّ كالطبل، ويجأر: "عَفْوَ سيادتكم، لن أعود إلى ذلك أبدًا؛ لن أتناول، بعدُ، شيئًا من الفودكا؛ فلتُصبِني الصاعقة إن أنا كذبت!" "إلاّ أنّه في الغد، كان يؤوب إلى سابق عهده.

"لقد كان موضع فضيحةٍ في المنطقة كلّها، وهدفًا للسخرية؛ وكان الأطفال يجرون خلفه ويصيحون: "سكّير!"؛ وكان آباؤهم يؤنّبونهم، فهو، على أيّ حالٍ، كاهنٌ؛ إلاّ أنكم تعلمون كيف الصبية يكونون، إذ ما إن يرونه يترنّح، وقد أخذ منه الثمَل كلّ مأخذٍ، حتّى يطلقوا لأنفسهم العِنان.

"وعندما رأيته، ذات يومٍ، يرتمي فيما بيننا، في الزنزانة، كما يُلقى كيسٌ من البطاطا، تملّكني الحزن؛ فقد كنّا جميعًا ضبّاطًا، وبعضنا من الحرس، ومبادئ الشرف محفورةٌ بعمقٍ في قلوبنا؛ ومعظمنا على إيمانٍ بدائيٍّ بسيطٍ لم يكن ليُوفّر كبير جدوى في ما نعاني، وبالتالي، فقد كنّا نلجأ إلى شرفنا كي نضمن لأنفسنا موتًا نظيفًا؛ أمّا في ما يتعلّق بي، فكنت أومن بمبادئ مبهمةٍ في المثاليّة

والواجب، كما كنت أُونس ولعًا رقيقًا بطقوس بلادنا المقدسة روسيّا، وتقاليدها التي حفرَتها في أعماقي مربّيتي جروشا؛ غير أنّ كلّ ذلك لم يكن ليؤدّي لي أيّ عونٍ في ما أنا فيه؛ أمّا ما كان يشدّ أَزْري فهو القَسَم الذي قطعت به على نفسي عهدًا بألاّ أرتعد أمام أولئك الأوغاد؛ غير أنّي، في ما يتعلّق بشؤوني الروحيّة، كنت أقلّ اطمئنانًا.

"وقد جاءنا ذلك السكّير بنغمةٍ شاذّةٍ في ما كنّا نُجمع عليه من فلسفةٍ رواقيّةٍ تفرض علينا التظاهر بالشجاعة؛ وما لبثنا أن تبيّنا أنّه في وضعٍ يبعث على الإشفاق؛ فقد كانوا قد انتزعوا نصف ذقنه، بحيث كان أسفل وجهه يقطر دمًا؛ أمّا ثيابه فكانت مزَقًا مضرّجةً بالدماء، وكان يجلس القرفصاء في زاويةٍ وهو يلهث.

"وأنبأنا غريغووي إيڤانوڤيتش قائلاً: "لقد أوقفوا أيضًا ابنه ميشا وأودعوه الزنزانة التي في نهاية الرواق؛ ويبدو أنّ المسكين في وضعٍ لا يُحسد عليه، فهو، على كلّ حالٍ، لن يصيب بعدُ شيئًا من الفودكا".

"وكنت أراقبه خِلسةً؛ أمّا هو فكان مقوقعًا على ذاته مثل حيوانٍ مذعورٍ، وقد دفن وجهه بين كفّيه، وتجمّد لا يؤتي حركةً. إلاّ أنّه انتصب واقفًا، في المساء، بعد توزيع الطعام، فاستطعنا حينئذٍ تمييز وجهه المنتفخ والمغطّى بكتلٍ من الدم المتجمّد. وقال: "يا إخوتي، فلنصلّ لأجل أولئك الذين يضطهدوننا".

"وبتؤدةٍ وهدوءٍ، راح يتلو الصلاة الربّانيّة، مشدّدًا في كثيرٍ من الإصرار على عبارة "اغفر لنا زلاّتنا كما نغفر لمن أساءوا إلينا".

"ورغم ضآلة إيماننا، فإنّ ما ترسّخ فينا من إجلالٍ لرتبة الكاهن قد منع أيًّا منّا من الاعتراض؛ وشيئًا فشيئًا، انضممنا جميعًا إلى الصلاة؛ أمّا أنا فقد أخذ الأمر منّي كلّ مأخذ، إذ كنت، دون رفاقي جميعًا، على علمٍ بماضي ذلك المسكين، وبما كان يتناقله عنه أهالي المنطقة كلّها من أخبارٍ مخزية.

"وفي صباح الغد، جرّوه مرّةً أُخرى، ليمثل أمام المحكمة الثوريّة؛ ثمّ عاد لا يكاد أحدٌ يتعرّفه، وقد تكاثرت على وجهه الكدَمات ومَعالم التنفّخ، وباتت ثيابه أَسْمالاً ممزّقةً يشاهد من خلال ثقوبها جسمه المسكين، وقد حفرت فيه الطعنات أثلامًا، إلاّ أنّ ما كان يثير دهشتنا هو أنّه لم يشكُ، قطّ، أمرًا. كانوا بلطمةٍ من جزمةٍ يقذفون به إلى داخل الزنزانة، فينسحب وهو يئنّ إلى الزاوية التي خصَصْناه بها؛ وذات مرّةٍ انسللتُ إلى جانبه وسألته: "لماذا، أبت، هم ينصبّون عليك بمثل هذه الضَراوة، وأنت لم تكن يومًا من النبلاء، ولا ضابطًا؟ ماذا، إذن، يأخذون عليك؟" ولن أنسى أبدًا اللهجة التي أجابني بها.

– "لأنّي كاهنٌ".

"ما كان يذهلني على نحوٍ خاصٍّ هو أنّه لم يقل قطّ سوءًا في جلاّديه؛ بل كان، كلّ مساءٍ، يدعونا إلى الصلاة لأجلهم؛ وكان بعضنا يؤنس من ذلك بعض ضيقٍ، وبعضنا يستجيب طائعًا؛ غير أنّ أحدًا منّا لم يعترض.

"ولّما عاد في الغداة أكثر تشوّهًا وإثارةً للشفقة، لم أتمالك نفسي

من الإلحاف في السؤال: "يأخذون عليك أنّك كاهنٌ؛ ولكن ما الذي يريدونك أن تفعله؟"

" فأجاب مبتسمًا:

– "يطلبون أمرًا بسيطًا، ولكنّي، في كلّ مرّةٍ أجيب كلاّ، كلاّ، كلاّ، فيوسعونني ضربًا".

– "وما هذا الأمر البسيط الذي يطلبونه منك؟"

– "يقولون: اعترف بأنّ المسيحيّة والشيوعيّة سِيّان. أفلم يكن المسيح صديقًا للفقراء؟ وأيّ ضَيرٍ في قيامنا بتوزيع أموال الأغنياء على المعدمين؟ ما هو جوابك؟"

"وأنت تعلم يا سيرج ڤاسيليڤيتش أنّني لست مثقّفًا، ولا قِبَل لي على مناظرة أولئك الشياطين؛ ولذلك فجوابي أبدًا واحدٌ: كلاّ، الشيوعيّة والمسيحيّة لا تستويان. فالمسيح يقول: "أعطِ"، وأنتم تقولون: "خُذ". والأمران مختلفان؛ حينئذ تنهمر عليّ الضربات؛ ثمّ يعيدون الكرّة: "قل فقط إنّ الشيوعيّة والمسيحيّة سِيّانِ كي نَدَعك وشأنك. "ولكن، بربّك، أيّ جوابٍ أستطيع أن أردّ به بما يرضي ضميري؟ سينتهي بي الأمر إلى موتي، ولكن لا بأس، فأنا لا أستطيع خيانة الإنجيل".

"كلّ يومٍ كان يعود وقد أمعنوا في التنكيل به أكثر؛ وكلّ يومٍ كان يتكشّف لنا فيه بجلاءٍ واضحٍ جوهر الكاهن المغرق في الصفاء؛

حتّى أنفه الذي أبدًا كان كالبندورة أحمر، قد أصبح شاحبًا؛ وكان يفرض علينا جميعًا هيبته، وكنّا نردّد معه الصلاة... وعندما كان ينطلق دويّ المحرّكات في الساحة، كان دائمًا يتلو الصلوات للمُقبلين على الموت، ويبارك الجميع، ضحايا وجلاّدين.

"وكنّا نحن مقيمين على مكابرتنا، إلاّ أنّ عزائمنا كادت تخور، وأخذ اليأس يتسرّب تسرُّبَ السمّ إلى نفوسنا؛ وعندما أخذ الهذَيان ببعضنا، في المساء، فطفقوا يتّهمون الله، ويلامسون الكفر، انتصب الأب الكسندر فجأةً، وبحركةٍ حازمة، ألزمهم الصمت. ولن أنسى أبدًا طَلَلَه الرَثّ، وقد اكتسى فجأةً مهابةً غريبةً؛ كان يبدو وكأنّه قد تجلّى، ولبس وجهًا قشيبًا؛ وبصوتٍ جَهوريٍّ أنشد: "أبانا الذي في السماوات"، على نحو ما كان يُنشد ذلك الدعاء في الجيش في أثناء صلاة المساء. وتلقائيًّا انضمّت أصواتنا جميعًا إلى صوته، وكانت أشدّها جهارةً أصوات أولئك الذين لم يألفوا المشاركة في الإيمان، والذين كانوا إذ ذاك يجأَرون بالصلاة في قوّة تُصمّ الآذان؛ وفجأةً، أخذت تشاطرنا الصلاة زنزاناتٌ مجاورةٌ في اندفاعٍ لا يقاوَم. وتصاعدت أمواج الأصوات وتدفّقت على السجن بأكمله؛ واستطعنا أن نرى من خَصاص الباب العَسَس يجرون كمن مسّهم جنونٌ، وقد أُسقط في يدهم؛ فيما كان رَجع الصلاة يرنّ في حنايا السجن رنينه بين قباب كاتدرائيّة. فمن زنزانةٍ إلى زنزانةٍ كانت ألوف الأصوات تهدر بالنشيد؛ وعلى الأمل البشريّ المتداعي، كان

يشرق فجر الرجاء الأبديّ، وبأفواه المحكومين الذين كنّا نمثّلهم كان شعبٌ مكموم الفم يعلن إيمانه جَهرًا.

"وعندما انتهينا إلى طلب غفران الله الـــذي لا يهبـــه إلاّ للـــذين يغفرون، حدث أمرٌ غير متوقّعٍ، إذ تجمّد الحرس في مواقعهم وقد عراهم ذُعرٌ وذهولٌ، وبتؤدةٍ نزعوا قبّعاتهم، وظلّوا واقفين حتّى نهاية الـــصلاة: لقد أَفلحَ الأب ألكسندر، خلال بضع لحظات، في تحويل قلوب جلاّدينا.

"بعد بضعة أيّامٍ أُنبئ الأب ألكسندر أنّ ابنه ميشا قد أُعدم رميًا بالرصاص، فانتابته انتفاضةٌ مفاجئةٌ، كمن تعرّض لوابلٍ من الطلقات؛ ولكن، ما لبث أن استعاد جَأشه، وسأل: "هل مات ميتةً مسيحيّة؟" فأجابه شاهد عِيان: "أجل، لقد رسم على ذاته إشارة الصليب قبـــل أن يلقى حتفه".

– "حسنٌ، إذن، سألقاه هناك".

"وقد أصبحنا، بعد تلك الأحداث، نسعى إلى التقرّب منه، لنحدّثه في شؤوننا الروحيّة، ولم يكن ليطالعنا بأيّ حديثٍ ذي شأن، فقد كـــان من الواضح أنّ زاده اللاهوتيّ على قدرٍ كبيرٍ من الضَحالة، إلاّ أنّه كان يحفظ الإنجيل غيبًا، وكان به شديد التشبّث؛ فما كُتب فيه مكتوبٌ لا سبيل إلى الجَدَل حوله. وبالتالي فالصفح عن المضطهدين كان يبدو لـــه أمرًا على جانب كبيرٍ من البساطة، إذ إنّ السيّد المسيح قد أمر به، ولم يكن ليخامره أيّ غرورٍ بما كان يبديه من بطولة، كما أنّه لم يكن ليعبـــأ كثيرًا بماضيه التعيس. وقد قال لي يومًا: "إنّني وَغْدٌ قذِرٌ، ولكنّ رحمة الله

أكبر من خطاياي". وفي الواقِع لم يكن لديه متّسعٌ من وقتٍ ليعكف على الاهتمام بنفسه، بل كان معنيًّا بنا فحسب، وحريصًا على توفير العون لنا لكي نموت في أحضان الله.

"إلى أن حان دوره هو؛ وكان قبل لحظاتٍ يردّد: "فلنصلّ لأجل من يضطهدوننا".

"لقد ثقَب جسمه وابلٌ من الرصاص، فهوى إلى الوراء في الحفرة التي كان قد حفرها قبيل ذلك.

"ظاهريًّا، كان يبدو أنّ الأمر قد طُوِيَ؛ ولكن... أتعلم أنّني مَدينٌ للأب الكسندر بارتدادي إلى الإيمان؟ فلولا ذلك الكاهن الأورثوذكسي لما كنت اليوم كاثوليكيًّا".

وحلّت فترة صمت، ثمّ قلت بصوتٍ خافتٍ، وقد جفّ من التأثّر حلقي: "ولكن اللصّ الصالح..."

"طبعًا، لم يكن الأب الكسندر مجرمًا طريد العدالة، ولكنّ ما انحدر إليه من انحطاط كان بعيد المدى. غير أنّ التصدّي قد فُرِض عليه فجأةً، وفي أشدّ الظروف قسوةً، فسما وأبدع. أهو دُوار الهُوّة الذي أوحى إليه بجاذب الذُرى؟ لا بدّ من الاعتراف بأنّ موتًا مثل هذا الموت يكلّل حياةً على نحو ما كانت عليه تلك الحياة، يعيد إلى الأذهان حادث اللصّ الصالح".

– "شفيع المحكومين بالإعدام".

– "والوسيط لأجل الجلاّدين"

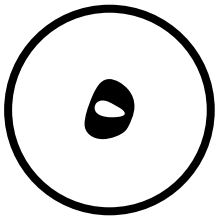

دَيرٌ سـرّيّ

دَيرٌ سرّيّ

على مستوى الأفق انفجرت الشمس فجأةً، محاكيةً جرحًا فاغرًا، ومُغرِقةً بالنجيع القاني صغار الغيوم التي هرعت إلى نجدتها وكأنّها ضِمادةٌ من القطن؛ ثمّ انسابت الأمواج القرمزيّة كالشلاّلات، في حين كانت أكداسٌ سوداء ضخمةٌ من الغيوم، أرجوانيّة الحواشي، تهجم من الشرق إلى الغرب في صفوفٍ متراصّة. وما لبث انفجار المجد هذا أن انهار في هوّةٍ تموج بالأخطبوطات النهمة، واتّشحت القبّة السماويّة بالظلمات، فيما كانت الأرض تلهث رعبًا.

وفجأةً مزّقت ظلمة الليل عاصفةٌ ثلجيّةٌ بما كانت تصبّه من سَكْبٍ متألّقٍ ينتشر في الفضاء مهرجانًا من الندائف البيضاء؛ وكانت الصدمة من العنف بحيث اضطرّت المرأتان اللتان كانتا تقتفيان آثار الزلاّجات إلى الانطواء على نفسيهما؛ لقد كانتا تنتعلان جزماتٍ، وتتدثّران بأخمرةٍ صوفيّةٍ صفيقة. وكانتا تبدوان وكأنّهما قادمتان من بعيد، فقد أحاق بوجهيهما اللذين لوّنهما الزَمْهرير بالاحمرار، قشورٌ صقيعيّةٌ، وقناديل من

الجليد، متدلّياتٌ من حواشي الأخمرة السوداء. وعندما استعادتا أنفاسهما حثّتا الخُطى، في حين كانت تولول في البعيد ضجّة مواكب أُخرى؛ لقد كانت دَوّامة العاصفة تتلقّفهما وتقذف في حلقيهما دبابيس جليديّةً دقيقةً؛ وتقدّمتا بضع خطوات أُخرى وهما تترنّحان في مشيةٍ متعرِّجةٍ، ثمّ اضطرّتا إلى التوقّف: فقد اختفت جميع معالم الطريق.

وتنهّد صوتٌ رقيقٌ قائلاً:

– "أيّتها الأخت كينجا، أنا لم أعد أرى سوى كُتلٍ من النقط الحمراء المتراقصة؛ فماذا عنك أنتِ؟"

وتردّدت المخاطَبة لحظةً، وجسَّت بعصاها الثلج الطريّ الذي أخذ يتراكم بسرعةٍ، ومرّت بيدها المغطّاة بقُفّازٍ على عينيها الموجعتين، وتفحّصت تراقص الزوابع، ثمّ أجابت وهي تؤكّد كلّ لفظةٍ:

– "أيّتها الأخت الصغيرة جيرترود لا تدَعي للخوف إلى قلبك سبيلاً؛ أنا لم أعد أرى شيئًا، ولكن الله يرى عنّا".

عندما كان رئيس المعسكر قد أمرهما، عند الفجر، بالتوجّه إلى كراسنويارسك مزوّدتين بثلاثين روبلاً وبقائمة مشتريات، كانت تباشير النهار تبدو رائعةً، والمهمّة لا تنذر بأيّ خطرٍ، ولقد تخلّتا بفرحٍ عن المناشير والفؤوس إذ تحرّرتا، ذلك اليوم، من أعمال السُخرة المألوفة. ولم تأخذ الغيرة برفيقاتهنّ عندما شاهدنَهما تمضيان، إذ إنّ مهنتهما الرهبانيّة كانت توفّر لهما، حتّى في المعتقل، بعض الاحترام وثقة الإدارة. ولئن كانت قد تبخّرت فرص الاستشهاد التي تراءت لهما لدى اعتقالهما، إلاّ

أنّ حقل الرسالة كان يتّسع أمامهما، يومًا فيومًا. وها إنّهما، منذ سنةٍ، تنتقلان من مفاجأةٍ إلى مفاجأة، وهما فخورتان بتأدية دورٍ يفعم بالسحر والفرح شبابهما؛ ولكن، في ليلة السادس من كانون الثاني تلك، كانت مغامرتهما الكبرى تنذر ببلوغ نهايتها، وكانت الأخت كينجا تفكّر في طَوِيّتها: "إن لم تحدث أعجوبةٌ، فقد قضيَ على كلتينا".

لقد كانت أحوال الجوّ قد أخذت تسوء عند المساء، وهما في طريق العودة، ولم يكن قرص الشمس الدامي لينبئ بأيّ اطمئنان، ولا نشيد التجلّد الذي راج يتردّد في جوٍّ شفّاف؛ لقد تنبّهتا إلى تلك الدلائل المنذرة بالعاصفة، فحثّتا الخطى، إلاّ أنّ الزوبعة التي كانت في إثرهما قد تقدّمتهما. لا بدّ أنّ المعتقل كان على بُعد بضعة آلافٍ من الأمتار، ولكن أنّى السبيل إلى بلوغه؟ فقد كان ستار الثلج المتطاير في الهواء لا يتيح لهما أن تريا سوى كفنٍ فسيحٍ مسطّحٍ ناعمٍ، ومع هبوط الليل باتتا تتعرّضان للاصطدام بقطعان الذئاب التي تجوب الفَيافي.

وأخذت الأخت كينجا وهي أكبرهما سنًّا، وأشدّهما بأسًا، تَروز الفرص الهزيلة المُتاحة لخلاصهما من العاصفة، وكانت هذه الفرص تكمن في تحاشي التوقّف، ومقاومة النعاس الخبيث الذي كان يثقل أجفانهما، ويدعوهما للجلوس، ولو لحظةً واحدةً، في أحضان الثلج الوثيرة؛ أمّا أخطر ما قد تتعرّضان له، فهو السير في خطٍّ دائريٍّ.

ورسمت الأخت كينجا على ذاتها إشارة صليبٍ واسعةً، ومدّت عصاها على الأرض، ثمّ أخذت عصا رفيقتها ومدّتها في نفس الاتجاه؛

ثم تناولت العصا الأولى، وأعادت الكرّة، وهي تتقدّم خطوةً خطــوةً مستهديةً بنقاط الاستدلال التي كانت تظفر بها على هذا المِنوال. لقد كان اطمئنانهما إلى السير في خطٍّ مستقيمٍ يخفّف من وطأة سأمهنّ من ذلك التحرّك البطيء. وقد كانت بعض رفيقات المعتقل قد حذّرتهن، منذ وصولهما إليه، من خطر التطواف الجهنميّ الدائريّ لذي يتهدّد المسافرين التائهين في عاصفة ثلجيّة؛ لقد كانت الاستعانة بالعــصيّ كفيلةً بتوفير بعض العون، ولكنّ المهمّ هو الوقوف علــى الاتّجــاه السويّ! ولم تنبئ الأخت كينجا زميلتها أنها، منذ فترة، قد فقــدت كلّ اتجاهٍ صحيحٍ، فما الجدوى من بعث الذعر في نفس "الصغيرة"؟ أوَلم تكن قد استنجدت بملائكتهما الحرّاس، وهي تلقــي عــصاها اعتباطًا؟ لقد عقدت العزم على الكفاح حتّى نهاية الشوط، وإذا كان الموت هو النتيجة المحتومة، فأهلاً بالموت!

وكانت تصلّي بكلّ قلبها لأنّ شفتيها المتجمّدتين كانتا عاجزتين عن أداء أيّ صوت؛ وكانت الريح تقطع عليها أنفاســها، وســيور كيس الأمتعة المعلّق بظهرها تُدمي أكتافها. وأمام عينيها كانــت لا ترى سوى تراقص ما يشبه ذباباتٍ صغيرةً حمراء وقحةً: أمّا في خلال فترات الصحو القصيرة فكانت تسمع خلف ظهرها لُهاث الأخــت جيرترود التي بدت عليها دلائل الإعياء، والتي فجأةً تنهّدت:

– "آيّتها الأخت كينجا لم يعد بوسعي الاســتمرار، ألا فلنــسترح لحظةً".

وقد حاولت أن تردّ عليها، إلا أنّ الريح قد بدّدت كلامها. حينئذٍ ضمّت قبضتيها وانهالت على زميلتها الصغيرة ضـــربًا؛ وتحـــت تـــأثير الدهشة، بادئ الأمر، اتّقت الأخت جيرترود الضرب بذراعيها، ولكنّها ما لبثت أن استجابت للتحدّي، وردّت على اللكمِ باللكم، فاشـــتبكتا وتدحرجتا في الثلج، وهما تتعاركان بضَراوةٍ؛ وشيئًا فـــشيئًا زال الخَـــدَر الذي كان يلازمهما وعادتا تحسّان بالدم يجري في أصـــابعهما داخـــل القفافيز؛ ثم نهضت الأخت كينجا واقفةً، وشدّت بعنفٍ زميلتها الشابّة، وأدنت فمها من أذنها وصاحت: "إذا توقّفنا قُضيَ علينا".

ثمّ هرعت إلى التقاط عصاها التي كاد يغطّيها الـــثلج، واســـتأنفت تحرّيها للخطّ المستقيم، وكأنها تتحرّك آليًّا، متشبّثةً بقناعة تقدّمها في خطٍّ سويٍّ، رغم ما كان يساورها من خطر الانحراف، لدى كلّ خطوةٍ.

وبدت لها الدقائق ساعات، والساعات قرونًا، وتحرّر الوقـــت لديها من كلّ رقابةٍ، وبات يهزأ بالمقاييس. وكان حسبُها أن تطبـــق جفنيها الوجيعيْن لترى، في ثانيةٍ واحدةٍ، شريط حياتهـــا بأكملـــها يتوالى، وأدقّ أحداثها تتقاطر شطر اللحظة التي كانت تعيشها الآن، والتي بدت بُؤرةً مضطرمةً، مثقلةً بالأبديّة.

تذكّرت تلك الدعوة الصاعقة التي وافتها في الثامنة عشرة من عمرها، دعوتها الرهبانيّة التي ألّمت بكيانها كما يلمّ بالجـــسم وَبـــاء الجدريّ؛ صحيحٌ أنّ بعض التردّد قد انتابها، ولكن الحافز كان أشدّ عنفًا. لقد ضحك ذلك الكاهن المجهول في كرسيّ الاعتراف، عندما

صرّحت له بذلك، باكيةً من الغيظ، وأسرّ إليها: "تشجّعي، يا صغيرتي، إنّ الله يريدك".

لقد عارض ذووها آنذاك، وقد فاجأتهم منها تلك " النَزْوة" الطارئة، إلاّ أنّها صمدت، وكان صمودها شاقًّا؛ وانخرطت في فترة الابتداء، وكان لقاؤها مع الأخت كونستانس. ثمّ ارتدت الثوب الرهبانيّ، وانهمرت عليها النعم الروحيّة، واهتزّ قلبها وهي تتذكّر يوم نذرها الأوّل؛ يا لها من أسرارٍ عذبةٍ ما لبث أن ابتلعها ظلّ الصليب!... ثمّ كانت الحرب، والاعتقال، وهوّة الأهوال.

وتراءت لها اللحظات الأخيرة، عندما كانت وزميلاتها عند عتبة الباب تتلقّينَ من الأخت كونستانس مرشدتهنّ في حياة الرهبنة، الإرشادات الأخيرة، في حين كانت سيّارة شحنٍ تنتظرهنّ في الباحة لنقلهنّ إلى المعتقل:

– "يا أبنائي، إن كان عليكنّ أن تُمتنَ، فليكن موتكنّ موت راهبات. ما أنتنّ، بعدُ، إلاّ مبتدئاتٌ، ولكن إن كانت دعوتكنَّ راسخةً، حُقّ لكن، في مواجهة الموت، أن تلفظنَ نذوركنّ بصوتٍ خافت. إنّ تكريس الدم يساوي تكريسنا، إذا ما قبلتموه بصفتكنّ منذوراتٍ لله. إنّني أتمنّى من أعماق قلبي أن أراكنّ مرةً أُخرى وأنتنّ على قيد الحياة، ولكن إن لم تُقيّض لكنّ العودة، فعانقن الموت كما عانق المسيح صليبه، إنّني أوفدكنّ في مهمّة رسميّة "أمّا أنت، أيّتها الأخت كينجا، فاسهري على الصغيرة، إنّني أوكل إليك أمرها".

لم تتوفّر فرصة الاستشهاد، وكم كان رائعًا لو هي تهيّأت! ولكن عوضًا عنه تلاحقت يومًا فيومًا مواكب المِحَن الصغيرة: البرد والجوع والاستنزاف والقذارة... وتلك الأسفار الطويلة في قاطرات للبهائم، وفي جوٍّ من القُرّ القاتل؛ والتلاؤم العسير مع مقتضيات الأعمال اليدويّة، ومصير المعتقلين، والافتقار إلى القدّاس والأسرار، وما ينجم عنه من وَحشةٍ روحيّةٍ قاسية، فمنذ سنتين لم تريا وجه كاهنٍ.

لقد كانت الأخت كينجا أشدّ مِراسًا، فاستطاعت أن تألف ذلك النظام الصارم بيُسرٍ أكثر من زميلتها التي كانت هزيلةً سقيمةً، ومبعث قلقٍ لها.

غير أنَّ سكّان سيبيريا كانوا يحيطونهما بشتّى مظاهر الاحترام، وكانت صفتهما الرهبانيّة تحميهما من التشهير، وتقيم حولهما حاجزًا مانعًا، حتّى إنّ الأخت جيرترود التي كانت تتمتّع بجمالٍ وافرٍ لم تضطرّ يومًا إلى الدفاع عن نفسها ضدّ أيّ معتدٍ؛ حتّى حين اقتحم كوخهما، يومًا، حرّاسٌ قادمون حديثًا إلى المعتقل، اكتفت بمواجهتهم بلفظة "راهبات" فارتدّوا منهزمين، مثقّلين بالخزي، وظلّوا فترةً طويلةً، في أعقاب ذلك الحادث، يتعرّضون لتجريح الرفاق. هل كان مردّ ذلك تطيّرًا خرافيًّا، أو رواسب سحريّةً؟ على أيّ حالٍ، كان الاعتقاد السائد "أنّ لمس راهبةٍ يجلب الشؤم".

ثمّ ما عتّمت أن أخذت تنهال عليهما الزيارات الليليّة، ساعة يكون الإنهاك قد أخذ منهما كلّ مأخذٍ، وأسكرهما النعاس، بحيث

كانتا تلقيان قَدْرًا كبيرًا من المشقّة في فتح أجفانهما المثقلة بالوسَـــن، عنْدما كان بابهما يُقرع، عند منتصف الليل، قرعًا حذرًا رقيقًا، وقد باتت الأخت كينجا تحتفظ أبدًا، إلى جوار فراشها، بإبريقٍ من المـــاء البارد، تسكب منه على وجهها فيضًا للاستعانة بذلك على اليقظـــة واستعادة الوعي؛ أمّا الأخت جيرترود فكان يتعذّر عليها الاستيقاظ، فتتنهّد برقّةٍ...

لقد انتابهما الرعب، في المرّة الأولى، عنـــدما انـــسلّت داخـــل كوخهما أخيلةٌ مبهمةٌ، مسربلةٌ بالألبسة الصوفيّة، وبدون أيّ ضجّةٍ كما تنسلّ الأشباح... وفجأةً، أخذ أطفال خفيّـــون في النحيـــب، فدمدمت الأخت كينجا وقد اعترتها الدهشة: "مباركٌ هو يـــسوع المسيح"، فردّت عليها أصواتٌ جَشّةٌ بمثل ذلك، وللحـــال شـــرع الحوار بين پـــولونيا وروسيا.

لم يكن القادمون يفصحون، فورًا، عن سبب مجيئهم، بل يؤثرون أن يُسألوا عنه. والأخت كينجا التي كانت تجهل ذلك الأســـلوب، كانت أوّل الأمر تلتزم الصمت. إلاّ أنّها، في ما بعد، أصبحت هـــي تفتح الحوار، وتبادر بالسؤال: "كم عددهم؟"، وفي الحـــال كـــانوا يكشفون لها عن عدد الأطفال والكبار المرشّحين للعماد.

وكانت، بادئ الأمر، تؤنس خشيةً من التعميد بطريق التغطيس، فالأطفال كانوا يطلقون صراخًا يفتّت الأكباد، والمـــاء كـــان بـــاردًا كالصقيع؛ غير أنّ الآباء كانوا يرفضون رفضًا قاطعًا حتّى الحديث عن

العماد بالرشّ؛ ومع ذلك لم يُحدث، قطّ، ذلك الاستحمام العنيف أيّ أذًى؛ أما الكبار فكانوا يغطسون، وقد ارتدت النساء منهم قميصًا والرجال إزارًا، في برميلٍ مليءٍ بماء المطر، أو، في أثناء الشتاء، في بركة البطّ، بعد أن يحطّم سطحها الجليديّ بفأسٍ.

وعند انتهاء الاحتفال، كانت الأمّهات تلقّمن الأطفال أثداءَهنّ لإسكاتهم، في حين كان عميد القرية العجوز يتمخّط بضوضاء، ويسعل كي يستعيد جأشه، ويردّد أبدًا العبارة التالية: "والآن كلّمينا عن الله"، وحينئذٍ يبدأ درس التعليم المسيحيّ، وقد جلس الفلاّحون القُرفُصاء، وطفقوا ينصتون في صمتٍ؛ وأحيانًا، كانت تتساءل الأخت كينجا إن هم كانوا يدركون ويحفظون تعاليمها، ولكنّها كلّما امتحنتهم بأسئلتها كانوا يجيبون بردودٍ صحيحة. وكان ذلك يستمرّ حتّى الساعة الثانية صباحًا، ولدى صياح الديكٍ كان الجميع ينهضون ويحيون بعمقٍ "الزاوية الجميلة" حيث كانت الأخت كينجا قد علّقت صورة العذراء، سيّدة تشستوهويا، ثمّ يمضون واحدًا واحدًا، في حنايا الليل البهيم.

وقد طالما ظنّت الراهبتان أن طلاّبهما كانوا يفلحون في خداع حرّاس المعسكر، إلى أن اكتشفتا أنّ هؤلاء كانوا متواطئين؛ ففي أحد الأيّام أحاط "فيودور" رئيس الحرس كوخهما بالعسَس ليتمكّن من المجيء وحده، ليلاً، مصطحبًا ابنه ذا الثلاثة أيّامٍ، وقال، وكأنّه يبدي رأيًا فلسفيًّا: "إن لم يؤتِه ذلك خيرًا، فمن المحقّق أنّه لن يؤتيه سوءًا. ألا غطّسوا ابني فانيا".

وكم كان شاقًّا الاستيقاظ في الخامسة صباحًا، في أعقاب ليالٍ خلَت من النوم! ولا ريب أنّ الأخت كونستانس لم تكن قد توقّعت مثل تلك المحنة؛ محنةٌ غير أنّها حافلةٌ بالفرج! فمنذ ثمانية عشر شهرًا، أي منذ قدمتا إلى المعسكر، قد تعمّد على أيديهما ثلاث مئةٍ وسبعةٌ وعشرون شخصًا.

أما الزواج فكان أكثر بساطةً، إذ كان الشبّان يكتفون بحكّ خواتمهم بخواتم الزواج التي كانت الجدّات قد باركنها، وعلى هذا النحو كانت تنتقل البركة...

بعد أن تواردت على خاطرها تلك الذكريات، أفاقت على واقعها وراحت تتساءل:

– "ألم يحن الوقت كي تنبح لايكا حامية المعسكر؟ لو أنّنا قد اتّبعنا نهجًا سويًّا لكان على أكواخ المعسكر أن تنهض الآن حاجزًا أمامنا".

عصا تلقى على الأرض، تليها ثانية، ثم تلقى الأولى مرّة أُخرى... كم مرّة قد كرّرت، آليًّا، تلك الحركة، وقد استولت عليها فكرةٌ متسلّطةٌ: التقدّم في خطٍّ مستقيمٍ وتجنّب الابتعاد عن رفيقتها.

ولكن، فجأةً، انهارت الأخت جيرترود لاهثةً:

– "دعيني أقضِ نحبي، أختي كينجا؛ فأنت أشدّ منّي بأسًا، وستستطيعين الوصول!"

تلك، إذن، كانت هي النهاية المحتومة؛ فمن المؤكّد أنها لن تتابع الطريق وحدها، وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فستموتان كلتاهما معًا، وها هي ذي تنزلق إلى جوار رفيقتها، وقد تخلّت عن الكفاح. غير

أنّها، بغتةً، اكتشفت تحت الثلج جسمًا صلبًا، تلمّسته أوّلاً بيـــدها المقفّزة، ثم انتزعت القُفّاز وتلمّسته ثانيةً. يا إلهي! إنها مَثابة بئرٍ؛ وإن كان هناك بئرٌ فلا بدّ أن يكون ثمّة بيت؛ ووثبت ناهضةً وأخذت تهزّ رفيقتها كما تهزّ شجرة خوخٍ، هاتفةً: "أختي الصغيرة جيرترود لقـــد نجونا؛ لقد اكتشفتُ بئرًا!"

ولكن "الصغيرة" لم تبدِ أي ردّ فعلٍ، بل تمتمت:

– "الأمر عندي سَواءٌ، لقد فقدت كلّ حَولٍ وطَولٍ، دعيني".

في تلك الأثناء، كانت العاصفة قد أخذت تهدأ. وبات بوُســـع الأخت كينجا أن تترسّم آثار أقدامها فوق الثلج؛ ومن غير أن تنبس بكلمة، راحت تخطّ بعصاها دائراتٍ كبيرةً حول الأخت جيرتـــرود التي كانت قد انكفأت على ذاتها محاكيةً كتلة شقاءٍ صـــغيرة. وقـــد استقرّ في قناعتها أنّه إن كان هناك منزلٌ، فلا بدّ أنْ يكون قريبًا.

وفجأةً ارتطمت بجدارٍ، وحاذته حتّى وجدت بابًا قد غـــرق في الثلج حتّى منتصفه، وكان انفعالها من الشدّة بحيث لم تجسر بـــادئ الأمر على قرعه، وخُيّل إليها أنها ربّمَا كانت ضحيّة هذيان؛ فنزعت قُفَّازهَا وقرصت معصمها: لقد كان الباب لا يزال أمامها، لا مجـــال للريب في وجوده؛ فطفقت تقرعه بشدّة.

وسمعت حركةً خلف الباب، تلتها فترة صمتٍ، ثمّ التصق فـــمٌ بالقفل، وترامى صوت امرأةٍ سائلاً:

– "مَن الطارق؟"

وفي غير ما تردّد، أطلقت الأخت كينجا عبارتها المنقذة:

– "راهباتٌ! هيّا افتحوا".

وانفرج الباب قليلاً وهو يصرّ، وبادر نفس الصوت بسؤالٍ يمازجه بعض الحذر:

– "هل أنتِ وحيدةٌ؟"

– "رفيقتي في الثلج، على مرمى حجرٍ!"

وابتعدت المرأة وقد تركت الباب مشقوقًا، ثمّ ما لبثت أن عادت مصطحبةً مصباحًا، وتبعت الأخت كينجا التي كانت تترسّم آثارًا ما برحت واضحةً، إلى حيث كانت الأخت جيرترود مقوقعةً شأن حيوانٍ جريحٍ، لا تبدي حركةً. ومرّت المرأة بالمصباح أمام عينيها، ثمّ قالت:

– "إنّها لا تزال على قيد الحياة، ولكنّها نائمةٌ؟ ولن يكون ذلك نوم المسكينة الصغيرة الأخير! هيّا ارفعيها!"

وتضافرتا على حمل الأخت جيرترود حتّى باب المنزل، حيث كانت امرأةٌ أُخرى، أحدث سنًّا، في انتظارهما؛ لقد كانت الغرفة دافئةً، والنار تزغرد في موقدها؟ وقالت المرأة العجوز وهي تلهث:

– "دعوها على المقعد، سأُعدّ لها بعض اللبن".

ورأت الأخت كينجا فجأةً الغرفة تدور أمام عينيها، فتشبّثت بصِوانٍ، وفقدت الوعي.

وعندما ثابت إلى رُشدها، كانت رائحة الفودكا تفعم أنفها، وتتغلغل في حلقها؛ وعطست، فبادرتها العجوز وهي تنتزع قُماشًا مبلّلاً قائلةً: "تبارك الله! والآن انزعي جزمتك كي أفرّك لك قدميك".

وصفّقت الأخت جيرترود وقد استبدّ بها المرح، وتورّد خدّاها، وتألّقت عيناها تألّق الياقوت الجمريّ، وقالت:

– "ها أنت قد أفقت! كم كنتُ خائفةً... ولكن كيف بلغنا إلى هنا؟" وانتصبت الأخت كينجا في عناءٍ: لقد جاء الفرج مباغتًا، وكان الإنقاذ غير متوقّعٍ.

ولكن ما كانت قد أجهدت به نفسها من جرّاء رسم طريقها بالعصيّ طوال ساعاتٍ، كان يتردّد الآن وجعًا في جميع عضلاتها.

أما الأخت جيرترود فكانت قد تدثّرت بعباءةٍ من فروٍ، وراحت تزقزق كعصفورٍ جذِلٍ، وقالت لرفيقتها:

– "أتعلمين أنّنا على مسافة نحو ثلاثين كيلومترًا من المعسكر؟ لقد كنّا نسير في الاتجاه العكسيّ".

لقد كانت تتكلّم بالبولونيّة، ولم يكن يبدو أنّ المرأتين تدركان من حديثها شيئًا؛ بل كانتا تتأمّلان في صمت الزائرتين غير المتوقّعتين، وفجأةً سألت الأكبر سنًّا:

– "أحقًّا أنّكما راهبتان؟"

– "طبعًا، وأنتما؟"

– "نحن نعمل في معمل (...)".

ورانَ الصمت فترةً، ثمّ نهضت العجوز وأخرجت من خزانة شيئًا ملفوفًا بمنديلٍ، ورفعته، ثمّ قالت:

– "هل لكما أن تُقسما على هذه الإيقونة أنّكما، في الحقيقة، راهبتان، وأنّكما، في الحقيقة، لن تشيا بنا؟"

لقد كانت تؤكّد على عبارة "في الحقيقة" وهي تعرض، في كثيرٍ من التبجيل، إيقونةً سوداء مطموسة المعالم؛ وقفزت الأخت كينجا ناهضةً، ووضعت أناملها على الإيقونة، على نحو ما نضعها نحن على الصليب حين نؤدّي قَسَمًا، وقالت:

– "إنّني أستشهد الله في ثالوثه المقدّس، ووالدته العذراء المباركة، أنّنا، في الحقيقة، راهبتان. إنّنا لا نخفي صفتنا هذه، ونعلن عن إيماننا في صراحةٍ".

وتطلّعت العجوز إلى رفيقتها التي أشارت إليها بحركةٍ خفيّةٍ، ثمّ استأنفت بصوتٍ خفيضٍ:

– "أنتما بولونيّتان، وكاثوليكيّتان رومانيّتان. حسنٌ إذن – ولكن إذا ما أُخذنا على حين غِرّةٍ، قُضيَ علينا، والأفضل لنا أن نتحلّى بالحذر بدل سرعة التصديق، أمّا الآن فاتبعاني".

وبحركةٍ مفاجئة، أزاحت أكياسًا نصف فارغة كانت تغطّي الأرض قربَ الموقد، وأشرعت فيها فتحةً خفيّةً، ودعتهما إلى النزول. وازدادت الأخت كينجا حيرةً وحَرَجًا، وتردّدت لحظةً، فابتسمت العجوز قائلةً:

– "لا تخشيا شيئًا! نحن لا نريد بكما سوءًا".

وصوّبت الأخت كينجا أبصارها إلى أسفل، فلحظت أنّ القبو مضاءٌ؛ أمّا السلّم فكان هاويًا، ويبدو متحرّكًا، أي قابلاً لأن ينسحب بيُسرٍ من فوق. وأخذ قلبها يدقّ بعنف، فيما كانت أبصارها تكتشف شيئًا فشيئًا معالم مشهدٍ لم يكن ليخطر لها ببالٍ: فقد كان القبو قد أُعدّ فأصبح مُصلًّى، وقد انفرج عن ايكونستاس رائعٍ تضيئه الشموع والقناديل الحمراء، وفي منتصفه انتصبت، فوق دعامتين، إيقونتا المخلّص ووالدة الله، وكلتاهما مشعّتان بالنور؛ وأمامهما كان كتابٌ كبيرٌ مفتوحًا فوق مَقْرأ؛ أمّا على الأرض، فخمس نسوةٍ جلسنَ القرفصاء، مستغرقاتٍ في الصلاة.

وعندما لحقت بها الأخت جيرترود لم تستطع كتم صيحة دهشة، فلفتت إحدى النسوة رأسها، في حين لم تتحرّك الأُخريات؛ حينئذٍ انحنت الأخت كينجا انحناءً عميقًا أمام الإيقونتين، وقبّلتهما باحترامٍ؛ ثمّ رسمت إشارة صليبٍ عريضةً، وطفقت تصلّي واقفةً؛ وحذَت الأخت جيرترود حَذْوها؛ غير أنّ الكتاب الكبير كان يشدّ انتباهها، فتطلّعت إليه في فُضولٍ وقلّبت إحدى صفحاته، فقالت المرأة العجوز التي كانت قد لحقت بهما:

– "إنّه الكتاب المقدّس، ليس لدينا سواه!"

وحال إعياء الراهبتين دون استمرارهنّ طويلاً في الصلاة؛ وكانت الأخت كينجا تظنّ نفسها في حلمٍ، أمّا زميلتها، فحوّطت بذراعيها عنق العجوز، مثل طفلةٍ، وهتفت وهي تقبّلها: "إنّكن مثلنا إذن!"

وعندما صعدنَ، أعادت العجوز إغلاق الفتحة بعنايةٍ، وأرجعت الأكياس إلى أماكنها، وجلست على المقعد وقالت:

– "إنّ الله قد أرسلكما إلينا يا بنتيّ! فمنذ أربعين سنةً لم نشاهد راهبات حقيقيّات. كما وقد انصرم سبعةٌ وعشرون عامًا منذ مرّ بنا آخر كاهنٍ! لقد لجأنا إلى هنا في أعقاب الثورة، ولم تسمح مشيئة الله أن ينقطع تسبيحه في هذا المنزل منذئذ. كانت المسنّات تلقينَ حتفهنّ، فتحلّ محلّهن قادماتٌ جديداتٌ، ونحن الآن، هنا، سبع راهبات. إلاّ أنّ الذاكرة قصيرةٌ، يا بنتيّ، وخائنةٌ، ونحن نخشى أن يكون تسبيحنا لله قد انحرف عن الصراط السَويّ، بل نخشى أن نكون قد نسينا تلاوة الصلوات. ولذلك فسنتلو على مسامعكما كلّ ما نعرف، فإن كان فيه ما يخالف تعاليم الكنيسة فعليكما أن تلفتا إليه انتباهنا. لا شكَّ أنَّه سيُفتّ يومًا في عضد إبليس، وستستيقظ كنيستنا الروسيّة المقدّسة، ولا بدّ لنا آنذاك من أن نكون متأهّباتٍ".

وقد قالت لي الأخت كينجا وهي تنقل لي هذه الحادثة:

– "وهكذا، لم ننم لحظةً في تلك الليلة أيضًا؛ إذ كان علينا، منذ صباح الغد، أن نعود إلى المعسكر، ولم يكن لدينا متّسعٌ من وقت نهدره؛ غير أنّ الله لا يضنّ بنعمه في الأوقات العصيبة، بحيث إنَّ الأخت جيرترود نفسها قد قويت على الصمود. وقد أجرينا لأولئك الراهبات نوعًا من الامتحان اللاهوتيّ. وقد روينَ لنا سيرتهنّ: إنّهنّ في النهار يعملنَ في المعمل، وفي المساء يعشنَ عيشة الرهبنة، وفي

مصلاّهنّ القابع تحت الأرض كنّ يلبسنَ المسوح، ويستغرقنَ في الصلاة حتّى ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل، وبفضل هذا السهر استطعنَ سماعنا رغم الريح والعاصفة!

"لقد تحلّقن، هنّ السبع، من حولنا، وتكلّمنَ كلّ واحدةٍ بدورها، وعرضن مشاكلهنّ التي كان بعضها صبيانيًّا. وما يكاد لا يُصدّق أنهنّ قد احتفظنَ، منذ عشرين سنةً، بالماء المقدّس، إذ شعشعَنه باستمرارٍ بإضافة ماءٍ جديدٍ إليه. في عام ١٩٣٤ كان كاهنٌ قد زارهنّ، وأقام آخر قدّاسٍ في مصلاّهنّ؛ ومنذئذٍ وهنّ مقيماتٌ على انتظارٍ صبورٍ، ورجاءٍ لا يفتر، وثقةٍ بأنّ المحنة الكبرى لا بدّ صائرةٌ يومًا إلى نهايةٍ.

"وفيما عدا بعض هَناتٍ بسيطةٍ، كانت عقيدتهنّ راسخةً؛ أمّا تقواهنّ، فتندُّ عن كلّ وصفٍ؛ لقد ظننت نفسي في ديناميس الأيّام الأولى للكنيسة؛ لقد كنّ يتكلّمنَ عن الشهادة كأمرٍ بديهيٍّ متوقّعٍ أبدًا؛ وقد علمتُ أنّ أمر الكثيرات كان قد انكشف فأُودعنَ السجون، واختفى أثرهنّ؛ ولكن من الثابت أنّهنّ لم يفضحنَ أمر رفيقاتهنّ بدليل أنّ الدير ما زال قائمًا.

"وإزاء هذا القدْر من البطولة الصامدة، وجدنا أنفسنا من الصِغَر والتقزّم بقدرٍ كبيرٍ! لقد كانت تلك أروع ليلةٍ في حياتي!"

– "هل رأيتهنّ من بعدٍ؟"

– "لا، مطلقًا! بل قد عمدنا، في صباح الغد، إلى زَوَغانٍ كبيرٍ في طريق عودتنا إلى المعسكر، تحاشيًا عن أيّ أثرٍ يدلّ عليهنّ".

٦

الأيقـــونَة

الأيقونة

فجأةً تبيّن له المشهد الأليف: الصنَوبرات الثلاث الناهضات فوق المقبرة يحرُسْنَ أبدًا السهل المتموّج على امتداد البصر. لقد طالما تطلّع في الماضي بلهفة، في أثناء العواصف الثلجيّة، إلى تلك الصُوى المنتصبة في الأفق. وتذكّر إحدى عشيّات عيد الميلاد، حين كاد يظلّ يدور بعربته إلى ما لا نهايةٍ، في ثنايا زوبعةٍ متألّقة الحواشي، لولا أن تجلّت له، فجأةً، الأشباح الثلاثة من خلال الوشي الأبيض المزدان بالنجوم. في صباه كان يهوى تسلّقها ليرصد الأفق، وكأنّه فوق سارية سفينةٍ، وينطلق يحلم بالأسفار... وقد تحقّق حلمه على نحوٍ غريب: فها هوذا يعود، عقب خمسة عشر عامًا من الغياب، بعد أن حُكم عليه بضعف هذه المدّة، إلاّ أنّه قد حظي الآن بعفوٍ. تُرى، من سيجد في قريته، ومَن، مِن أسرته، باقٍ على قيد الحياة؟

لقد كانت آخر رسالةٍ تلقّاها من زوجته تحمل تاريخ عشر سنواتٍ مضت، ولكنّه، بعد ذلك، التاريخ كان قد نُقل إلى معسكر اعتقالٍ آخر، وربّمَا لم يكونوا مهتمّين بتحويل الرسائل إلى أصحابها.

إنّ قلبه يدقّ بعنفٍ فيما هو يتسلّق المنحدر الأليف الذي تختبئ وراءه القرية القابعة في وَهْد من الأرض: أمّا منزله فيقوم في مدخل الغابة، وسيلقاه بعد هذا المنعطف.

لقد كانت الأرض تفوح بروائح طيّبة، فعلى يمينه كانت السنابل تنتصب، كثيفةً، عذبة المَذاق. وهنا وهنالك، كانت ما تزال بعض مِزَقٍ من الثلج المتخلّف، وقد انتشرت فيها فُوهاتٌ تكاد لا تُرى، وكانت الشمس الفتيّة تلتهمها بنهمٍ، وفي أعقاب كلّ جرعةٍ منها كانت نبتةٌ قشيبةٌ تنفض عنها غِلالاتها الشتويّة، فيمَا كان الربيع جادًّا على قدَمٍ وساقٍ.

كان لا يزال عليه اجتياز بعض مئاتٍ من الأمتار، وغَمَر حنايا نفسه ضجيجٌ من الذكريات مدوٍّ. كم كان يتمتّع قديمًا بالتنصّت إلى العشب وهو يشقّ طريقه إلى الهواء. في فجر أحد الأيّام قال له والده: "تعالَ"، وكان الوسَن ما برح يشدّ جفنيه ويوثق أحدهما بالآخر، ولكنّه راح يترنّح في خُطى أبيه وقد تكمّشت يده الصغيرة بيدٍ كبيرةٍ حانيةٍ؛ وفجأةً انتفض حين قال له أبوه: "أَنصت!". لقد كانت هَمساتٌ عذبةٌ تنبعث من الأرض السوداء الرطبة، وبَراعم لا تحصى كانت تثقب الأثلام وكأنّها شفرات مَواسٍ؛ ولم يكن يراها وهي تنبجس، إلاّ أنّه كان يسمعها، وأعقب والده: اسمع السنابل وهي تصعد! ستكون رائعةً هذه السنة!".

إنّ الأرض لم تتغيّر، ولا السنابل تغيَّرت، ولكنّ الناس هم الذين تبدّلوا، والفرح قد رحل.

وازداد تقوُّس ظهره تحت عبء الخُرج المدلّى على كتفه، وانعقدت على جبينه غَضنتان، وقد استعصى عليه اكتناه ما كان يجهَد، منذ سنين، في استكشاف مَغاليق أسراره: لِمَ كلّ تلك الكروب؟ وما أكثرها! ومع ذلك كان الوقت وقت فصحٍ، لا بدّ من أن يكون كذلك، وانسابت أفكاره خجلى تتصوّر الأجراس... من هذا المكان كان لا بدّ أن تبرز قبّة الكنيسة عاليةً في الأفق، وهصَر قلبَه قلقٌ مبهمٌ، فحثّ الخطى.

يا لها من طعنةٍ تمزّق صدره وتكاد تصرعه! يا إلهي، هل هذا ممكنٌ؟ قدماه تعجزان عن حمله، وها هوذا ينهار مرتعدًا ويجلس القُرفصاء ويتطلّع... لقد زالت الكنيسة، لقد اضمحلّ بيته، ومن القرية الأليفة لم يبقَ سوى بعض هياكل جرداء مشوّهة، في حين انتصبت فوق المرعى القديم أبنيةٌ مستطيلةٌ كئيبةٌ؛ أمّا الغابة التي كانت قريبةً فقد بدت وكأنّها قد تراجعت.

مهما قاسى المرء من صنوف التعاسة فلا بدّ له من وقتٍ كي يألفها، ربّمَا ساعة، أو ساعات... لقد كانت الشمس قد ارتفعت في الجوزاء، شوطًا بعيدًا، عندما عزم على لَملمة أَسْماله وعلى تقصّي الأمور عن كثَبٍ واستقراء أخبار الحدْثان.

لقد كانت الطريق تحاذي ساقيةً ثمّ تتخطّى جسرًا قرب الطاحون، وعلى مرمى حجرٍ، عند المنعطف، دربٌ يتسلّل إلى حيث كان منزله. جدرانٌ محروقةٌ مشوّهةٌ واسعة الفَجوات، ذلك كلّ ما تبقّى منه: "يا

يسوع إلهي، ارحمني، وأنتِ يا أمّ الله، بادري إلى عوني!". غير أنّ قعقعةً جَذْلى أعادته إلى وعيه، فلقد كان في المغسل بعض نسوةٍ: هذه واحدةٌ، اثنتان، ثلاثٌ... وها هي ذي المَحاضيج تعلو وتهبط على إيقاعٍ متسارعٍ، والألسن لا تَني تثرثر... وإذا به يصيح:

– فليتبارك يسوع المسيح!

وانتصبت النسوة وقد شمَّرن ثيابهنَّ وغمرت المياه كواحلهنّ، وأجابت واحدةٌ فقط منهنّ؟ "فليتبارك إلى الأبد!". لقد كانت أقدمهنّ سنًّا، في حين تطلّعنَ جميعهنّ في فضولٍ. وإذ كان لا بدّ له من أن يقول شيئًا تساءل: "أهذه هي كراسن؟"، فأجبنه حذِراتٍ: "طبعًا هي كراسن؛ ولكن من أين أنت آت؟".

فأجاب:

وتيكلا، زوجة اليكسي، ما حلّ بها؟

فتبادلنَ النظراتِ الحَيرى، ورمت العجوز مِحضاجها وأمسكت رأسها بيديها قائلةً:

أأنت إذًا أليكسي؟ أممكنٌ هذا؟

وظلّ صامتًا، مهصور الفؤاد جامدًا، في انتظارٍ رهيبٍ، إلى أن أجابته العجوز:

– فليَهبْك الله العزاء!

وسأل بصوتٍ أجشّ:

– هل هي ماتت؟

فهزّت العجوز برأسها مشيرةً بالإيجاب.

– والولد؟

– لقد اقتادوه.

– ولكن إلى أين؟

– الله أعلم.

ومثلما تترنّح شجرةٌ تحت ضربات فأس الحطّاب، وتنتصب ثمّ فجأةً تهوي، كذلك هو انهار، وانكفأ على ذاته كحيوان، ودفن رأسه بين راحتيه وراح يئنّ في مرارةٍ وتؤدةٍ: "ارحمني يا ربّ، ارحمني يا ربّ!".

وأخذت النسوة واحدةً فواحدةً تلملمن غسيلهنّ وتكدّسنه في سطولٍ وتغادرن المغسل. فالسلطات لا تنظر بعين الرضى إلى محادثة معتقَلٍ، ومفتّش الشرطة يتمتّع بحاسّة شمٍّ مرهفة، وبقبضة قاسية، عند إجراء الحساب. العجوز وحدها تلكّأت متظاهرةً بالبحث عن ثوبٍ جرّه التيّار، حتّى باتت وحيدةً معه، فتمتمت وهي مطأطئة الرأس:

– ليتك تعلم أنّ إيقونتك مخفيَّةٌ تحت التراب!

– أين يا أمّاه؟

– بالقرب من القبو، على يمين المنزل، تحت بلاطة، وقد كدّستُ فوقها ترابًا. ثمّ استأنفت، وكأنّ هاجسًا مريبًا قد راودها:

– آمل أنّك لن تشي بي، يا ألكسي.

– حماني الله من ذلك، يا أمّاه!

حينئذ، عصرت الثوب المفقود الذي عثرت عليه، وغطَّت بـــه سطلها الذي تناولته، وأضافت من غير أن تدير رأسها:

– إنّ ديمتري لكلبٌ، فاحذره، فهو ينقل إلى السلطات كلّ كلمة يسمعها. وأنت بحاجة إلى جواز لكي تعمل، فلا تجعل منه عدوًّا.

– جزاكِ الله خيرًا، سألتزم معه جانب الحذر.

وفيمَا هي تهمّ بالانصراف التفتت، وقد تنبَّهت منها الـــذاكرة، وحيّته قائلةً:

– المسيح قام! غدًا عيد الفصح.

وأجاب في اندفاعٍ:

– حقًّا قام! في المعتقل كنا نصلّي إلى الله.

فأجابت:

– أمّا هنا فنحن نصلّي في سرّ قلوبنـــا، إذ إنّ الكنيـــسة قـــد أُحرقت، والكاهن... لقد صلبوه ودقّوا في أطرافه المسامير بعـــد أن أثبتوها على مصراعي المستودع، ثم فتحوا الباب...

قالت هذا، وهرولت، مسرعةً، للّحاق برفيقاتها اللائـــي كـــنّ يسرن الهُوينا، وما عتّمت أشباحهنّ المتباعدة أن أَخذت تتقلّص، شيئًا فشيئًا، إلى أن اختفت في ضباب المساء.

وجلس ألكسي القُرفُصاء فوق المنحدر وأطلق لحزنه العِنان وانفتحت في مآقيه سدود الدمع فتدفّقت وكأنّه كان يلفظ أنفاسه من خلالها.

كان القمر قد سما فوق أشجار الصنوبر، عندما جعلـــه الـــبرد الذي كانت تنضَح به الأرض الرطبة يُفيق من أحلامه الحزينة، وقـــد

أخذ يرتعد وتصطكّ أسنانه، وبمشقّةٍ نهض وطفق يلوّح بذراعيه علَّه يظفر ببعض دفءٍ. ثمّ ألقى الخُرج على ظهره وانطلق صوب أطلال منزله، فيمَا كانت الذكريات تتصاعد في غليانٍ هائلٍ.

هنا، عند هذا الحاجز، كان قد صرّح لها بحبّه. كم كانت رائعةً بعينيها السوداوين اللتين تلتمعان كالعقيق! وها هي ذي بتاج العرس تزهو كأميرةٍ. لقد عاشا سعيدين وكأنّهما في أحضان المسيح، وباسيل الصغير كان يحاكي أباه، كما تحاكي نقطة ماءٍ رفيقتها. لقد كان صبيًّا جسورًا، ففي الخامسة من عمره كان يمتطي الجواد وينطلق به مسرعًا وهو يضحك فرحًا ورهبةً، ثمّ يتشبّث بشعر رقبته ويصيح: "إنّني ماضٍ لاكتشاف ما يجري وراء الجبال السبعة والأنهار السبعة، على شاطئ المحيط الكبير الذي تثير فيه الحيتان الموج". وكان هو يقف عند عتبة الباب وقد أفعم الزهوّ صدره، فيمَا كانت تيكلا ترسم إشارة الصليب فرقًا وقلقًا. ولقد ظلّوا سعداء حتّى نشبت الحرب...

لم يكن منزله مبنيًّا من لبنٍ بل من آجرٍّ، ولذلك ما برحت تلك الشقّة من الجدار منتصبةً، ولا ريب أنّ أهل القرية قد هدموا الباقي، فالآجرّ غالي الثمن. وانحنى فلمّ من الأرض قطعة حديدٍ صَدِئةً ووضع خرجه فوق ما يشبه إفريزًا واتّجه حيث كان في السابق ينتصب الموقد، في وسط المنزل.

في تلك الأثناء كان القمر قد ارتقى ذُروة القبّة السماويّة وراح يغمر الأرض بفيضٍ حليبيٍّ شفّافٍ. لقد كان مستديرًا مثل قرص

جبنة، وبدا قناعه المغضّن المنتفخ الوجنتين وقد افترّ عن ضحكة عريضة، حيال هزيمة النجوم النكراء بعد أن طغى عليها ضياؤه، في حين كانت بعض البوم تشقّ الفضاء بنعيبها المفجع.

ولم يلقَ مشقّةً في العثور على المكان المنشود، فأزال الأَنقاض ورفع البلاطة فالتصقت أصابعه بالأرض الرطبة اللزِجة؛ ولكنّه لم يجد تحت البلاطة سوى التّيرب الذي يفوح بالعفونة.

وتوقّف لحظةً وقد تسرَّب إلى نفسه اليأس. فما الجدوى من الحفر في العمق، إذ لا بدّ من أن تكون خمس عشرة سنةً تحت الأرض قد أتت على الإيقونة، بل إنّ سنةً واحدةً كافيةٌ للنيل من لوحةٍ خشبيّة.

لم يكن، قطّ، قد استطاع أن يميّز بوضوحٍ ملامح الإيقونة المكرَّمة التي كان الأبناء في أسرته يتناقلونها عن الآباء منذ قرون. لقد كانوا يقولون عنها إنّها عجائبيَّةٌ، ولكن ألا يمكن أن تطلق هذه الصفة على كلّ إيقونة؟ لقد كانت توضع في "الزاوية الجميلة" فتسود البيت في جلال وقد علاها سواد الأيّام والسُرُج الموقدة أمامها ليل نهار. ولم يكن ليخطر ببال أحد أن يبحث عمّا تحت الأَوضار المتراكمة منذ قرون، فتقليدٌ موروثٌ صاف لا ثُغرة فيه يرتدي من الأهمّيّة أكثر من أَيّ تنقيبٍ ناقد، ولا سيّما أنّ الجميع واثقون أنّه لا يسوغ التطلّع إلى سطح الإيقونة بل من خلالها، وأَنّ الشكل المحسوس فيها لا قيمة له إزاء الحقيقة التي توحي بها وتمثّلها. لقد كان ألكسي يدرك كلّ ذلك، وإنْ عجز عن التعبير عنه، وسحابةَ سني اعتقاله ظلّ قلبه عالقًا بتلك اللوحة الخشبيّة السوداء التي ما كان ليجهل الوضع الذي آلت إليه والنَخْر الذي أخذ يعبث بها.

وعادت أصابعه تنقّب في التراب الطريّ، فيما أخذ الأسف يكوي فؤاده، لاعتقاده أنّ الإيقونة قد فُقِدَتْ إلى الأبد. وكان يتمنّى لو أنّه احتفظ ولو بذكراها ورسّخ في ذاكرته، مثلما يحافظ المرء على كنزٍ ثمينٍ، ملامحها الجليلة، التي تعكس جسمًا مجيدًا، والشمس حين كانت تسكب عليها ضوءها الذهبيّ الصافي فتتجلّى منها رؤيا تَندُّ عن الوصف!

وفجأةً اصطدمت أصابعه بجسمٍ صلبٍ، وسرت كفّه فوق سطحٍ أملس فعرته الدهشة، واستبدّ به أملٌ عارمٌ وفرحٌ متوحّشٌ، وراح يزيل الأنقاض في اندفاعٍ وحماسةٍ بغية البلوغ إلى منفذٍ سليمٍ لإخراج اللوحة المدفونة. ومرّ بأنامله حول أطرافها حيث بدا له أنّه يلمس ما يشبه الحصى، وكان العرق يتصبّب منه مدرارًا، والتأثّر يهزّ كيانه. وفي كثيرٍ من العناية اندسَّت كفّاه تحت اللوحة ورفعتاها. ثمّ طفق يتأمّلها جاثيًا على ركبتيه مطويًّا على ذاته. لقد كانت الإيقونة ماثلةً أمامه، وقد تعرّت من إطارها ذي النتوءات المذهّبة، إلا أنّها كانت شديدة الوضوح. وكانت ألوانها الباهتة تموج لناظريه تحت ضوء القمر الشاحب، ومن خلال خلفيّتها المذهّبة كان يبرز وجهٌ أبديٌّ اتّسعت منه العينان اتّساعًا فريدًا، وحدّقتا فيه بنظرةٍ محيطةٍ بكلّ علمٍ.

وأَطلق صيحةً مدوّيةً وعفّر وجهه بالتراب وقد انتشى فرحًا وعذابًا، وهو ممسكٌ، بيديه المشدودتين، الإيقونة التي قد بهرته، مردّدًا في مثل نُواحٍ: "ارحمني يا ربّ! ارحمني يا رب!". فلقد كان هو ذاته، المخلّص الإله، موجودًا وجودًا سرّيًّا في تلك الإيقونة، عاكسًا مجده في دَفقٍ من الألوان مترجمةً النور غير المخلوق.

ونشبت عيناه في العينين الهادئتين هدوء بُحَيْرة، ومن خلالهما انزلق ألكسي خارج حدود الزمن وتألّفت جميع آلامه في محورٍ واحدٍ قائمٍ في منتصف الإيقونة، حيث الأبد والزمن كانا يتعانقان، وبدا له، هو الأمّي، أنّه كان يقرأ في قلب المسيح الأشياء جميعها، وخطوط مصيره... لقد كان هناك أبوه وأمّه وزوجته... لم يكونوا ماثلين بوجوههم بل بحضورهم، لا بأصواتهم بل بصمتهم، وكانت مياه الأبديّة العارمة تغرق صخور الأحداث الناتئة القاسية الحمقاء المتناثرة، وكلّ شيءٍ قد انقلب انسجامًا وتآلفًا وموسيقى، حتّى النجوم باتت تغنّي...

وشيئًا فشيئًا، أخذ الزمن ينبثق من المحيط حيث لا يجوز المكوثُ لأَحياءٍ على وجه الأَرض. غير أنّ لمسةً سماويّةً كانت تنهض شاهدًا على وجودٍ سامٍ كطَحالب الأعماق التي تردّ على تساؤلات الموج. وانتصب ألكسي، شأن إنسانٍ خارجٍ من سباتٍ عميقٍ، فيمَا كانت يداه ما زالتا متشبّثتين بالإيقونة التي عثر عليها. لم يكن يشعر، بعدُ، بقُرٍّ ولا بجوعٍ، وجعلته نشوة الفرح يصيح: "المسيح قام".

ثمّ وضع حمله الثمين على مَثاب البئر، وطفق يجمع بعض الحطب اليابس، وقد وفّرت له صنوبرةٌ كانت قد أطاحت بها صاعقةٌ غصونًا تفوح برائحة الراتنج. وعندما بدا له أنّ الكومة قد أضحت كافيةً، استلّ من خُرجه عود ثقابٍ وفركه على الحائط وأضرم النار. وأخذت الشرارات تسري فوق إبَر الصنوبر وكأنّها نملاتٌ ذهبيّةٌ، ثمّ انتشرت الشعل باقاتٍ أرجوانيّةً. وجثا هو على ركبتيه أمام النار المزغردة، وراح يتأمّل إيقونته التي توهّجت فجأةً بألوانٍ دافئةٍ

كالفجر المؤذن بالشروق، وقد تألّق فيها ما كان القمر يوحي بـــه، فالذهب الشفّاف والأرجوان والزمرّد واللازورد كانـــت جميعهـــا تَحوك هالةً حول وجهٍ يتجلّى منه تألّق ضياء جبل طابور. كـــلاّ! إنّ الرؤيا التي كانت قد تبدّت له قبل لحظاتٍ لم تكن خادعةً.

كان القمر يدور في حلقات القبّة السماويّة كما تـــدور كـــرةٌ أطلقها صبيٌّ، ويكتسي، شيئًا فشيئًا، لونًا أَحمر، وقد خبا منه لمعانـــه، فيمَا كانت السماء، عند الشروق، تتّشح بالأخضر الفاتح، وكانت النار تخمد رويدًا رويدًا. وتذكّر ألكيسي الأجراس... أوَلم يكن ذلك اليوم هو يوم الفصح، في السماء وعلى الأرض؟ لقـــد حـــلّ محـــلّ ضربات النواقيس الجَذلى التي كان وقعها في ما مضى يملأ الأجـــواء، صمتٌ كئيبٌ. إلاّ أنّ ذلك لم يُصبْه بالحزن، ففي تلك الليلة الفريدة كان كلّ شيءٍ لديه قد اكتسب معنى: الألم والفرح وقـــد ارتبطـــا ارتباطًا وثيقًا، والهوان والمجد قد تعانقا تعانق الصليب والقيامة. لقـــد تحطّمت قشرة الشتاء تحت وطأة ماء الحياة الدافق، وما حيلة الـــدنيا حيال انبثاق الربيع؟

وبأصابعه التي بلاها العمل الشاقّ رفع ألكسي الإيقونة، ولفّها بقميصٍ له وخبأها في أعماق خُرجه، ثمّ استعاد عصا التَرحال.

لقد كان عليه الآن أن يعثر على ابنه الذي كان واثقًا من بقائه حيًّا. وكل شيءٍ في حناياه كان ينشد، كلّ شيءٍ كان سلامًا. ومضى وهو يردّد في مثل ترنيمةٍ عذبةٍ:

"المسيح قام! المسيح قام!".

٧

اسْتجوَاب الأسقف

اسْتجواب الأسقف

أَمام الصليب، في المعبد الخاصّ، كان الأسقف تواردوڤسكي، رئيس أساقفة مدينة لووڤ جاثيًا مستغرقًا في الصلاة، بعد أن فرغ لتوّه من القدّاس. وفي الغرفة الصغيرة المجاورة المستخدمة بمثابة "سكرستيا" كان نائبه، الأب إيتيين يطوي بتؤدةٍ الحلل الكهنوتيّة، ثمّ ابتعد للردّ على طارقٍ كان ينقر، برفقٍ، الباب الخارجيّ. وعندما أصبح الأسقف وحيدًا انهار فجأةً على مركعه، والعبرات تمزّق صدره، وموجةٌ مريرةٌ من الأسى تغمر قلبه، وهو يردّد:

– "إلهي، إلهي، لماذا تخلّيتَ عنّا؟".

من كلّ حَدْبٍ، لم يكن يرى سوى لُجَج ظلماتٍ داهمةٍ، وأَخذه الدُوار، فتشبّث بمُتّكإ المركع، وقد رانَ على نفسه الصمتُ والظلام، وشعورٌ بالتخلّي الربّانيّ، حتّى الربّ الذي كان للحظاتٍ مضت

يقدّمه ويتلقّاه، قد صمت، وحتّى العذراء السوداء، فوق الهيكل، التي لم تحجم، يومًا، عن مدّ يد العون، كانت تكتم قدرتها الملكيّة، وقد ناشدها بصراحةٍ:

– "أليست پولونيا هي وَقْفٌ لكِ؟ ألم يُنادَ بكِ ملكةً في هذه الكاتدرائيّة لثلاثة قرونٍ خلت؟ أهكذا تذودين عن شعبك؟ هل ستُلقين بنا بين أيدي الزنادقة؟"

كان ذلك في التاسع والعشرين من أيلول عام ١٩٣٩، والهزيمة قد حلّت بپولونيا، ومدينة لووڤ تتهاوى تحت موجات الغزو القادم من الشرق. وكان الأسقف المسنّ يتابع، ساعةً إثر ساعة، ويومًا إثر يومٍ، اكتمال الكارثة. لقد قُضي على كلّ أملٍ، وأَخلدَ الرجاء إلى سباتٍ عميقٍ. فكيف الوصول إليه في سمائه النحاسيّة، وما السبيل إلى إيقاظه؟

لطالما واجه الأسقف تواردوڤسكي، طوال حياته الحافلة بالجدّ واستقامة السيرة، في جرأةٍ وبسالة، "فضيحة الصليب". ولكن لم يكن قد انتابه، قطّ، مثل ما كان ينتابه، آنذاك، من شعورٍ بأنّه رهين سجنٍ محكم الإيصاد، لا فجوة فيه مشرعةً على السماء ولا على الأرض. لقد كان إيمانه يستكين لمشيئة الله، إلا أنّ كلّ أحاسيسه كانت ترفض الكارثة المنكرة المريرة، إذ كانت خبرته الطويلة تتيح له استشفاف ما سيخلّفه الاحتلال من عواقب وخيمة. وكان يتساءل، في ألمٍ هل يستطيع الشعب المسيحيّ الصمود أمام هجمات الإلحاد الذي تمهّد له

أشدّ وسائل الدعاوة خبثًا؟ وهل ستنهار، ضحيّة الضلال والفساد، پولونيا التي طالما انتصبت قلعةً منيعةً في وجه الزندقة؟

فجأةً انتصب الأسقف، وبحركةٍ خاطفةٍ مسح عينيه، إذ لا يليق أن يرى أحدٌ رئيس الأساقفة باكيًا، ودخل الأب إيتيين، فأغلق الباب خلفه، وأسرَّ بصوتٍ خفيضٍ:

– "هناك من يطلب سيادتكم".

وبذل الأسقف جهدًا للوقوف، وأجاب، متحاشيًا عن توجيه نظره إلى نائبه، لئلاّ يلحظ احمرار عينيه:

– "مَن ذا الذي يطلبني؟"

وهزّ الكاهن الشابّ كتفيه وهو يردّ:

– "إنها جنديّةٌ روسيّةٌ، وهي تطلبك للمرّة الثالثة. ولقد حاولت طردها، إلاّ أنّها مقيمةٌ على إصرارها، مدّعيةً أنّ لديها ما تبوح به لسيادتكم شخصيًّا. إنّني أُراهن أنّها عجوزٌ مجنونةٌ أو أنّها قد أفرطت في الشراب".

وأسند الأسقف لحظةً يده إلى كتف نائبه، ثمّ غادر المكان من غير أن ينبس بكلمةٍ. واعترض الكاهن:

– "ألا تتناول فَطورك أوّلاً، سيدي؟"

تردّد الأسقف لحظةً، ثمّ أجاب:

– "كلاّ، بل أَحضر الزائرة".

لقد كانت كأس العلقم التي ينهَلُ منها من المرارة بحيث لم يعد يعبأ إن هي زادت أو نقصت بضع قطراتٍ.

في بهو الضيوف، الذي كسته بساطةٌ رهبانيّةٌ، كانت امرأةٌ، مرتديةٌ الزيّ العسكريّ، تنتظر، وقد أدارت ظهرها. ولفت نظر الأسقف عرض منكبيها، وجزمتها البالية، وهندامها المهلهل، وانتابه شعور اشمئزازٍ ما لبث أن سيطر عليه، غير أنّه كان يفكّر: "كم البَوْن شاسعٌ بين أناقة مواطناتنا البولونيات وهؤلاء الروسيّات! وهل يُعقَل أن تتزيّا امرأةٌ على هذا النحو المُزري؟"

والتفتت الجنديّة عندما سمعت الباب يُفتَح، ولكنّها انتظرت ريثما انصرف الأب إيتيين الذي كان يحملق بها بقسوةٍ، ومثل شجرةٍ تحت ضربات فأسٍ انهارت عند أقدام الأسقف وهي تنتحب: "أبَتِ! أبَتِ!"، ثمّ ضمَّت بذراعيها ركبتَي الأسقف، ولبثت، رَيْثًا، على هذا النحو وشفتاها ملتصقتان بأهداب جبّته.

وكان الأسقف قد توقّع كلّ شيءٍ خلا لقاءً مثل ذاك، فظلّ، برهةً، مذهولاً، متردّدًا، متسائلاً: "أَهي حقًّا مجنونةٌ؟"

ثمّ حاول التملّص منها فأمرها بالنهوض بلهجةٍ روسيّةٍ انطوت على شيءٍ من نفاد الصبر. فهو، بفضل ما تمرّس به من زهدٍ قاسٍ، كان يمقت التظاهرات العاطفيّة المفرطة، ولا سيّمَا تلك الصادرة عن النساء.

ونهضت المرأة، بعد لأيٍ، إذ إن سُمنتها كانت تثقل حركتها، وكانت تفوح منها روائح التعرّق، والجلد الذي ترتديه، والقذارة، ولكن لم تمتزج تلك الروائح بأيّ أَثرٍ لكحولٍ. ولم يكن وجهها الذي دبغته العوامل الجويّة المتقلّبة ليوحي بحقيقة سنّها، في حين كانت عيناها، بزرقتهما الصافية، تبوحان بشبابٍ نضرٍ. وعندما لحظت أنّ الأسقف ما برح شديد التحفّظ إزاءها انفجرت قائلةً:

– "لم يكن لديّ من وسيلةٍ سوى التطوّع في الجيش كي أَجد السبيل إليكم".

وازداد الأسقف حيرةً، فتراجع خطوةً إلى الوراء، خشية أن تعبّر له زائرته عن فيضٍ من التظاهر العاطفيّ، ثمّ سألها بلهجةٍ بارزة البرودة: "مَن أنتِ؟"

وانتصبت المرأة أمامه، مسدّدةً عينيها إلى عينيه، وراحت تتكلّم:

– "مَن أنا؟... إنّها لروايةٌ طويلةٌ. على جواز سفري اسمي هو "أنّا نيكولاوينان". أمّا في الواقع... ولكن ما الجدوى من ذكر اسمي الحقيقيّ الذي لن يوفّر لكم سوى المزيد من المخاطر، فضلاً عن أنّه لا يضيف إلى الرواية أيّ عنصرٍ ذي بالٍ".

وسكتت لحظةً، وكأنّها كانت تتوقّع استمرار استجواب الأسقف لها، ولكنّه ظلّ واقفًا، صامتًا، فاستأنفت اعترافها:

– "إنّني من روسيّا البيضاء، لا بل إنّي رأيت النور في قصرٍ، ولكنّ الثورة قتلت أبي وأمّي، أخواتي وإخوتي، وقد أنقذني حارس الغابات وأخفاني بين القصب، وكنت، آنذاك، في السادسة لا أكثر ولا أقلّ، وقد بقينا في الجانب الآخر من الحدود مع پولونيا. ولكنّني عندما أحسست بوحدتي راودتني فكرة الانتحار، فأخذني ديمتري الشيخ من يدي، وقادني إلى الأب سيرج الباسيليّ الذي كان، هو أيضًا، متخفّيًا في زيّ عاملٍ زراعيٍّ، والذي تعهّد حمايتي، وعكف على تلقيني مبادئ الدين كلّ مساءٍ. لقد كان يحيطني بحنان أبٍ. وذات يومٍ قال لي: "يا أنّا، عندما سأغيب، عليك أن تتابعي عملي، فلا يسوغ أن يحتفظ الإنسان لنفسه بما تلقّاه مجّانًا، وأنتِ قد ظفرتِ بالإيمان، وأصبح لديكِ على شؤون الدين اطّلاعٌ، وقد آن لكِ أن تشركي بذلك الآخرين، فالنفوس ليست على جوعٍ إلى أغذيةٍ فانيةٍ بل إلى الإيمان. إن الحُمْر قد طردوا الله، وهم في كلّ مكانٍ يُصْفقون في وجهه الأبواب كلّها، ولكنّه مستعدٌّ للدخول حتّى من السلّم الخلفيّ. فالله متواضعٌ، يا ابنتي، ولا يتحرّج من الدخول من أيّ منفذٍ، ولكن علينا أن نُهيّئ له مدخلاً؟ وأنت ستوفّرين له على الدخول عونًا، أليس كذلك؟"

"ولقد ودَّعتهُ، والدموع تزدحم في مآقيّ. ثمّ اعتقلوه ونفوه لا أعلم إلى أين. ولكن ظلّ نجمٌ في غياهب ظلماتي يلتمع: ذلك الوعد

الذي قطعته على نفسي، والذي كان يلزم وجداني. وها أنذا منذ مـــا يربو على عشرين سنةً أطوف في أرجاء روسيا، وألقّن الدين المسيحي، وأقوم بالتعميد، ولكنّني لا أستطيع إقامة القدّاس. أما سرّ العماد فيحقُّ لي منحه، ولذلك لست أتخاذل حيال أية سانحةٍ. ولكن..."

عندئذٍ، تضرَّجت وجنتاها بحمرةٍ مفاجئةٍ، وأردفت:

– "ولكن منذ سنين طويلةٍ لم أرَ كاهنًا، ومَن يدري؟ ربّمَا أنـــني نَسيت بعض مبادئ الدين".

وتوقّفت لحظةً، ثم استأنفت بصوتٍ لاهثٍ:

– "ها إنّني قد جئتك يا أبتِ لكي تمتحنني، وأوثر أن تقوم أنت بالامتحان، فامتحان الأسقف أوفرِ ضمانًا".

عندما فرغت من اعترافها، أطرقت وصمتت. حينئذٍ فُتح الباب وسأل الأب إيتيين قلقًا: "أتدعوني يا سيّدي؟" وأدرك الأســـقف أنّ نائبه كان يقوم بالحراسة من وراء الباب، وعندما حلّ الـــصمت ولم يعد يسمع شيئًا، حرص على التأكد من سلامة حَبْره، وقد ردّ عليه الأسقف في تؤدةٍ ولطفٍ:

– "دعنا، ولا تأذن لأحد بإزعاجنا".

– "وماذا عن الإفطار الذي لم تتناوله؟"

– "لديّ ما هو أفضل من ذلك، وفي هذا الصباح لا أودّ مقابلة أحدٍ".

وأغلق الأب إيتيين الباب على مضَضٍ، راجيًا ألاّ يلحق بأسقفه أيّ أذًى، وعاقدًا العزم على المضيّ في الحراسة حتّى النهاية. فـــرغم مظاهر القسوة التي كان الأسقف يبدو فيها للعِيان، كـــان يقطـــن قلوب جميع المؤمنين، صغارًا وكبارًا.

وأشار الأسقف على المرأة باللحاق به قائلاً:

– "هيا لنحيِّي سيّد البيت الذي قادك إلى هنا".

وفي المعبد سجدت المرأة مرتبكةً، معفّرةً وجهها بالأرض، وجسمها الضخم ينتفض على وقع نشيجها. أمّا الأسقف فقد راح يصلّي قائلاً:

– "إلهي، إلهي، اغفر لي قلّة إيماني، فنواياك غير نواياي، وطرقك غير طرقي. لقد حطّمت حدودنا في سبيل بلوغ هذه المرأة إلى هنـــا، ونحن كنّا في خنادق الدفاع قابعين، وها أنت تجعل منّا رسُلاً، وهـــا نحن ندرك أنّنا لن نقضي على الإلحاد بنصب المتاريس. إنّ هذه المرأة، من حيث لا تدري، أتتني بجوابك على تساؤلاتي".

أمّا هي فكانت تصلّي في حرارةٍ تُضفي على محيّاها التافه ضياءً سَنيًّا. ولمس الأسقف كتفها قائلاً:

– "هيّا، لا نهدرنّ الوقت".

فرحٌ دافقٌ كان ينبجس آنذاك من قلـــب ظلماتـــه، وأبـــواب السماء كانت تُشْرع أمامه، وحماسةٌ عارمةٌ كانت تدفعه إلى المسارعة في المشاركة بما قد تلقّاه هو أيضًا مجّانًا. لقد كانـــت تلـــك المـــرأة

المسكينة هي الذريعة لكي يسكب ملء رسالته على النفوس التي كان يؤنس حيالها مشاعر أبٍ تجاه أبنائه.

وكانت رؤيا جليلةٌ تبهر أنظاره وتحمله على الاعتراف بأنّ جوعنا إلى الله هو من العنف بحيث إذا تقاعسنا عن إشباعه حطّم الجياع أبوابنا.

وجال في خاطره أنّ الله قد جاء ليستجوبه بواسطة تلك المرأة المسكينة التي قدمت طالبةً منه استجوابها، وتعالى من صدره هذا الدعاء:

– "سيّدي يسوع، كن أنت الجواب الحيّ على تساؤلاتي".

٨

عيدُ ميلادٍ في أوكرانيا

عيدُ ميلادٍ في أوكرانيا

خرجت "بارازيا" نحو عتبة الباب، وأدارت صوب الشمس المائلة إلى المغيب عينيها المنطفئتين وأخذت تُنصت. لقد كان يحيق بها صمتٌ كثيفٌ عذبٌ، صمت الثلج الذي يلفّ الأرض، وقد تجمّدت الغابة السامقة الجليلة في وقفة انتظارٍ. وكانت السماء الملتهبة، عند الغروب، تخطّط البياض المُقفر المتمادي بأَخيلة ليلكيّة؛ في حين كانت طائفةٌ من البوم توشّي الدرب المكسوّ بالثلج بآثارٍ مزركشة. أمّا الكوخ فكان شبه مدفونٍ، وقد تدلّت من قشّ سطحه هوابط جليديّةٌ ثقيلةٌ لم تفلح شمس الشتاء الشاحبة في إذابتها. وكان الليل ينذر ببردٍ قارسٍ.

وكانت "بارازيا" ترتدي، وفقًا لزيّ نساء أوكرانيا، فروةً من جلد الغنم سيّئة الصنع، وقد انتعلت جزمةً، ولفّت هامتها بمنديلٍ من الصوف أسود اللون. أمّا وجهها فقد ثلّمته الغضون من جميع جنباته. وشأن جميع العميان، كانت تمسك بين يديها عصًا غليظةً لم يُحسَن

تقشيرها. ولم يكن في محيّاها ما يدلّ، دلالةً أكيدةً، على سنّها، إذ إنّ غضونها لم تكن لتأتلف مع فمها الذي لم يعتوره أيّ تغضّنٍ، ولا مع أسنانها الناصعة التي تحاكي عقدًا من اللآلئ.

وفجأةً، انطلق من الثلج صريرٌ وارتفع صوت رجلٍ قائلاً: "تبارك يسوع المسيح". فأدارت نحوه "بارازيا" طلعةً قد أشعّت بغتةً بالنور، وأجابت: "إلى دهر الدهور. كنتُ قد بدأتُ أُوجس خَشْيةً من أن يصيبك مكروهٌ يا قاسيل، بعد أن تلكّأتَ في الوصول".

إلاّ أنّ القادم أجاب: "إنّ كلّ شيءٍ جاهزٌ، وما علينا سوى إعداد الإسطبل".

لقد كان "قاسيل" فارع القامة، عريض المنكبين، فتيّ المحيّا، أزرق العينين، وقد تدلّت خصلات شعره فوق حاجبيه، والتمعت بالاحمرار وجنتاه الناتئتان بعض النتُوء.

وفيما كانت أقدامهما تنغرس في الثلج، قال لها: "ستعيرينني رفشًا، يا أمّاه، كي أنتهج ممرًّا". وفجأةً انفجر ضاحكًا وأضاف: "لقد كانوا في إثري، شأن شرذمةٍ من الكلاب، فدعوتهم إلى حانةٍ، ودفعت عنهم ثمن جولة شرابٍ، وقد أسهم "فيودور" في المؤامرة إذ سكب في كؤوسهم مخدّرًا وسكّب لي الماء صرفًا. وإنّني لواثقٌ من أنّهم الآن غارقون في سُبات أهل الكهف، ولقد وعدتني "كاسيا" الكتعاء بالسهر عليهم. وستسير الأمور على أفضل وجهٍ يا أُمّاه".

وسألته، وهي تدفع باب الإسطبل: "مـــاذا عـــن باتيوشـــكا؟" (أبونا).

– "إنّه في مأمنٍ عند "هوربينا" وسيوافينا متنكّرًا في زيّ امرأةٍ".

وعند ولوجهما لفّتهما رائحةٌ حادّةٌ فاترةٌ، فيما كانت بقرتـــان أمام المعلف تجترّان على مهلٍ، وكان صدر الإسطبل مليئًا بـــالقشّ، وسُلّمٌ ملقيًّا على فجْوةٍ في السقف تؤدّي إلى الأهراء، ومصباحٌ معلّقًا على عمودٍ في وسط الإسطبل يلقي ظلالاً باهتةً؛ أمّا واجهة الإسطبل فكانت قد كُنستْ بعنايةٍ.

وسألته بارازيا: "هل رأيت الكوّة؟ إذا ما جاءوا أمكن الجميـــع أن يفرّوا منها خلا الفدائيّين. فمن تُرى سيتخلّف؟"

– "أنا وغريغوري وفانيا، وسيفرّون بكِ أيضًا يا أُمّاه!".

– "أوَتعتقد ذلك؟ بل أنا سأبقى؛ حتّى في أثناء القدّاس، سأقوم على حراسة البيت، فإذا ما لاح أيّ خطرٍ رميت البـــاب بمكـــواتي نذيرًا، وسيحتفظ لي باتيوشكا بكسرةٍ أتناولها. إنّني عجوزٌ، والشباب أجدر بالعناية".

وهزّ ڤـــاسيل رأسه مفكّرًا وقال: "لا أريد أن أخالفكِ يا أمّاه، ولكن يعزّ عليّ أن أراكِ محرومةً من القدّاس الإلهيّ في ليلـــة المـــيلاد هذه؛ لابدّ من إيجاد من ينوب عنك في الحراسة".

وضحكت بارازيا قائلةً: "إنّك تقول ما لا تصدّق! فإذا كان الله

قد حرمني البصر، إلاّ أنّه قد أنعم عليّ بسمعٍ مرهفٍ، وما من أحدٍ يلتقط الأصوات النائية نظيري. وأنت تعلم أنّني، مذ أن قتلوا ابني، مكلّفةٌ بالصلاة لأجل خلفاء "يهوذا". وعليّ أن أؤدّي إلى الله حسابًا عن نفوس هؤلاء، ويعلم الله أنّ وطأة هذه النفوس لثقيلةٌ... أعتقد أن نصْب الهيكل في هذا المكان هو الأَمثل، وقد خبأت المِنْصبة في هذه الزاوية. سنضع فوق الهيكل إيقونة أمّ الله، ولقد دقّقت، لذلك، مسمارًا: ألا أسرع يا بنيّ، فالوقت يلحّ، وسيحلّ الليل قريبًا".

لقد كانا يعملان في صمتٍ، وانتظامٍ، ودقّةٍ، إذ كانت أدقّ التفاصيل قد خُطّطَ لها، وما كان عليهما سوى وضع كلّ شيءٍ في المكان المُعدّ له. وقد زرع ڤاسيل على جانبَي الهيكل المرتجل شجيرات صنوبرٍ اقتُطعت حديثًا وما برحت تفوح برائحةٍ ذكيّةٍ. وبمثابة سجّادةٍ، فرش الأرض بفروع الصنوبر الصغيرة.

وقالت بارازيا: "ستدفئنا البقرات. ألم يخطر ببالك أنّ احتفالنا هذا سيحاكي أوّل عيد ميلادٍ حدث في العالم؟ لا ريب أنّ أمّ الله لن تشعر بالتغرّب في ما بيننا".

وباغتهما نعيقٌ كئيبٌ، فقال ڤاسيل:

– "إنّه البوم، ولا شكّ أنّهم قادمون! هيَّي استقبلي باتيوشكا يا أُمّاه، وفي غضون ذلك أَفرَغُ أنا ممّا أنا فيه من عملٍ".

لم تكن تلك المرّة الأولى تعير بارازيا فيها منزلها لاجتماعاتٍ سرّيّةٍ.

لقد كان زوجها حارس غاباتٍ وقُتل في الحرب. وانتظم ابنها الوحيد في صفوف المعارضة، إلاّ أنّ أحد أصحابه وشى به، فقبض عليه الحُمر وشنقوه، ومذ ذاك، أُشيع أنّ بارازيا قد أُصيبت بمَسّ جنونٍ من جَرّاء أحزانها. وكان من شأن تلك الإشاعة خدمة القضيّة. والواقع أنّ العجوز كانت تعيش في عزلةٍ، وتُزْجي أيّامها في الصلاة، إذ إنّ الله قد فجّر نوره في نفسها بعد أن غشتها موجة يأسٍ. وكان الشعور بحضور الله لا يفارقها، لحظةً واحدةً، وترى نفسها مدعوّةً إلى التصعيد معه على طريق الجلجلة.

ليلةَ جاءوها بجثمان ابنها الذي كان قد انتزع من حفرةٍ جماعيّة، كان صوتٌ في داخلها يصيح: "ألا جَدّفي!"، في حين كان صوتٌ آخر يحرّضها: "صلّي لأجل الجلاّدين".

"لقد ظللت، فترةً، ممزّقةً، ثمّ اخترتُ". بهذه العبارة أوجزت بارازيا المحنة التي عانتها، والحلّ الذي أفْضت إليه والذي جعل حياتها، مذ ذاك، نسيجًا من صمتٍ.

على الدرب المؤدّي إلى الكوخ امرأتان كانتا تنتظران، فبادرتهما بارازيا بكلمة السرّ، فردّتا عليها بالجواب المقرّر، وعلى الفور انحنت بارازيا في تواضعٍ جَمٍّ، وعملاً بالتقاليد الجارية، قبّلت ركبتَي إحدى الزائرتين.

– "باركك الله يا باتيوشكا! تعالَ أَصِبْ نصيبًا من الدفء".

ودخلا الكوخ حيث كانت نارٌ وافرة اللهب تزغرد في الموقد، وأردفت بارازيا ضاحكةً:

– "انتظرا ريثما أشعل شمعةً، فأنا أوفر حظًّا لأنّني في غنًى عنها".

ونزعت الزائرة التي كانت بارازيا تخاطبها على هـذا النحـو الخِمار الذي كانت تتلفّع به، فبدا جليًّا أنّ الأب ديمتري لم يكن يلقى كبير مشقّةٍ في التنكّر، فملامحه النحيلة المستقيمة الدقيقة كانت تجعل من تنكّره مهمّةً سهلةً؛ ولا سيّما أنّه كان قد أَفلح، بعد لأْيٍ كـثيرٍ، في اصطناع صوت عجوزٍ، وتمرّس من عادة التكلّم بنبرةٍ مرتعشةٍ، لا بل إنّه قد تمكّن من الظفر بجواز سفر امرأةٍ، فكانـت جميـع تلـك العوامل عونًا له على حريّة التنقّل.

واستهلّ الأب ديمتري حديثه قائلاً: "إنّ في غابة كراسن ذئابًـا، ممّـا جعل وصولي عسيرًا". وظلّ، برهةً، مادًّا فوق النـار كفّيـه الـدقيقتين المتميّزتين ببياضٍ فريدٍ، ثمّ سأل: "أين يجب أن أُعرّف يا أمّاه؟ هل كلّ شيءٍ معدٌّ؟" فأجابت: "بالطبع، ها إنّ قـاسيل يقصد مفترق الطرق للتأكّد من كلمة سرّ القادمين. بانتظار ذلك، ابدأ بسماع اعترافي يا أبتاه".

وشرع الحضور في الانسحاب، في تؤدة، فاعترضـت بارازيـا قائلةً: "بل ابقي هنا يا هوربينا، فليس لديّ أسرارٌ أبوح بها! والحـقّ أنّني لست أدري بما سأعترف يا أبتاه، فكلّ شيءٍ في داخلي ضـياءٌ؛ إنّني لا أبصر شيئًا، ولكنّني أرى الله الذي هو كلّ شيءٍ. وفي هـذا

اللاشيء وهذا الكلّ، تتمثّل حياتي برمّتها. إنّ الشرّ يكمن فيّ والخير فيه، ولكن الخير هو الأقوى، والحبّ هو الأشدّ أسرًا. وكلّما ازددت تواضعًا، أسبغ عليّ المزيد من نعمه. كما ترى، يا أبتاه، إنّني أعيش وحيدةً فلا أتعرّض للخطيئة". كانت تدلي بأقوالها هذه، وهي جاثيةٌ مكتوفة الذراعين، فسألها الكاهن:

– "هل تحقدين على أولئك الذين أصابوكِ بسوء؟".

– "إنّني من أجلهم مكلّفةٌ بالصلاة، هذا ما أنفَذَتْه إليّ أمّ الله، وهي تبكي، فهزّت أحشائي. كلاّ، إنّني لا أريد بهم أيّ سوء، ولا أحمل لهم أيّ حقد... إنّهم لأولادٌ مساكين ضالّون، ويجب أن نقابلهم بالحبّ. أنّ الحرب التي نشنّها عليهم هي حرب حبٍّ، وليس ذلك مدوّنًا في قائمة الخطايا. ولكن إن كنت خاطئةً، فربّمَا كانت خطيئتي هي أنّني لا أُحبّ بالقَدْر الوافي".

بعد ساعة، كان الإسطبل يغَصّ بالحضور، وقد بات الهواء فيه مثقّلاً بروائح الشحوم التي طليت بها الجزمات، وجلود الفَروات السيّئة الدَبغ، والتعرّق. إلاّ أنّ الجميع كانوا على رُكَبهم جاثين يردّدون، في غير انقطاعٍ، وفي عنفٍ لا يحدّ منه انخفاض الأصوات: "ارحمنا يا ربّ! ارحمنا يا ربّ!".

وقبل الشروع بالقداس، وجّه إليهم الأب ديمتري بضع كلماتٍ قائلاً:

"إخوتي الأعزّاء، هذه هي مناسبةٌ لكي نبتهج. ففي مثل هذه

الليلة المباركة وُلدَ لنا المخلّص في إسطبل وضيع كهذا الذي يضمّنا الآن، وكانت بهائم وضيعةٌ هي التي توفّر له بعض الدفء، ولئن خلا هذا الإسطبل من الحمير، غير أنّ الحملان متوفّرةٌ. ولا تظنّوا أنّ الميلاد قد حدث لنَوبةٍ واحدةٍ فقط، منذ ١٩٥١ عامًا، فالمسيح لا يني يولد في حنايا النفوس، ومن يحبّ الله يحتفل كلّ يومٍ بعيد الميلاد، والمسيح متأهّبٌ، دومًا، ليأتي كلّما دُعي للحضور. وإذا كانت نفس داعيه بائسةً، فإنّه لا يجد في ذلك رادعًا عن الحضور، بل إنّه يأتي ليعيد إليها صَفْوها، ويكسب فيها الحبّ والمزيد من الحبّ. وإنّ لفي ذلك ثروتنا وسعادتنا. فعلينا، إذن، أن نشفق على من انفصلوا عن الحبّ. إنّ أعداءنا، أولئك الذين يضطهدوننا، لأشدّ منّا فقرًا!".

عندئذ، أخذت النسوة في النشيج، وكأنّ واجبهنّ التعبير بذلك عن مدى تأثّرهن بالعظة، إذ لا بدّ لعظةٍ جيّدة من أن تكون "مبلّلةً"، وطفقنَ، واحدةً تلو الأُخرى، تتمخّطن تمخّطًا صاخبًا مرتفع النأمة، ثمّ انفجرنَ جميعًا في جوقة نحيبٍ. ومسح الرجال بدورهم دموعًا صامتةً، ولئن كان ذلك خارجًا عن برنامج الحَفْل. كيف لا؟ فالمناسبة جليلةٌ، والنعمة تجلّ عن الوصف، وربّما كان هذا القدّاس للكثيرين منهم هو الأخير!...

ويتوقّف الأب ديمتري، لحظةً، ليدع الطوفان يمرّ، قبل أن يتابع حديثه...

أمّا بارازيا فكانت قد أقامت مرقبها عند عتبة الباب، وكان

الكاهن قد أيّد رأيها ووجدها هي الأجدر بالحراسة، فإنّها وإن عجزت، من مكانها، عن تمييز عبارات الصلاة جميعها، إلاّ أنّ ضجيج الأصوات سيتيح لها متابعة الاحتفال، ولا سيّما أنّ الإسطبل على مرمى حجرٍ... وعند بدء العظة جلست القُرفُصاء وغاصت في نورها الداخليّ الأثير على قلبها.

وفجأةً انتفضت مرتعبةً وصاحت: "مَن القادم؟"، غير أنّ يدًا ثقيلةً أطبقت على كتفها ويدًا أُخرى كتمت فاها وصوتًا خشنًا بادرها قائلاً:

– "أيّتها الساحرة العجوز، اخرَسي! أهذا إذًا هو جنونك المزعوم؟ هيِّي!". ودفعها بعنفٍ فراحت تتدحرج على الأرض، وأوصد الرجل الباب بعنايةٍ وأردف ساخرًا:

– "ها قد وقعت في الفخّ، وقد آن الأوان لإرغامك على الاعتراف. أَقِرّي من أين جاء الكاهن؟".

وتمالكت بارازيا نفسها، رغم الألم المبرّح المنبعث من كتفها المخلوعة، وتبدّت لها بوضوح حَراجة الوضع الذي كانت تجابهه وفداحته، واشتدّت بها الملامة على نفسها لوقوعها فريسةً سهلةً، وتصاعدت من صدرها صلاةٌ حارّةٌ: "يا أمّ الله أَنقذينا! يا أمّ الله ارحمينا! يا أمّ الله خذي حياتي، ولكن لا تسمحي بموت أيٍّ منهم".

وقال الرجل، وهو يفرك يديه: "سيصل رجالي إلى هنا في

غُضون ساعةٍ، ولا ريب أنّ مهمّتهم ستستغرق الليل بطوله. بانتظار ذلك، هل لكَ في حديثٍ نتجاذبه؟ هيِّي، قولي لي ماذا كنت تفعلين منذ لحظاتٍ عند عتبة البابِ".

وأنصتت بارازيا، في وضوحٍ تامٍّ، بمسامع روحها، إلى الكلام الذي كان يُوحَى به إليها، فردّدته طائعةً، وفي جَرْسٍ مرتفعٍ:

– "لقد كنت أصلّي لأجلك!"

وانتفض الرجل، وأجاب في ضحكةٍ تشنُّجيّةٍ:

– "آه! إنّه لشرفٌ لم أكن أتوقّعه! أكنت تصلّين من أجلي، إذن، أيّتها العجوز المأفونة، لأجلي أنا الذي يستطيع أن يقصف عنقك، هكذا، في الحال؟". وأحسّت بيدين تضغطان على عنقها، إلاّ أنّها لم توجس أيّ خوفٍ، بل كانت، بكلّ كيانها، منصتةً إلى الصوت الداخليّ، لتردّد حرفيًّا ما كان يلقّنها، وبغتةً أفلتت قبضة الرجل، فقالت له:

– "لستُ أنا الجديرة بالإشفاق، بل أنت به أجدر. بربّك ألا ترأف بنفسك المسكينة؟".

ونشب بينهما حوارٌ كأنّه طِعان سيوفٍ، فقال:

– "نفسي، نفسي! ولكن عليّ أن أعلم أوّلاً أنّها موجودةٌ!".

– "ألا انظر إليها! ألا تراها؟".

– "أيّتها الساحرة، ألا تدَعينني وشأني؟".

– "أنا لست ساحرةً! هذه هي نفسك، هل تراها؟ مثل طفلٍ مقيّدٍ، مثل طفلٍ جائعٍ وسجينٍ. ألا تسمعها تنتحب؟ إنّها نفسك، فارحمها!".

وبدا الرجل، حيالها، وقد صعقه الذهول. لقد كانا واقفين، هي، وقد أدارت للموقد ظهرها، وهو، وقد غمره النور، وعبّرت جميع ملامحه عن رعبٍ يندُّ عن الوصف. لقد كان يرتجف فتصطكّ أسنانه اصطكاكًا صاخبًا. أمّا هي فقد تابعت حديثها، في سلطةٍ لم تكن، لتعهد لها مثيلاً من قبل، وقالت:

– "إنّني لأرى نفسك، نفسك المسكينة، الثاوية تحت الوحل، وصورة إلهك غارقةٌ في ذلك الوحل، كم من الوحل، يا للربّ يسوع، ويا له من وحلٍ! هيّا أَنصِت!...".

إنّها كانت تردّد فحسب، ما كان يُهمَس به في أُذنها، وكانت بكلّ كيانها مستسلمةً إلى الرؤيا الداخليّة، وقد غابت عنها معاني الخطر، وفقدت مبدأ الزمن. إنّها كانت ترى خطايا ذلك الرجل بكلّ دقائقها محاطةً بكل قرائنها وظروفها مثل شريطٍ من الفظائع ينساب أمام عينيها. لقد كانت عاجزةً عن السكوت، ولو هي أرادته. وكان القرف يبعث في نفسها ضربًا من الفُواق تجهد في التغلّب عليه. إنّها كانت ترى خطاياه، واحدةً فواحدةً، ولكن على وجهٍ من الدقّة المتحرّكة القاتمة، يجعل قواها تخور رعبًا.

– "إليك ما اقترفته وأنت في الثانية عشرة، في السادسة عشرة، في العشرين...".

وفجأةً أطلقت صيحةً حادّةً وانهارت، بعد أن تجمّع في وجهها كلّ ما في جسمها من دماء. لقد رأت كيف تمّ الحدث الفظيع وكان عليها أن ترويه! صغيرها "فانيا"، ابنها الوديع، وحيدها، هكذا دبّروا قتله! لقد أوسعوه ضربًا، حتّى بات مشوّها يتعذّر تعرّفه، وقد تورّم وجهه وعراه الشُحوب والذهول، وكان يصيح أثناء تعذيبه: "أمّاه! أمّاه!".

ولقد شنقوه بحبلٍ وعلّقوه على غصن شجرة السندر تلك، وقد اعترت جميع جسمه التشنّجات، ثمّ هدأ وقضيَ الأمر. وهذا الرجل الماثل الآن أمامها، منهارًا، هذا "اليهوذا" الذي وشى بابنها وسلّمه، هذا الرجل كان واقفًا تحت المشنقة المرتجلة، وقد أَغرقَ في الضحك...

وانتابتها رعشةٌ؛ غير أنّ الصوت الداخليّ الملحاح لم يبارحها. ولم يكن مقتل ابنها سوى فصلٍ من مسلسل الخطيئة الذي تمثّله حياة ذلك الماثل أمامها. وها هوذا مشهدٌ مأساويٌّ آخر لا مندوحةَ لها عن سرد تفاصيله!

فهو، حتّى في هذه الليلة عينها، قد غرّر بزوجة صاحب الحانة التي، تحت تأثير الإرهاب، رضيت أن تتجسّس على زوجها، وباحت بسرّ الاجتماع وبأسماء المؤمنين المشتركين فيه، وهي، تلك المرأة، هي التي سلّمتهم جميعًا. أمّا هو فيرجو ترقيةً جزاءً على إنجازه هذا، ويحرص على التفرّد بهذا الشرف... فرجاله لن يأتوا، إذ إنّهم في

انتظاره عند كوخ الفحّام، وفي انتظار إنذار صـــفّارته، إذا وقعـــت الطريدة في الفخّ... ولم يبقَ سوى إنذار الصفّارة هـــذه، لتكتمـــل سلسلة جرائمه.

وسكتت مرهَقةً، في حين كان الرجل عند أقـــدامها ينتحـــب. وفجأةً أحسّت بموجةٍ من الفرح الجامح تتصاعد من أعماق كيانهـــا على غِرار سيلٍ يجرفُ كلّ شيءٍ في طريقه، فالله قد لبّى دعاءها، وها هي ذي قد تمكّنت من "يهوذا" هذا.

وفي عطفٍ انحنت وأخذته بين ذراعيها وقالت:

– "سلامٌ عليك يا ابني! إنّها ليلة سلامٍ!".

وأدار نحوها محيًّا ما زال فتيًّا، مبلّلاً بالدموع، وسأل ضـــارعًا: "ماذا عليّ أن أفعل يا أمّاه؟".

– "تعالَ معي، تعالَ، إنّهم في انتظارك!".

وأخذت بيده حتّى الإسطبل ودفعت الباب.

وتوقّف الأب ديمتري بغتةً والتفت الجميـــع نحـــو القـــادمَيْن الجديدَيْن، ولكنّها، في بساطةٍ، أعلنت:

– "إنّ هذا قد جاءنا "يهوذا"، وها أنذا آتيكم به أخًا".

٩

عماد عام ١٩٤٤

عماد عام ١٩٤٤

قالت الأخت "أولغا" للرجل الذي كان يَعزُق أرض البستان:

– "لا بدّ أنّها قد ابتلعت زجاجةً كاملةً من العقاقير المنوّمة، فقد وجدناها هذا الصباح، فاقدة الرُشد، عند أسفل السلّم، وقد قامت الأخت "أنييس" بما يقتضيه حالها من غسل معدةٍ وما إلى ذلك، وهي الآن على حالٍ أفضل، غير أنّنا، في هذه الأثناء، قد عانينا من الرعب قدرًا وافيًا، وتستطيع، يا أبت، إدراك رعبنا، إذا ما تصوّرت الانتقام الذي كنّا سنتعرّض له، إذ إنّ أحَدًا لن يصدّق أنّها قد أقدمت هي على الانتحار، وهي في صفوف الجيش، بل ذات رتبةٍ! ولا ريب أنّهم كانوا سيتّهموننا بالتواطؤ مع المقاومة، ولستَ بجاهلٍ ما تفضي إليه "أعمال التخريب" كما يدعونها!

وكان الذعر باديًا جليًّا على الأخت "أولغا" حتّى إنّ غطاء رأسها الذي لم تحسن إصلاحه كان ينبئ بذعرها، رغم ما اشتُهر عنها من اتّزانٍ وشدّة مِراسٍ؛ أمّا الرجل الذي كان يُعمل في الأرض

مِعزقته، فمسح يديه بإزاره الأزرق، وتمتم بصوتٍ خفيضٍ:

– "أنا ماضٍ لمقابلتها".

ووثبت عليه الأخت "أولغا" لتسدّ عليه الطريق قائلةً:

– "هل جُننتَ يا أبتاه؟ إنّك تسعى إلى حَتْفك بظلفك؛ فلا أحدٌ هنا يعرفك، ولن تصيب جدوى مع تلك المرأة التي تجهل أبجديّة الدين. لقد حاولت الأخت "فاندا" التي تتكلّم الروسيّة أن تحادثها منذ أيّامٍ، وكانت هي تبدي فضولاً في الاطّلاع على نهج حياتنا، وقد طرحت العديد من الأسئلة الساذجة، واستعلمت، بنحوٍ خاصٍّ، عن معنى ارتدائنا الثوب الرهبانيّ، ووضْعنا خاتمًا في إصبعنا، وعن صحّة وجود يسوع، وعن كُنه العماد؛ وقد باغتتها الأخت "صوفي" يومًا في وقفة تهيُّبٍ أمام "سيّدة لورد"، وعندما سألتها عن ذلك قالت: "إنّ هذه المرأة تشبهكنّ، فهل هذا ضريح؟". صدّقني، يا أبتِ، إنّك تهدُر وقتك سُدًى، ما علينا سوى أن ننقذها وندعها تمضي، بل يجب أن تمضي".

أمّا الرجل فراح يصفّف على العربة مِعزقته، ورفشه ومِمْشاطه، وأجاب:

– "بالتأكيد علينا أن ننقذها!"

واتّجه شطر المنزل، في خطواتٍ واسعة، تلحق به الأخت "أولغا" التي كانت تمسح عينيها. ولم يكن الأب "يوحنّا" ليستطيع

ممارسة كهنوته إلاّ خلسةً، متنكّرًا في زيّ بستانيٍّ، فقد سبق للألمان أن وعدوا بجائزةٍ لمن يقبض عليه، وها إنّ الروس ماضون في تصفية الكهنة والرهبان، في غير هَوادةٍ ولا رحمةٍ، أمّا الراهبات اللواتي قبلنَ إيواءه، فكنّ يعرّضن أنفسهنّ، من جرّاء ذلك، إلى مخاطر جسيمةٍ، لقاء إفادتهنّ من سماع القدّاس اليوميّ الذي يسمو، في تقديرهنّ، على أيّ ثمنٍ؛ غير أنّ الأخت "أولغا" كانت، في قَرارة نفسها، لا ترى مبرّرًا لمضاعفة المشكلات، وتجد أنّ الأب العزيز يجري مسرعًا ليرمي بنفسه بين فكّي الذئب! ولا سيّما أنّ الجنديّات السوفييتيّات أشدّ من الجنود خطرًا، فهنّ فاجراتٌ، غليظات القلوب، تتباهين بإبراز غرائز منحرفةٍ شاذّةٍ، بل ساديّةٍ أحيانًا؛ وكانت الأخت "أولغا" المكلّفة باستقبال الغرباء، قد اتّخذت للأمر حِيطتها. صحيحٌ أنّها كانت قد ضحّت، منذ فترةٍ طويلةٍ، بحياتها، ولكنّها لم تكن تجد حاجةً إلى السعي نحو الاستشهاد!

واندفع الأب "يوحنا" إلى المطبخ، حيث كانت الأخت "هيدفيك" تقشّر البطاطا، وسألها لاهثًا:

– "أين هي؟"

فأشارت الأخت بسكينها، إلى حيث كانت الجنديّة، فيما كانت شفتاها اللتان غابت من تحتهما الأسنان، تتحرّكان في بطءٍ، وقالت:

– "الآن، وفي ساعة موتنا، آمين... لقد نقلتها الأخت "أنييس" إلى المستوصف، يا أبتِ! يا لها من مسكينةٍ، فليرحمها الله!"

أمّا الأخت "أنييس"، فكانت ترقبه في الممرّ، وبادرته قائلةً:

– "لقد رأيتك، من النافذة، قادمًا، وحسنًا فعلت؛ فها هي ذي قد استعادت رشدها، وأنا لا أقوى على تهدئتها، فهي تنتحب كالمجدليّة، هيّا".

أوّل الأمر، لم يشاهد الكاهن في الغرفة الفسيحة المعتمة، الموصَدة النوافذ، سوى شكلٍ أبيض يهزّه النشيج؛ فقد كان رأس المرأة الغريبة غارقًا في الوسادة، وقد تقوقعت تحت الأغطية، شأن حيوانٍ جريحٍ، فتمتم قائلاً:

– "يا لها من كَومة تعاسة".

ثمّ اقترب من السرير، ووضع يده في تؤدةٍ على الرأس المشعّث الشعر، فانتفضت المرأة، واستقامت فجأةً، زائغة العينين، فبادرها الكاهن بالروسيّة قائلاً:

– "لا تخشي شيئًا، إنّني آتٍ لإنقاذك؛ قولي لي، ما هو اسمك؟"

أمّا هي فكانت ترميه بنظرةٍ حذِرة، وأجابت:

– "كاتيا، اسمي كاتيا، ويدعونني كاتيوشكا. ولكن ما شأنك أنت بذلك؟"

– "الحديث يمسي أوفر مُتعةً، بين متعارفين. أنا الأب يوحنّا، أنا "باتيوشكا" (أبونا) وأطبقت الجنديّة عينيها الموغوليّتين، وقالت:

– "هل تعلم أنّ بوسعي إيداعَك السجن؟"

– "نعم أعلم ذلك".

وانحنت الأخت "أنييس" على المريضة، جاسّةً نبضها، واكتفت بالقول:

– "إنّكِ الآن أفضل حالاً؛ أُودعك الله".

وأُغلق الباب في هدوء، في حين كان الأب "يوحنّا" واقفًا محدّقًا؛ أمّا الغريبة، فرغم مظهرها العسكريّ، وملامحها الحادّة، كانت تبدو فتيّةً، شقراء، ورديّة اللون؛ أمّا عيناها، وقد اتّسعتا الآن، فكانتا تلتمعان من الحمّى، في حين كانت يداها اللتان أكسبهما العمل قسوةً وغلاظةً، ترتجفان؛ وسألها الكاهن:

– "ما الذي حملك على هذا ياكاتينكا؟"

وفجأةً غطّت وجهها بطرف الغطاء وأجابت:

– "ما أعاني من خجلٍ وقرَف!"

وضمّ الكاهن يديه، وظلّ صامتًا مترقّبًا، فأدهشها صمته، ورفعت رأسها، وحدّقت في وجهه، وقالت منفعلةً:

– "هل تدري من أنا؟ إنّني بَغيٌّ! صحيحٌ أنّني جنديّةٌ، إلاّ أنّ مهمتي هي الترفيه عن الجنود، ليلَ نهار، ليلَ نهار! عندما كنت في العاشرة كنت أحلم بأسرةٍ وأولادٍ... ولكنّ ذلك الحُلم قد اضمحلّ، وقد سرى في دمي وباؤهم... حتّى ساعة حضوري إلى هنا، كان يبدو لي أن لا حياة سوى تلك التي كنت أعيشها، ولم أكن لأظنّ أنّه ما زال هناك عذارى! إنّني مكلّفةٌ بمراقبتكم، وأنا أُنعم النظر، وأشاهد... هذه الثياب الرهبانيّة، هذا السلام المخيّم، هذه الوجوه التي لا تلطّخها

قذارةٌ؛ لقد سمعت شرحًا عن تمثال العذراء البتول، وقد غَشيتُ معبدكم، وغرف نومكم، وكلّ مطرحٍ تَغْشونه؛ إنّه لعالَمٌ كنت أجهل عنه كلّ شيءٍ، ولم أكن لأتصوّر حتّى إمكان وجوده؛ حينئذٍ انتابتني الرغبة في أن أتقيّأ ذاتي؛ ها إنّك الآن تعلم عني كلّ شيءٍ!".

وأجاب الأب "يوحنّا"، في صوتٍ جليٍّ:

– "تبارك الله! أجل إنّني واثقٌ أن لا شيء مفقودٌ بعد، يا كاتينكا؛ فإذا أنت أردت، فبوسعك أن تحاكي راهباتنا نقاءً وسناءً. لقد أقدمت على الانتحار، بدافع القرف من نفسك، ولكن هل تعلمين ما هو العماد؟ بل هل أنت معمّدة؟"

فهزّت رأسها مشيرةً بالنفي، وقد ازدحمت في مآقيها الدموع؛ وأردف الكاهن قائلاً:

– "العماد أيضًا، يا كاتينكا، هو ضَرْبٌ من الموت، الموت عن الخطيئة، به يغرق كلّ ما علق بنا من قذارةٍ في الماء، والماء يطهّرنا، لأنّ المسيح قد مات من أجلنا، مات لكي يهبنا الحياة؛ وأمرُ انعتاقك من العبء الذي يُرهقك، ويبعث فيك القرف، مرهونٌ بمشيئتك أنت! هل تدركين، حقًّا، ما أقول؟"

وضمّت المرأة، في هدوءٍ وتؤدةٍ يديها وأجابت:

– "ارحمني يا ربّ، ارحمني يا ربّ! لقد كانت جدّتي تُزْجي وقتها في الصلاة ليسوع، وكنّا نظنّ أنّها مأفونةٌ، بعقلها لَوثةٌ، إذ قد لقّنونا أنّ الله قد مات؛ إذن، ليس ذلك بصحيح؟"

وانتصبت، لاهثةً، وقد تشنّجت أساريرها، وسألت ملتهفةً:

– "ألا قل لي يا باتيوشكا، هل الله موجود حقًّا؟"

– "إن لم يكن موجودًا، فهل كنتِ تجدين، بعدُ، راهباتٍ وكهنةً؟ بل هل تظنّين أنّ الطهر ممكن الوجود، لو أنّ الله غير موجودٍ؟"

وقطّبت حاجبيها، وبدت تفكّر في عمقٍ، ثم أردفت:

– "أعتقد أنّك محقٌّ يا باتيوشكا! ولكن ما عليّ أن أفعل؟"

وكانت تعلّق عليه أبصارها ضارعةً، وأضافت:

– "سأفعل ما ستأمرني به".

وتمتم الأب "يوحنّا" في قرارة نفسه: "شكرًا لك يا أمّ الله". ثمّ أردف بصوتٍ مرتفعٍ:

– "تدبّري أمرك كي تبقي هنا؛ تمارَضي، ونحن سنُعنى بك، بجسمك ونفسك على السواء؛ إنّ عيد الفصح سيحلّ بعد ثمانية أيّامٍ. أتعلمين ما هو "الفصح"؟ فأجابت على مهلٍ:

– "المسيح قام"! لقد كانت جدّتي تقول: "المسيح قام" فنهزأ بها، أنا وأخي "فاينا" ونعدّها حمقاء.

– "إذن، يا كاتيا، سنعمّدك ليلة الفصح، وسيزول عنك، بفضل ماء العماد، كلّ تلك الحَمْأة التي أنت بها خَجلى؛ ولكن عليّ، قبل ذلك، أن ألقّنك، قليلاً، معرفة الله، والصلاة، فأنت، في الواقع، الحمقاء، لا جدّتك؛ وبعدئذٍ، سنرى..."

وخفضت كاتيا رأسها، وغطّت بيديها وجهها، فبادرها الأب يوحنّا سائلاً وقد عراه بعض قلقٍ:

– "ما الذي، بعدُ، يشغلكِ؟"

فصوّبت إليه من خلال أصابعها، نظرةً طويلةً، ثمّ سألت، في صوتٍ مختنقٍ:

– "أتظنّ، يا باتيوشكا، أنّ بوُسْعي أن أصبح يومًا مثلهنّ؟"

– "مثل مَن؟"

– "مثل الراهبات!"

وانفجر الكاهن بضحكةٍ مدوّيةٍ، ففتحت الباب الأخت "أنييس" التي كانت تقوم بالحراسة، وقد أخذت منها الدهشة، فقال لها الأب يوحنّا:

– "إنّني أقدّم لك، يا أختاه، طالبة رهبنةٍ مستجدّةً! ولكن ينبغي أوّلاً تعميدها!"

١٠

اعترافٌ عَلنيّ

اعْترافٌ عَلنيّ

– "هنالك من يريد التحدّث إليك، يا حضرة الكاهن!"

قالت "إيفروزين" ذلك، فيما كانت تمسح يديها المحمرّتين بطرف إزارها ذي الثنيّات العريضة؛ لقد كانت قصيرة القامة، بدينةً، ذات وجهٍ مستديرٍ يضفي عليه التعرّق لمعانًا. وكان كلّ كيانها ينمّ عن تمرّسٍ بالنظام والتنسيق، غير أنّ حَدْس الأنثى لديها كان يوحي إليها بأنّ تلك الزيارة التي جاءت تحمل إلى الكاهن نبأها، كانت تنطوي على دَواعٍ للقلق.

وسأل الأب ماتياس في دهشةٍ واضطرابٍ:

– "من ذا الذي يريد ذلك؟"

– "الله أعلم! يبدو أنّهما من قاطني المدينة".

ولم يكن ذلك التعريف، على لسان "إيفروزين" إطراءً للزائرين. أمّا هي فكانت ما برحت منتصبةً تسدّ مدخل الغرفة بقامتها المكتنِزة،

في حين أخذت ساعة الحائط تئنّ وتَصرّ قبل أن تبعث، في جهدٍ ظاهرٍ، سبع دقّاتٍ حادّةً، وتنهّدت متمتمةً:

– "إذا ما طالت زيارتهما، قُضي على فطائري!"

وكانت تُوجس في صمت الكاهن خشيةً، فسألته:

– "هل عليّ أن أُنذر المختار فيليب؟"

إلاّ أنّ هذا السؤال جعل الكاهن يستعيد جَأْشه، فأجاب:

– "ما عليك يا إيفروزين، دعيهما يدخلان".

فانزاحت لتفسح بالدخول لرجلين اتّسم وجهاهما الأَمردان بالإبهام؛ أمّا الأب ماتياس الذي انتصب وراء المنضدة القائمة بمثابة مكتب، فقد رشقهما بنظرةٍ حاول أن يجعلها ثابتةً، في حين كانت يده الممسكة بكتاب الصلاة ترتجف.

ولم ينتظر القادمان الغريبان دعوته لهما بالجلوس؛ بل استقرّ أكبرهما سنًّا، والذي كان يبدو أنّه هو قائد العمليّات، على مقعدٍ في موقعٍ إزاء الكاهن، ومدّ ساقيه، وأشعل لفافة تبغٍ وقال:

– "إذن، هل فكّرت في الأمر؟"

أمّا رفيقه، فامتطى منضدةً صغيرةً واطئةً مقابلةً للمكتب، وراح يصفّر، فيما دفقاتٌ من المطر كانت تتحطّم على زجاج النافذة؛ أمّا "إيفروزين" التي حبست نفسها في حجرتها، فقد أخذت تنشد، في صوتٍ أَخنّ، نشيدًا للعذراء؛ وخطر للأب ماتياس أنّها كانت تحاول

أن تشجّع نفسها، ولكنّه كان لا يزال ملتزمًا الصمت، فألحّ الزائر المجهول: "ألاّ تجيب؟" ثمّ حاول أن يتّخذ لهجةً أشدّ إقناعًا وأردف:

– "يا حضرة الأب، ألا ترى أن الصَفْقة على جانبٍ كبيرٍ من البساطة، وأنّ ما نقترحه هو في صالحك! ففي الواقع، هل نطلب منك أكثر من توقيعٍ صغيرٍ، في أسفل ورقةٍ، إلى جوار تواقيع عديدةٍ ذات شأن؟ وهل في انخراطك في صفوف "الجبهة الوطنيّة" ما يَشينُك؟ إنّنا جميعًا نناضل في سبيل السلام، كلٌّ منا حسب ما أُوتي من وسائل. أوَلم يقل! إنجيلكم: "على الناس ذوي النوايا الصالحة سلام؟" إنّ الأمر بسيطٌ جدًّا، ولكن، في المقابل، إذا أنت أصرَرْت على الرفض..."

وتوقّف لحظةً ليتذّوق تأثير الكلام الذي تفوّه به؛ أمّا الأب ماتياس فظلّ وجهه جامدًا لا ينمّ عن أيّ انفعالٍ، في حين ازداد ارتجاف يده الذي لم يكن يعيره بالاً، واستأنف الزائر الليليّ حديثه:

– "إذا أنت أصررت على الرفض، كانت الفضيحة. إنّني لأعلم أنّ سيرتك منذ خمسٍ وعشرين سنةً كانت مثاليّةً، لا يشوبها خلَلٌ، وأنّ رعاياك يحبّونك إلى حدّ العبادة. إلاّ أنّهم، لا ريب، يجهلون بعض خبايا شبابك الطائش، وما عليك سوى أن تتصوّر ما سيحدث لو أنّ أحدًا كلّف نفسه مهمة إطلاعهم على تلك الخفايا... إنّهم، لا شكّ، لن يتوانوا عن إنزالك من العرش الذي عليه رقّوك، وطَرْحك أرضًا، بعد أن تتكشّف لهم الحَمْأة التي كان فيها يتمرّغ هذا الكاهن

القدّيس، الزاهد، العفيف، حامي الأرامل والأيتام، والتي كان قد استحقّ، عنها، أشدّ العقوبات الكنسيّة قسوةً. إنّني على علمٍ بأنّ كنيستكم لا تجد بأسًا في طيّ سجلاّت بعض خطايا الجسد الضعيف، ولكنّ الشعب لا ينظر إلى تلك الخطايا نفس النظرة. إنّ الشعب حريصٌ على الاطّلاع على الحقيقة، وعندما يقف عليها يصدر حكمه، وهو لا يحبّ القبور المبيّضة، ولا الواجهات التي تخفي خلفها الأوحال...

وكان الأب ماتياس شاحبًا مُطْرقًا، لا يُحير جوابًا؛ حينئذ قرّر أصغر الزائرين سنًّا معاضدة زميله الذي كان قد أفرغ كلّ ما في جَعبته من حُججٍ، فانقطع عن تفتيش مكتبة الكاهن، وخاطبه وهو يؤكّد كلّ لفظةٍ يتفوّه بها:

– "ليتنا لا نَهدر وقتنا سُدًى؟ لقد وضعنا الصفقة بين يديك، ولم يبقَ سوى أن توقّع فتنقذ سمعتك، أو أن نعرّف رعيّتك بالمرأة التي غرّرْت بها، وبثمرة حبّكما الفاشلة؛ هل الأمر على قدرٍ كافٍ من الوضوح؟ إنّ الخِيار لك الآن".

عندئذٍ، كانت قطراتٌ كبيرةٌ من العرق تنعقد على جبين الكاهن، وانتقلت الرجفة من يديه حتّى شملت جسمه بأكمله، وفتح فاه، ولكن لم تجد أيّة لفظةٍ سبيلاً إلى المرور من حلقه المخنوق، في حين كانت عاصفةٌ من الأفكار المتضاربة تعتمل تحت جمجمته؛ وشأن حيوانٍ مطاردٍ، تقهقر بضع خطواتٍ، وأسند إلى الجدار ظهره،

وانبثقت من أعماق لاوعيه رغبةٌ جامحةٌ "الموت أفضل! ليتهم يقضون عليّ!". وهصَر قلبَه ألمٌ حادٌّ، أطبق عليه إطباق فكّي ملزمة، فقطع عليه أنفاسه؛ ثمّ فجأةً شاع في حناياه ما يشبه برقًا مباغتًا، فهتف في أعماقه: "يا ربّ، يا ربّ، ارحمني"، وأخذ مدّ الموج يرتدّ، فيتحطّم على صخورٍ مجهولةٍ غير متوقّعة، وأحسّ كأنّ موجةً من القعر رقيقةً حانيةً قد لفّته، ونهضت به من أعماق الهوّة إلى السطح، وإذا به يقول، في صوتٍ أجَشّ:

– "غدًا، بعد القداس الاحتفالي، سأبلغكما قراري".

وتبادل المجهولان نظرات التشاور، ثمّ قالا:

– "فليكن، سننتظر".

وعبثًا ذرَعت "إيفروزين" الممرّ جيئةً وذهابًا، إلى جوار المكتب حيث كانت قد أدخلت "أولئك الرجال"؛ وكانت كرامتها تَحظُر عليها لصق أذنها بقفل الباب واستراق السمع، ولكن فضولها المستبدّ كان يعلّلها بأن تتيح لها العناية الإلهيّة التقاط بعض شذَراتٍ من الحوار، ذات مغزى. غير أنّها باءت بالفشل، وكان عليها أن تشيّع الزائرين حتّى الباب الخارجيّ، من غير أن تمتلك للسرّ أيّ حجابٍ؛ وسمعتهما يقولان: "إلى الغد"، فأدركت أن الأمر لم ينتهِ بعد.

ولم تُفلح الفطائر الناضجة في شَحذ شهوة الكاهن للطعام؛ وقد بدا، أكثر من أيّ وقتٍ آخر، شارد الذهن، واقتصر على رشْف

كوبٍ من الشاي، ثمّ تذرّع بإرهاقٍ مفاجئٍ، كي ينسلّ فورًا ويختلي بنفسه؛ أمّا "إيفروزين" فما إن فرغت من رفع الأطباق عن المائدة حتّى تلفّعت بخمارٍ صوفيٍّ صفيقٍ، وانطلقت لتحيط وجهاء القرية علمًا بما جرى؛ وكانت تردّد على مسامعهم أنّ حاسّة الشمّ لديها نادرًا ما تخونها، وأنّها واثقةٌ من أنّ الزائرين إنّما كانا من رجال الشرطة، وقد جاءا للقبض على الكاهن. وفي غضون ساعةٍ واحدةٍ، كان الإنذار قد شمل جميع أبناء القرية البالغ عددهم ألفًا وخمس مئةٍ. إلاّ أنّ المختار قد هدّأ روعها بقوله: "اطمئنّي بالاً، فلن ينالوا منه".

وفي اليوم التالي، ضربت الرعيّة، الحريصة أبدًا على حضور قدّاس الأحد، رقمًا قياسيًّا في التسابق إلى بيت الله، الذي غصّ برجال القرية ونسائها وأطفالها جميعًا، ولم يتخلّف منهم سوى من أقعدهم المرض. وتكدّس آخر القادمين على أدراج المنصّة والمنبر، وتسلّق بعض الصبية على الأفاريز العالية، حيث كانوا يجهدون للحفاظ على موقفٍ متّزنٍ. أمّا الرجال فقد عراهم الجدّ والعزم؛ وانسلّت الأنظار خلسةً صوب غريبين، تسربلا زيًّا مميّزًا، وتمركزا تحت القنطرة، مقابل المنبر، وأخذت عجائز النسوة تنشدنَ للعذراء الأناشيد، فيما كان الكاهن يوالي سماع اعتراف المؤمنين المنتظمين في صفٍّ متمادٍ.

وأخيرًا بدأ القداس، وانطلق المصلّون ينشدون ملء صدورهم تراتيل الميلاد، وما كان حضور الغريبين إلاّ ليضاعف اندفاعهم

اضطرامًا، وكأنّهم كانوا يفكّرون معًا: "هكذا سنلقّنهم درسًا في ملاحقة كاهننا"، إذ لم يكن فيما بينهم مَن لم يَمحَض الأب ماتياس محبّةً عميقةً، بل كان منهم المستعدّون أن يقطّعوا ذواتهم إرْبًا، في سبيله.

وعقب تلاوة الإنجيل، خلع الكاهن حلّته، وارتقى المنبر، وانتشرت في الكنيسة جلبةٌ مألوفةٌ في مثل تلك المناسبة، حيث كان البعض يحاولون الجلوس، وآخرون يتنحنحون، أو يتمخّطون ويتحمحمون؛ ولحظت النساء أوّلاً، ثمّ لحظ الرجال، في شيءٍ من التأثّر، أنّ عيني كاهنهم العزيز كانتا مضرّجتين باحمرار السهاد، ومعبّرتين عن إرهاقٍ شديد؛ واضمحلّت الجلبة، شيئًا فشيئًا، إلى أن ساد صمتٌ كان يمكن معه سماع ذبابةٍ طائرة. وشمل الأب ماتياس رعيّته بنظره، ولمح الجاسوسين واقفين تحت القنطرة، ثمّ رسم إشارة صليبٍ عريضةً، وشرع في الحديث قائلاً:

– "يا أولادي الأحبّاء، لن أُسمعكم اليوم عظةً كالمألوف، فقد اتّخذت في هذه الليلة قرارًا خطيرًا؛ إنّني كاهنكم، أي أبوكم، وأحبّكم محبة الأب لأبنائه، كما أنّكم تقابلونني بالمثل، وتعاملونني معاملة الأبناء لأبيهم؛ وبالتالي فمن حقّكم أن أُحيطكم علمًا بحقيقتي كاملةً، ولا أُخفي عليكم أنّ اعترافي هذا سيكون شاقًّا، ولذلك أودّ أن نتلو معًا: "السلام عليك يا مريم".

وكان القلق والاضطراب قد أخذا بمجامع قلوب المؤمنين وخضّاهم مثلما تخضّ الريح حقلَ قمحٍ، فكان لصلاتهم الحارّة، بين

قباب الكنيسة العتيقة، ترديدٌ لم تعرف له قطّ مثيلاً؛ ثمّ ما لبث أن رانَ الصمت بكلّ ثقله؛ فاستأنف الأب ماتياس، وقد أمسك بيديه حافّة المنبر:

– "يا أبنائي، إنّ ما تحيطونني به من احترامٍ وتقديرٍ لجديرٌ بقدّيسٍ، وأنا لست قدّيسًا. لا بل إنّي لواثقٌ أنّكم لو رأيتموني كما أنا أرى نفسي الآن، لأصابكم الذعر، وانصرفتم عنّي نافرين. أنا لست قدّيسًا، بل إني خاطئٌ كبيرٌ، كبيرٌ جدًّا. وليست هذه عباراتٍ جوفاء أو فعل ندامةٍ؛ فقد عقدت العزم على أن أعترف أمامكم اعترافًا علنيًّا".

وشقّت الصمتَ عَبْرةٌ متصاعدةٌ، تلتها أُخرى، وهتف صوتٌ: "يا إلهي يسوع!" واندفعت قلوب الشعب صوب المنبر تودّ عناقه، في حين كانت الأبصار جميعها عالقةً بالكاهن الذي جثا على ركبتيه، وتابع:

– "يا أبنائي، في القرون الأولى من تاريخ الكنيسة، كان الاعتراف العلنيّ تقليدًا مألوفًا، غير أنّ هذه العادة اضمحلّت؛ ولكن، في مناسبات خاصّة، لا الله يَحظُره ولا الكنيسة؛ وأنا لديّ ما يحملني على أن أُكلِّمكم على نحو ما أفعل هذا الصباح، فاسمعوني...".

وبعد أن خفت صوته لحظات، عاد فاتّخذ لهجةً حازمةً، وارتفع بصره، شيئًا فشيئًا، شطر الصليب المثبّت إزاء المنبر، وقال:

– "إنّني أرغب، يا أبنائي، أن تروني في هذه اللحظة على نحو ما يراني الله، وعلى نحو ما يُريني نفسي. يومَ الدينونة سيتجلّى كلّ خَفيٍّ للعِيان، وها أنذا اليوم أستبق يوم الدينونة!

"إنّكم تبدون لي الإجلال الخليق بكاهنٍ، ولكنّني، يا أبنائي، فيما مضى، قد أخطأت في حقّ النعمة الإلهيّة وواجبات كهنوتي، وحنِثْت بالنذور التي أبرمتها وأنا شمّاسٌ رسائليٌّ. لقد خطئت، وكنت لآخرين سبب خطيئة، بل ربّمَا سببًا ليأسهم، وكانت ثمرةُ حِنْثي بنذوري طفلاً مسكينًا بريئًا؛ وإنّ ذلك الدوار الذي انتابني، وذلك الجنون، لم يدوما أكثر من بضعة أسابيع، غير أنّها فترةٌ كافيةٌ لكي أظلّ أذرف حتّى آخر أيّامي دموعًا من دمٍ. وكان الفضل لأسقفي في إنقاذي وإنقاذ كهنوتي، وهو الذي رعى المرأة وطفلها المسكينين. لقد كان لي بمثابة عناية إلهيّة حيّة، وبفضله أدركت رحمة الله. ولقد رغبت في أعقاب ذلك أن أسجن نفسي في دير مغلقٍ، إلا أنّ توقي إلى الرسالة العمليّة كان من الشدّة بحيث عَهِد إليّ الأسقف برعيّة هي رعيّتكم؛ وها إنّي منذ خمسٍ وعشرين سنةً أعيش بين ظَهرانَيكم، أتألّم وأبكي وأفرح معكم، وأسعى جهدي كي أُسدي لكم ما استطعت من خدمة، إلاّ أنّكم، حتّى اليوم، كنتم على جهلٍ بأمري، وكنت أخجل من أن أبوح لكم بالحقيقة. لا بل كانت كبريائي تحول دون إعراضي عن الإجلال والتقدير اللذين كنتم تحيطوني بهما. ولكن يبدو أنّ للعناية الإلهيّة غاياتٍ أُخرى. ألا تشاهدون هذين الرجلين الواقفين هناك عند القنطرة؟ لقد خيّراني بين

التوقيع على وثيقة لا تمتّ إلى رسالتي الكهنوتيّة بصلة، أو كشف النقاب عن سابق مَخازيّ، وأحرجاني. وإنّني أعترف أمامكم أنّني أوشكت، بادئ الأمر، أن أوقّع؛ غير أنّني، في ما بعد، قد تضرّعت إلى الله فرئف بي. وها أنذا، بكلّ حرّيّتي، أعترف أمامكم بخطيئتي وهَواني. لقد كنت أمامكم، طوال خمسةٍ وعشرين عامًا، نظير قبرٍ مكلّسٍ، وها أنتم الآن تعلمون الحقيقة. لقد طعنت في السنّ، ولا أظنّ أنّ سيادة الأسقف سيرفض استقالتي إن أنا وضعتها بين يديه، ولا سيّمَا وأنّي راغبٌ في أن أقضي ما تبقّى من أيّامي، أبكي خطاياي، وأكفّر عن زلاّتي، ولكن لا بدّ لي، من قبلُ، أن أطلب غفرانكم".

واضطرّ إلى التوقّف عن الكلام برهةً، إذ إنّ العبرات المتصاعدة في ضجيجٍ متزايدٍ قد خنقت صوته؛ فقد كانت الكنيسة بأجمعها تبكي: النساء يبكين جَهارًا من غير حرَجٍ، في حين يمسح الرجال عيونهم، خلسةً، بأَردانهم. أمّا الأطفال فكانوا يسايرون الرَكْب في حماسةٍ، وإن لم يدركوا كُنه الموضوع، وهم سعداء بالانضمام إلى قافلة الضجيج.

وفجأةً ارتفع صوتٌ صائحًا: "أوقفوا هؤلاء الأَنذال"، إذ كان المجهولان يحاولان الإفادة من التأثّر الشامل، لينسلاّ نحو الباب، في ظلّ العواميد؛ وانهالت عليهما الشتائم كالمطر: "أوغاد، جواسيس، عملاء، أنذال"، ولولا قدسيّة المكان لانقلب الأمر إلى شجارٍ؛ غير أنّ الأب ماتياس، بصوته الراعد، وضع لمحاولة الانتقام حدًّا، حين قال:

– "يا أبنائي، أليس لله في قلوبكم مكانٌ؟ أوَهل تعتقدون أنّني أدليت باعترافي بين أيديكم في سبيل حَملكم على انتقامٍ رخيصٍ؟ ألا ترون معي أنّ هذين السيّدين قد أحسنا إليّ؟ فلولا تدخّلهما لما كنت قد تحرّرت من عبئي، ولما قويت، قطّ، على مصارحتكم".

وهتف صوتٌ حادٌّ:

– "أيّها المحسن، لا تتخلَّ عنا!".

فردّد الجميع، في صوتٍ مرعدٍ: "نتوسّل إليك، أيها المحسن، ألاّ تخذلنا".

وتمخّط المختار محدثًا ضجيجًا صَخِبًا، ثمّ رفع صوب الكاهن هامته وقال:

– "لن ندعك أبدًا تمضي، بل سنمضي بصحبتك إلى سيادة الأسقف، ونطلعه على حقيقة الأمر. وإن خُيّلَ إليك أنّ محبَّتنا لك الآن قد تضاءلت فأنت على خطإٍ، إذ إنّنا نحبّك أكثر من قبلُ، وثقتنا بك ستكون أشدّ؛ إنّ الجسد لضعيفٌ، ولكنّ رحمة الله أقوى.

لم يكن المختار فيليب خطيبًا، وكانت تلك هي المرّة الأولى يجسر على الكلام في الكنيسة جهرًا، ولا عجب بالتالي، إن انساب العرق منه مدرارًا. غير أنّ نجاحه كان كاملاً لا غبار عليه. ومثلما يلتفّ القطيع حول راعيه، كذلك ازدحم الشعب حول الأب ماتياس الذي كان قد انحدر من المنبر ليتّجه نحو الهيكل، وتنافس الجميع على

لثم يده، وضمّه بين الذراعين، بل على تقبيل جبّته.

أمّا هو فكان مرهقًا، ولكن سعيدًا، وقد تخفّف من عبئه؛ وارتقى درجات الهيكل، رشيقًا، وقبل أن يرتدي من جديدٍ حلّته، التفت إلى المؤمنين، وصاح في صوتٍ مرتجفٍ:

– "والآن فلنتابع القدّاس، راكعين!".

١١

الزّاد الأخير

الزّاد الأخير

– "لقد أزفت الساعة، أيّها الأب فرنسوا. لقد ذهبوا منذ لحظاتٍ إلى الضاحية لحضور اجتماع".

كانت منتصبةً أمام الباب لاهثةً، وقد أفلتت من خِمارها الصوفيّ المثبت على ذقنها خُصلاتٌ شقراء، وانتشرت فوق معطفها الأسود فِلذات ثلجٍ متألّمَةً، وقد بدت نافذة الصبر، وأردفت:

– "هيّا أسرع، إذ لم يبقَ لها من الحياة كبيرُ مُتّسعٍ".

ووضع الكاهن كتاب صلاته وقال مبتسمًا:

– "رويدَك، يا آنسة "عاصفة" ها أنذا قادمٌ، ولكن اجلسي قليلاً ريثما أُعدّ للأمر عُدّتي".

– "لا! بل إنّي أوثر الوقوف، فأَحذيتي مبلّلةٌ، ثمّ... ثمّ..."

– "ثمّ ماذا؟ إن كنت تزعمين أنّك تقومين بالحراسة، فلا ريب أنّك ستوقعينني في مأزقٍ. قليلاً منَ الصبر والأناة، من فضلك".

ولكن، فيما كان يمازحها على هذا النحو، كان يجدّ في الفراغ سريعًا من مهمّته. وهكذا اتّخذ كلٌّ من كتاب الطقوس، والبطرشيل، وعدّة المسحة الأخيرة، على التوالي، مكانه في حقيبة الكاهن المهترئة.

– "والآن، ها إنّي ماضٍ إلى الكنيسة لإحضار الزاد الأخير. هيّا اتبعيني".

في الخارج كان الثلج يتساقط كثيفًا، وقد بدت المدينة فجأةً وكأنّها مضمّدةٌ بالقطن. أمّا المارّة القليلون فكانوا يسيرون ملتصقين بالجدران وقد طأطأوا رؤوسهم ورفعوا ياقات معاطفهم على أقفيتهم. وبلغت حركة المرور حدّها الأدنى، وغرق الناس والأشياء في السكون الذي يميّز تساقط الثلوج.

وشمّر الأب فرنسوا أطراف جبّته فيما كان يرتدي معطفه الرماديّ، وأخفى ياقته البيضاء المستعارة بلثامٍ، وأخيرًا أسهمت القبعة التي اعتمرها في تمويه زِيّه الكهنوتيّ. وسأل الفتاة:

– "هل سنستقلّ الترام؟"

– "إن مروره في مثل هذه الساعة يمسي نادرًا، ومن الأفضل أن نقطع الطريق سيرًا على الأقدام".

– " إذن فلنحثّ الخطى! وبوسعك الآن أن تحدّثيني عمّا جرى، بل من الأفضل أن تحادثيني". وكان يعني بعبارته الأخيرة أنّ كاهنًا في تلك البلاد، يحمل القربان المقدس في منطقةٍ محرّمةٍ، يؤثر أن يكون في

صحبة تمكّنه من تمويه المعالم، وأن يستمرّ يثرثر حتّى عتبة الباب حيث سيدخل الله دخولاً مفاجئًا.

– "مساء أمس كانت حالها قد ساءت، فقالت لي: "أتوسّل إليك، يا أنيت، اعملي المستحيل لكي لا يتنبّهوا لشيء". أمّا أندريه فقد سألني: "تُرى، هل هي ستبقى على قيد الحياة حتّى عودتنا؟" قلت: "بالتأكيد". فأردف: "حسنٌ إذًا، ولكن حذارِ: لا أريد لأيّ قلنسوة أن تلج بيتنا، وإلاّ...!" وهدّد بقبضته. وقد أسهمت "ڤاندا" في قلب مَيازين الأمور، فهي قد سئمت العناية بحماتها. وعندما جاءوا جميعًا لزيارتها قبل مغادرتهم، صوّرت لهم الوضع وكأنّه على خير وجه، غير أنّ الغيبوبة ما لبثت أن داهمت المرأة، وتكرّرت مرّات أربعًا في أثناء الليل، ولكنّني لم أجرؤ على استدعاء طبيبٍ مخافة أن ينذر السيّد أندريه، وإنّني لأخشى الآن أن نجدها وقد فارقت الحياة".

كانا يسلكان دربًا جانبيًّا حيث تركت أقدامهما على الثلج الحديث السقوط الآثار الأولى. وكان الأب فرنسوا يلتزم الصمت، بعد أن آنسَ بعض الاطمئنان.

أمّا بدء المأساة التي كانت تدنو من نهايتها، فيعود إلى حقبة مُغْرِقة في البعد. لقد كانت مادلين س... من رعايا أبرشيّته، وكان ابنها، الذي يحتلّ في الحزب مركزًا رفيعًا، قد اقترن بمجاهِدة يهوديّة، واشتهر الزوجان بإلحادهما العنيد.

وكان الكاهن هو الذي أوعز إلى مادلين بمساكنة ابنها، علّها

تستطيع إنقاذه، ولكنّها منذ ذلك اليوم كانت تعاني من العذاب قدرًا جَمًّا، ولا سيّمَا حين كان يتأكّد لها، كلّ يومٍ، عجزها التامّ عن التأثير في ابنها. وكان فؤادها يقطر حزنًا حيال أحفادها الذين كانوا يُقصَوْن بانتظامٍ عن "تأثيرها الوبيل" ويَغْشون مدارس إلحاديّةً، وكان قاطنو الحيّ من أعضاء الحزب، ينظرون إليها نظرتهم إلى مخلّفات عهدٍ بائدٍ محكومٍ عليه إلى الأبد.

وقد ظلّت تتردّد على الكنيسة طالما أتاحت لها صحّتها القدرة على ذلك. ولكن لّما أقعدها المرض حُظر عليها كلّ عونٍ دينيٍّ. وعندما تفاقم سوء حالها، فجأةً، منذ شهرٍ، توسّلت إلى ابنها ليأتيها بكاهنٍ، فكان الرفض القاطع جوابه. وربّما هو كان قمينًا بتلبية طلبها لولا خشيته رفاقه وامرأته.

لقد كانت العجوز المسكينة مصابةً بسرطانٍ منتشرٍ، وتقاسي آلامًا مبرّحةً تقتضي رعايةً مستمرّةً. وما لبثت "أنيت" التي استُخدمتْ كممرّضةٍ للعناية بها أن أفلحت في الظفر بثقتها، ولا سيّمَا وأنها كانت تعرف الأب فرنسوا، بحيث أيقنت العجوز أنّ العناية الإلهيّة هي التي كانت تدبّر الأمور.

وهكذا، في ذلك اليوم، الخامس والعشرين من كانون الثاني، في أعقاب سلسلةٍ من المصادفات، تمكّن كاهنٌ من اقتحام معقل الملحدين، وعندما ولج، والفتاة، البوّابة، كانا يبدوان وكأنّهما رفيقان يتكلّمان في لهجةٍ عاليةٍ، وقد علقت بشفاههما لُفافات التبغ، وقد

تفحّصهما سريعًا أحد الوُشاة، ولكن لم تساورْه في أمرهما ريبةٌ، فأذِن لهما بالدخول.

وكانت المُدْنِفة تنتظر، وقد علق نظرها بالباب يترصّد كلّ حركة، وقد أخذ ضربٌ من الضباب يَغْشى بصرها، وباتت أذناها تكادان لا تميّزان دقّات ساعة الحائط، وراح القرّ يسري في ساقيها اللتين أصبحتا شبيهتين بأعضاء غريبة عنها. لقد كانت في أثناء حصار وارسو قد عملت ممرّضةً وشاهدت أعدادًا من المحتضَرين، وبالتالي فقد تأكّد لها أنها قد أمست على عتبة الموت، وطفقت تردّد:

– "ربّ، اجعلهم يصلون في الوقت المناسب، إلهي يسوع، ارحمني!"

وفجأةً فُتح الباب وطرق سمعها صوتٌ أليفٌ بعث فيها الرعشة قائلاً:

– "سلامٌ على هذا المنزل!"

– "أهذا أنت، أبتِ فرنسوا؟ حمدًا لك يا الله".

وقد ظلّت "أنيت"، طويلاً، تقوم بالحراسة وتترصّد كلّ نأْمة وحركة، إلى أن دعاها الأب فرنسوا بعد ساعة ونصفٍ وأَوصد في هدوءٍ باب الغرفة التي جاءها مرافقًا الربّ، وقال:

– "تعالي يا بنيّتي. سنصلّي إلى جِوارها. لقد تمّ كلّ شيءٍ، وهي الآن ترقد في سلامٍ".

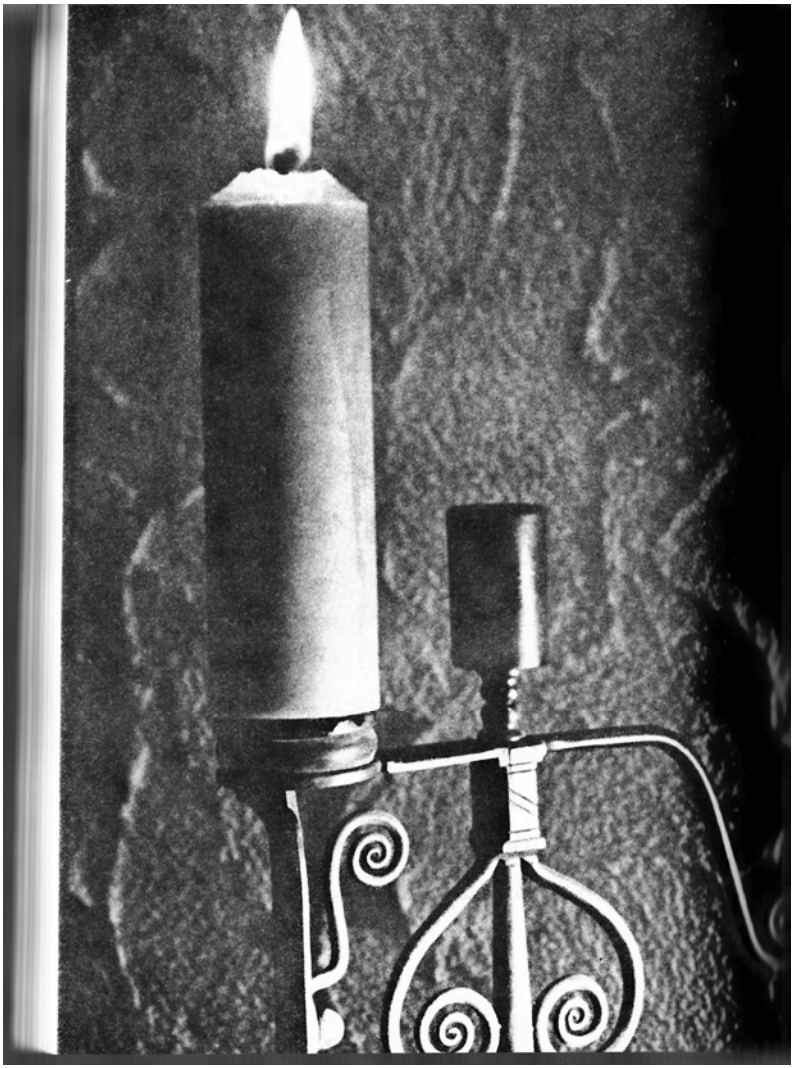

وكانت ملامح الميتة تنمّ عن ارتياحٍ عجيبٍ، وقد افترّ ثغرها عن ابتسامةٍ. حينئذٍ قال الكاهن:

– "عليّ الآن أن أمضي؛ أمّا أنتِ فأَنبئي الطبيب".

– "ولكن، يا أبتِ، سيدفنونها كما يدفنون الكلاب، في أرض غير مقدّسةٍ. هل هذا من الإنصاف في شيءٍ؟"

– "سأنظر في الأمر، ولكن عليّ الآن أن أنصرف فبقائي يحرجكِ. تشجّعي يا أنيت".

لقد كان يلهث تعبًا، غير أنّه كان يبدو سعيدًا

وقد رأى جميع الرفاق الذين يقطنون العاصمة أنّ من واجبهم المشاركة في المأتم. ولا ريب أنّ المناسبة كانت لهم مبعث سأمٍ، ولكن لا بدّ من بعض تضحيةٍ إكرامًا لرفيقٍ. وقد راحوا يجرّون أقدامهم، وقد قطّبوا الحواجب، ولبسوا مظاهر الجدّ، وشخصت أبصارهم في نظراتٍ بلهاء. إلا أنهم كانوا مطمئنّين إلى أنّ المهمّة المقيتة لن تطول أكثر من ساعةٍ.

وفي المقبرة كانت أرجلهم تنغرس عميقًا في طيّات الثلج الطريّة وقد عكّرت نذائر ذوبان الجليد مزاج الرفاق ذوي الكروش، والمصابين بالأمراض العصبيّة. لا بل إنّ التشاؤم قد امتدّ إلى الشباب منهم، ولا غروَ في ذلك، فاللقاء مع الموت ليس مسليًّا لمن لا يستشفّ من وراء الموت شيئًا.

وكانت العربة الجنائزيّة قد توقّفت عند مدخل المقبرة، وحُمل النعش على الأكفّ حتّى حفرةٍ حديثة، ولم يبقَ من موادّ البرنامج سوى خطبة المناسبة. وربّت واحدٌ من الحضور يرتدي قبّعةً من الفرو على كتف جارٍ له وأسرّ قائلاً: "عليك بالعجلة"، فأجابه: "لا عليك، سأَفرَغ من الخطبة في لمحة بصرٍ!"

ولكن، في تلك اللحظة بالذات، حدث ما لم يكن متوقّعًا، إذ انقضّ على الموكب، في خطواتٍ واسعةٍ، شبحٌ أسود متمادي الطول. وارتعد اندريه متسائلاً: "ماذا يريد بنا هذا الغراب؟"

وزأَر الكاهن، في صوتٍ كالرعد، أذهل وجمّد دَفّاني الموتى الذين كانوا قد شرعوا يدلّون النعش إلى الحفرة:

– "توقّفوا! لا يسوغ لكم دفنها شأن الكلاب!"

وفي لمحةٍ كان قد ارتقى، كومة التراب المتعالية، وقبل أن يفيق الجمهور من صدمة الذهول أردف:

– "لم تمت هذه المرأة كما يموت الملحدون، فقد زوّدها بالزّاد الأخير. متى؟ كيف؟ إنّ الأمر أمري وأمر الله تعالى. وبالتالي فمن حقّي أن أُواكبها في رحلتها الأخيرة على هذه الدنيا، وأن أهتبل الفرصة لأذكّركم ببعض الحقائق الخلاصيّة.

"ليس كلّ من يريد يستطيع الإفلات من الله! فأنت (والتفت إلى أندريه الذي كان يرمقه بنظرةٍ حانقة) قد عملت المستحيل لتوصد دون الله بيتك، ومع ذلك فقد دخله الله. إنّكم جميعًا، أيًّا كنتم،

تغلقون على نفوسكم الأبواب، ولكنّ الله يهزأ بمتاريسكم! إنّ الله أقوى من مَكركم، وفي نهاية المطاف ستكونون أنتم لله خادمين.

"أترون هذا النعش؟ لولاكم لما كانت المرأة التي ترقد فيه اليوم على ما هي عليه التصاقًا بالله. فبرفضكم تزويدها بالزاد الأخير الروحيّ قد شحذتم رغبتها فيه وجوعها إليه. والله، يا أصدقائي، يجب أن يكون مرغوبًا فيه! إنّ الله في پولونيا اليوم، أكثر من أيّ وقتٍ فات، يلهمُ نفوسًا تتوق إليه وتَنشُده، وذلك بفضل وجودكم أنتم! فقبلكم كان المسيحيّون مسيحيّين بحكم التقاليد والعادات المألوفة، مسيحيّين معلّبين كما تعلّب الكونسروة، وكان الكهنة غارقين في النعاس. وجئتم أنتم فأيقظتمونا بضربات مطارقكم، جئتم فأعدتم إلى أذهاننا معنى إيماننا؛ منذ تولّيكم الحكم ما فتئتم تنتجون القدّيسين، ولذلك قلت منذ لحظاتٍ إنّكم لله خادمون!

"وأنتم أنفسكم هل تعتقدون أنّكم في مَنأًى عن حبّه وعن رحمته؟ إنّ حفرةً مثل هذه تنتظركم عاجلاً أو آجلاً، وليس من دواعي الاطمئنان أن يواجهها المرء وحيدًا. والمحتضر إنسانٌ وحيدٌ لا يستطيع له الحزب شيئًا، بل إنّ الحزب، في مثل ذلك الوقت، يؤثر أن يكون بعيدًا، فهو يضيق بالمحتضَرين ذَرعًا. فالموت، يا أصدقائي، ليس أمرًا جماعيًّا، وليس الانحدار إلى هوّة الموت جماعيًّا، ولا الموت يحدث بالجملة! وإزاء الموت لا أحد يعبأ بالتقدّم التقنيّ، وبالفردوس الأرضيّ الذي يوعد به الأحياء، إذ إنّ كلّ إنسان يجزع وحده من

الموت ومن الفناء، وكلّ إنسانٍ وحده يتشبّث، يائسًا، بالحياة. وليس العضو في الحزب بأفضل من سواه حِيالَ الموت، فقد رأيت حـــزبيّين يموتون، أوَتدرون ما كانوا عليه في تلك الساعة؟"

وكانت الريح تقصف كالسوط جبّته وتتطاير بشعره، وكـــان بذراعيه المرتفعتين يبدو كنبيٍّ، ولم يخطر لأحدٍ من الحضور اســـتغلال لحظة الصمت التي أتاحت له التقاط أنفاسه، فتابع:

– "إنّ الله غالبًا ما ينتهز مناسبة الساعة الأخيرة ليقرع بـــابكم ويقضي على آخر عوامل المقاومة لديكم. إنّه لا يدخل، أبدًا، عَنْوةً! غير أنّ النزاع، يا إخوتي، النزاع المرير يذهب بغـــشاوات العيـــون فتتجلّى قيمة الأصدقاء ويتّضح مَن هم الأصدقاء الحقيقيّون، حتّى في ما بين أوثق الناس صلة قُربى. فأنتَ، على سبيل المثال، يا أندريـــه – وانتفض أندريه وقد فوجئ بخطابٍ يرمى به مباشرةً – ماذا عملـــت لتخفّف من وطأة نزاع هذه المرأة التي هي أُمّك؟ فإن كنت تعتقد أنّ جميع أحاديث الدين ليست سوى ترّهاتٍ وضرْب هُـــراءٍ، فلمـــاذا تملّكك الخوف من دخول كاهنٍ تحت سقفك؟ وإذا كان قد حكـــم علينا بالاضمحلال، فلماذا لا تعاملوننا شأن المتحجّـــرات؟ أمّـــا إذا كنتم تعتبروننا على جانبٍ كبيرٍ من الخطر، فربّما لأنّنـــا في حقيقـــة الأمر ننتصر حيث تلقون سلاحكم، عند حافّة الموت.

"لم يوجد المرء كي يموت، بل كي يحيا! ولذا فالإنـــسان، كـــلّ إنسانٍ، حتّى إذا كان في الحزب عضوًا، يمقت الموت. أمّا الله فيقدّم

لنا الحياة، حياته الخاصة. ألم تشاهدوا محيّا هذه المرأة وقد غمره الاطمئنان والإشراق؟ ذلك أنّها لم تكن ماضيةً للتلاشي في حفرة سوداء، بل للارتماء بين ذراعي الله!

"والآن دعوني أتمّ مهمّتي..."

ولم يجسر أحدٌ على ممانعته أو على الحُؤول بينه وبين ما عزم عليه، بل كانوا أشبه بدُمًى زريّةٍ يتورّطون في الثلج الذائب، في حين كان الأب فرنسوا يؤدّي في تؤدةٍ طقوس الجنّاز. وحين أخذ يرشّ الماء رسم دافنو الموتى إشارة الصليب، وشرع أحد الرفاق في رسم إشارةٍ مماثلةٍ، إلاّ أنّه ما لبث أن كبح عنها ذاته... ثمّ رمى الأب فرنسوا النعش بأوّل حفنة ترابٍ والتفت شطر الموكب الجنائزيّ وقال:

– "إنّه لموعدٌ مع أخينا الموت الذي لا يوحي بأيّة خشيةٍ لمن يستطيع مواجهته، فهو ليس سوى فخٍّ لرحمة الله". ثمّ انطلق في خطواتٍ واسعةٍ صوب قطاع المتمرّدين.

وإذ كان لا مَندوحةَ من تقصّي حدَثٍ على هذا الجانب من الخطورة، فقد أُجري حوله تحقيقٌ بحسب الأصول، ولكن عندما اكتشفت بعض علاقات تواطُؤٍ ذات مَساسٍ بمقاماتٍ رفيعةٍ، أُسدل حول الأمر ستارٌ.

أمّا الأب فرنسوا فقد تضاعف إقبال الزائرين الليليّين على طرق بابه، إذ عزم بعض أفراد جمهوره المرتجل على مقارعته بالحُجج

وجهًا لوجه. ولكن من المؤسف أنّ أيًّا من تلك المقـــابلات لم يكـــن عليها شاهدٌ، وأنّ على أفواه الكهنة أختامًا محكمةً.

وأما "أنيت" فقد ظلّوا يحرجونها حتّى لم تجد من الإقرار بدًّا. إلاّ أنّها تذرّعت بالدستور غير المكتوب الذي يقضي على الممرّضـــات تخفيف وطأة نزاع مرضاهم، وأضافت في شيءٍ من القِحة:

– "إذا كان الأمر كلّه هُراءً، فلماذا تُولونه اهتمامكم؟ أمّا أنـــا فقد أدّيت واجبي وساعدتها على أن تموت مطمئنّةً".

وحكم عليها بالإقامة الجبريّة مدّة شهرٍ عادت بعدها لاســـتئناف مهامّها بمسعًى من الأب فرنسوا. وكانت تعرف الكثير ممّا لا تبوح به.

وانتهى الأمر على خير وجهٍ.

١٢

"تعَالَ، أيّها الطِّفل يسوع!"

"تعَالَ، أيها الطِّفل يسوع!"

استهلّ الأب "نوبير" حديثه قائلاً: "ليس ما هو حقيقيٌّ دائمًا سهل التصديق؛ في مطلع عهدي بالإقامة في فرنسا، كنت أروي، في براءة، بعض الأحداث التي عشتُها، فتثير روايتها بسمات السخرية لدى المستمعين؛ ومنذئذٍ قد آثَرت التزام الصمت حول مثل هذه الأحداث، ولا سيّما أنّه يتعذّر على المرء أن يشارك الآخرين، أحيانًا، بعض التجارب الفريدة التي عاشها؛ فكيف السبيل مثلاً لكي تجعل مَن لم يُعانوا في جسدهم وروحهم الصراع، من غير هَوادةٍ، الناشب بين الله ومنكريه، يدركون كُنه هذا الصراع الذي يتمّ التعبير عنه بالأفعال لا بالكلمات؟ ففي بلادنا يلبس البغض جسمًا ماديًّا، والحبّ يتجسّد، وعلى هجمات الجحيم يردّ الله بخوارق تعيد إلى الأذهان واقع كنيسة الرسل، وهذا بالتأكيد ما يعجز عن إدراكه غربكم المولّه بالعقلانيّة؛ ولا يختلف، في هذا المجال، بعض كاثوليكيّيكم، عن شيوعيّينا، فالمعجزة، أيّة معجزةٍ، تستفزّ استنكارهم".

كنتُ قد قابلتُ الأب "نوبير" في مركزٍ للاّجئين الهنغاريّين، وقد وافق على أن يحدّد لي موعد لقاءٍ، بناءً على طلبي: لقد كان أحد شهود الثورة، وواحدًا من آخر الناجين، وكان لا يزال يحمل على وجهه أخاديد، حفرها الحرمان وليالي السُهاد، وآثارًا باقيةً للتجربة المريرة؛ وكنتُ راغبةً في أن أحيط علمًا بالمزيد من خفايا تلك المأساة، ولكنّه بعد انقضاء ساعةٍ على لقائنا، كان حديثنا لا يفتَأ يتردّى في عموميّاتٍ قد طالما اجترّتها الصحافة، إذ كان حضرته ما برح مشنّج القسمَات وملتزمًا جانب الحذر، وكنت أتساءل عن الذريعة لاقتحام ستار الدخان الصفيق الذي كان يلفّه؛ وسألته، في عنفٍ:

– "كلّ هذا نعرفه؛ كلّمني بالأحرى عن مقاومة الشعب الهنغاريّ الروحيّة، وعمّا بات صامدًا وسيظلّ صامدًا رغم الهزيمة".

حينئذٍ انفجر، فجأةً، هو أيضًا وقال:

– "وما جَدْوى إلحافك؟ إنّ ما هو حقيقيٌّ، ليس دائمًا سهل التصديق".

وفي لمحةٍ، قدّرت مدى الصدمة النفسيّة التي لا بدّ قد خلّفَها فيه وفي الكثيرين من مُواطنيه الاتّصالُ ببعض مجتمعاتنا، التي رغم قيامها بأعمال البرّ والإحسان، إلاّ أنّها ما برحت تعيش الدّين بحكم العادات والتقاليد؛ وأدركتُ أيّة مشقّةٍ يلقى هؤلاء القادمون من صفوف الصدام الأماميّة في إيجاد لغةٍ مشتركةٍ مع هذه "المؤخّرة" التي نؤلفها نحن، شئنا أم أبينا. غير أنّ سؤالي الفضوليّ بدا وكأنّه قد أفلح في تحطيم حاجزٍ، إذ

تغيّرت، على حين غرّة، لهجة الأب "نوبير"، وقد آنسَ بعض اطمئنانٍ، فانساب منه، في مثل سيلٍ جارفٍ، قد طال حبسه، دَفقٌ من الذكريات المؤرِّقة، وصوَر أحداثٍ تتحدّى جميع مبادئ العقل السليم التي نَدين بها، ومآتٍ بطوليّةٌ تعيد إلى الأذهان ذكرى فعال الشهداء، وعجائب فائقةٌ تمتزج بتجارب الحياة اليوميّة، واختلاط الإنسانيّ بالإلهيّ اختلاطًا وثيق العرى. ولم يبقَ عليّ سوى أن أصمت وأنصت.

قال الأب "نوبير":

– "لا ريب أنّ مآثر الكبار، هي، في المقام الأوّل، أكثر ما يثير إعجابنا؛ أمّا بطولات الأطفال، الذين تشدّ أَزْرهم نعمة المعموديّة، فيكاد لا يلقي إليها أحدٌ بالاً، ولا ينهض شاهدًا على المقاومة الروحيّة التي يمارسونها، سوى الملائكة؛ فالأطفال عاجزون عن تحويل هذه المقاومة إلى أدبٍ مؤثّرٍ، وغير مدركين لفَحوى بعض الكلمات الفريدة، وبعض البوادر الخارقة، التي تبدو لهم طبيعيّةً تلقائيّةً، فيظلّون قابعين في ظلّ صغرهم وتواضعهم، ما لم يفاجأوا، أو ما لم يأمر الله بحَدَثٍ جلَلٍ مثيرٍ! فعلى سبيل المثال، قد جرى حَدَثٌ على جانبٍ كبيرٍ من الإعجاز، في مدرسة (س...) التي كنت فيما مضى مرشدًا روحيًّا فيها، وطُردتُ منها، في أعقاب الاحتلال السوفييتي؛ ولن أُقدم أبدًا على رواية هذا الحَدَث أمام جمهورٍ، إذ قد يعتبرني "مثقّفوكم"، لدى سماعه، مأفونًا.

وتردَّد لحظةً، ثم أردف:

– "ربّما لن تصدّقيني، مثلما أنا نفسي، كنت غير مستعدٍّ

لتصديق الأمر، لعشرين سنةً خلت؛ ولكنّ للأحداث، أحيانًا، فعل ضربات المطارق، لا قِبَل لنا بتجاهلها، مهما حاولنا العبث بالألفاظ! أمّا الحدَث الذي كلامنا فيه فلا تفسير له إلا بواحدٍ من احتمالين: إمّا أن يكون صفٌّ بمجموع تلاميذه الاثنين والثلاثين مع معلّمتهم، قد وقع ضحيّة هذَيان جماعيٍّ، أو أن نقرّ بأنّ الأمر قد حدثَ فعلاً؟ وفي بلادنا لا يخالج أحدًا ريبٌ في صحّته، غير أنّني لن أنسى أبدًا بسمات الاستهزاء، ونظرات السخرية التي قابلت روايتي له، في أماكن شتّى من أوروبا، خارج الستار الحديديِّ!"

وكدت أضيق ذَرْعًا، فاعترضتُ قائلةً:

– "إنّك ما تفتَأ تثير فضولي أكثر فأكثر؛ فبربّك، يا أبتِ، كفاك عبثًا بصبري، واسرُد تفاصيل ذلك الحَدَث..."

– "إذًا، ها هوذا، في بساطته العارية. إنّما اسمحي لي بكتم الأسماء وتمويه بعض المعالم، فالأمر يتعلّق بهنغاريا، حيث ثمن الحقيقة هو الدم. لقد وقع الحَدَث في قريةٍ تضمّ نحوًا من ألفٍ وخمس مئة نسمة، حيث كانت معلِّمة المدرسة الابتدائيّة الحكوميّة ملحدةً مناضلةً، وكلّ تعليمها مُمَحْوَرًا على مُسلّمةٍ رئيسيّةٍ هي إنكار الله؛ ولم تكن لتُغفِل أيّة فرصةٍ تستطيع فيها النَيل من ديانتنا والاستهزاء بها أو التآمر عليها؛ أمّا برنامجها الدراسيّ، فكان شديد البساطة: إنشاء أطفال يجهلون الله.

"وكان الأطفال، لشدّة خوفهم، لا يقوَون على المقاومة، رغم ما

كانوا يلحَظون، لدى آبائهم، وفي منازلهم، من مظاهر الإيمان الراسخ، والتعلّق الوثيق بمبادئ الإيمان والممارسات الدينيّة. أمّا أنا، فبصفتي كاهنًا للرعيّة، كنت أدعو أولئك الأطفال إلى الاجتماع في الكنيسة لألقي عليهم بعض الدروس الدينيّة. ففي هنغاريا، التي شأنها في ذلك شأن جميع البلدان القابعة خلف الستار الحديديّ، قد فُصل التعليم إلى قسمَيْن متميّزين تمامًا، ممّا أسهم في رمي أولئك الصغار في بُحْرانٍ من الضَياع والحيرة؛ ولكن، في مثل تلك الأحوال، غالبًا ما تتدخّل النعمة الإلهيّة لتوفّر، في بعض الحالات، عونًا فريدًا.

"وعلى العموم، لم يكن الصغار ليتأثّروا بالترّهات التي لا تني المعلّمة – الآنسة جرترود – تصبّها على مسامعهم من غير لأْيٍ ولا هوادة؛ وكنتُ حريصًا على تأهيلهم للمقاومة، بحثّهم على ممارسة الأسرار الإلهيّة باستمرارٍ؛ ولكن، من غريب المفارقات أن الآنسة "جرترود" كانت مزوّدةً بحاسّة شمٍّ منقطعة النظير، تتيح لها اكتشاف الأطفال الذين تناولوا القربان المقدّس، فتلاحقهم بأعنف بغضها، وتنكبّ عليهم تنكيلاً؛ ومن البديهيّ أنّها كانت تستطيع الاستعانة ببعض المخبرين لاكتشاف من يتناول القربان من الأطفال، غير أنّ عامل الوقت يجعل هذا الاحتمال هزيلاً؛ فبفضل القوانين الكنسيّة الحديثة المتعلّقة بالصوم الإفخارستيّ كان بوسع الأطفال تناول شرابٍ ساخنٍ قبل قدومهم إلى الكنيسة، الواقعة على طريق المدرسة؛ وكان بعضهم يتناول القربان، وبعضهم لا يفعل، ولكن الآنسة "جرترود"

كانت تميّز من منهم تناوله، لأوّل وَهْلةٍ، ومنذ الـــدرس الأوّل؛ ولم يكن من اليسير وجود من يدلّها عليهم خلال تلك الفترة القصيرة، فضلاً عن أنّنا لم نأخذ، قطّ، مثل هذا الاحتمال في تقديرنا، فالرعيّـــة كانت متماسكةً، والأطفال متراصّين كتلةً واحدةً.

"وفي الشُعبة الأولى من الصفّ الرابع، كانت فتاةٌ في العاشـــرة من عمرها، تدعى "أنجيل"، خارقة الذكاء، موفورة المواهب، ومتفوّقةً أبدًا على جميع زميلاتها، ومع ذلك لم تكن تواجه مـــن قِبلـــهنّ أيّ حسد، إذ كانت طيّبة القلب، ودَؤوبةً على إسداء كلّ خدمةٍ ممكنةٍ لدى كلّ فرصةٍ سانحةٍ.

"وذات يومٍ جاءت تستأذنني بالتناول يوميًّا، فـــسألتها: "هـــل تعلمين إلى أيّ خطرٍ تتعرّضينَ؟ "فضحكت ضحكة طفلٍ يدبّر خُدْعةً وردّت: "يا أبتِ إنّها لن تستطيع أن تمسك عليّ خطأً، أســـتطيع أن أؤكّد لك ذلك. لا بل إنّي سأزداد اجتهادًا؛ فأتوسّل إليك ألاّ تـــردّ طلبي، إذ إنّني يوم أتناول القربان، أونس من نفسي مِنْعةً أوفر؛ وأنتَ توعز إليّ أن أكون أبدًا القدوة الحسنة، وإنّني، في هذا السبيل، أفتقر إلى المزيد من المِنعة والقوّة".

"وقد وافقتُ على تحقيق رغبتها، وإن كنت ما زلت أُوجس من ذلك بعض القلق.

"ومنذ تلك اللحظة، باتت الشُعبة الأولى مـــن الـــصفّ الرابـــع جحيمًا؛ لقد كانت "أنجيل" تحسن حفظ دروسها، وتتلوها على خـــير

وجه، ومع ذلك أمست المعلّمة تصبّ عليها جام مقتها، ولا توفّر سانحةً لتكيل لها الإهانة؛ وكانت الفتاة صامدةً، إلاّ أن شُحوبًا شديدًا قد أخذ يَعْروها، وسألتها يومًا: "أما كفاك ما تقاسين من قسوة؟" فأجابت: "كلاّ يا أبتاه! فقد عانى يسوع ما يفوق ذلك كثيرًا، عندما كانوا عليه يبصقون، وأنا لم أَهوِ بعد إلى مثل هذا الدرَك من الهَوان"، وقد أخذني العَجَب حيالَ هذه الشجاعة الواعية؛ ولا بدّ لي من الإيضاح بأنّ "أنجيل" لم تأتِ يومًا شاكيةً من المَذلّة التي كانت تلقاها، بل زميلاتها في الصفّ هنّ اللواتي كنّ يسردنَ لي، كلّ يومٍ، باكياتٍ، ما كانت تشنّه عليها الآنسة "جرترود" من هجماتٍ؛ وحيث لم يكن لها على دروسها مأخذٌ، فقد دأبت، في خبث، على تدمير الإيمان في نفس الطفلة.

"لقد كانت حربًا غيرَ متكافئة، وتجربةً قاسيةً، فقد كانت الآنسة "جرترود" تتغاضى عن البرنامج المدرسيّ، لتصبّ أمام تلاميذها، كلّ ما حوت جَعبتها من حجج الإلحاد الدامغة التي يحذَق سردَها منكرو الله، والتي لم تكن "أنجيل" لتجد حيالَها جوابًا، فتظلّ واقفةً، صامتةً، مطرقةً، تكتم عبراتها؛ لقد كان إيمانها صامدًا أبدًا لا يتزحزح، ولكنّها لم تكن تستطيع إلى الدفاع عنه سبيلاً.

"ومنذ شهر تشرين الثاني انقلبت الدروس في الشعبة الأولى من الصفّ الرابع ضربًا من المبارزة بين المعلّمة وتلك الفتاة ذات العشر سنين. وكان يبدو أنّ المعلّمة هي أبدًا المجلّية، وصاحبة الكلمة الأخيرة؛ ومع ذلك، لم تبرح ماضيةً في عنفها، فقد كان سكوت "أنجيل" يثير

حَنقها، إلى أن استبدّ الجزع بزميلاتها، فجئنني مستغيثات، ولكن أيّ تدخلٍ من قِبَلي كان من شأنه تفاقم الوضع سوءاً. وبفضل الله كان صمود "أنجيل" راسخًا، وقد اقتصرت مهمّتنا على الصلاة، الصلاة بكلّ ما أوتينا من قوّةٍ وإيمانٍ.

"وشاع الأمر في المنطقة كلّها والضواحي، إلاّ أنّ أحدًا لم يلمني لأنّني أذنت "لأنجيل" بالمناولة اليوميّة، ولم يخفَ على أحدٍ أنّ المعلّمة كانت ترمي، من خلال تلك الفتاة الصغيرة الهزيلة، إلى النيل ممّا يخصّهم جميعًا، من ثروة إيمانهم المشتركة؛ حتّى إنّ والدَي الفتاة نفسيهما قد راحا يشجّعانها ويشدّان من أَزْرها، إلى أن باتت، بين ليلةٍ وضحاها، نجمة المنطقة جمعاء، وأمست شجاعتها موضع إعجاب الجميع، ما عداها هي، إذ قد وُقر في وجدانها وأخزاها عجزها في الدفاع، وفي الاهتداء إلى حججٍ تبرّر بها الإيمان الذي به قد تشبّثت.

"وبضعة أيّامٍ قبيل عيد الميلاد، وعلى التحديد في السابع عشر من كانون الأوّل، ابتكرت الآنسة "جرترود" خُدعةً ماكرةً، خُيّل إليها أنّها بفضلها ستتمكّن من القضاء، إلى الأبد، على الخرافات المتوارثة من عهود الأجداد، والتي كانت، في نظرها، تَعيث في المدرسة فسادًا، ولا بدّ من نقل مشهد الحَدَث الذي جرى، بكلّ حَذافيره، فهو بذلك خَليقٌ:

"لقد كانت "أنجيل" بالطبع، في موقف الاتّهام، وسألتها المعلّمة في رقّةٍ مصطنَعةٍ:

– "أجيبيني يا بنيّتي، عندما يدعوك أهلك ماذا تفعلين؟"

وأجابت الطفلة بصوتٍ خجِلٍ: "إنّني آتي".

– "ممتازٌ؟ إنّك تسمعين نداءهم، فتحضرين حالاً شأن أيّة ابنةٍ مهذّبةٍ؛ وماذا يحدث عندما يدعو أهلك منظِّف المداخن؟"

– "إنّه يأتي".

وكان قلب الطفلة يرقص هلَعًا، وهي تردّ على أسئلة معلّمتها، حيث كانت تستشفّ فخًّا من غير أن تميّزه. فيما كانت الآنسة "جرترود" تتابع استجوابها، وعلى حدّ ما وصفتها لي في ما بعد إحدى الفتيات الشاهدات "كانت عيناها تتألّقان مثل عينَي هرٍّ يلهو بفأرةٍ، وقد ارتسم عليها المكر والخبث" واستأنفت:

– "حسنٌ جدًّا، يا بنيّتي، إنّ منظّف المداخن يحضر لأنّه موجودٌ". وبعد لحظة صمتٍ أردفت.

– "وأنتِ أيضًا تأتين لأنّك موجودةٌ؛ ولكن دعنا نفرض أنّ أهلك دعوا جدّتك المتوفّاة، فهل هي ستحضر؟"

– "كلاّ، لا أظنّ ذلك".

– "طيّب؛ وإذا ما نادوا أحد أبطال الأساطير التي تحبّينها مثل "صاحب اللحية الزرقاء" أو "الطرطور الأحمر" أو "جلد الحمار" فماذا سيحدث يا ترى؟"

– "لن يأتي أحدٌ؛ فإنّما تلك أساطير".

ورفعت "أنجيل" لحظةً عينيها الصافيتين صوب المعلّمة، وما لبثت أن خفضتهما، وقد اعترفت في ما بعد قائلةً: "كانت عيناها توجعاني"؛ ثمّ استؤنف الحوار، وهتفت المعلّمة منتصرةً:

– "ممتازٌ، ممتاز! يبدو أنّ ذكاءك اليوم منفتحٌ تمامًا؛ وأنتم يا أبنائي، ترون بوضوح أنّ الأحياء الموجودين فعلاً يلبّون النداء؛ وعلى النقيض من ذلك، أولئك الذين لا يجيبون على نداءٍ، فهم لا يحيون، لم يعودوا بعد على قيد الوجود؛ أليس ذلك جليًّا؟"

فأجاب الصفّ، بوتيرةٍ واحدة: "نعم". وتابعت المعلّمة:

– "إذًا، فلنقُم فورًا بتجربةٍ صغيرةٍ".

والتفتت صوب "أنجيل" وأمرتها بالخروج؛ وامتثلت الطفلة بعد لحظة تردّد، وأُغلق الباب ببطءٍ على شبحها الهزيل.

– "والآن نادُوها، يا أولادي".

وانطلقت ثلاثون حنجرةً تصيح بعنفٍ "أنجيل". وقد خُيّل إليهم أنّ الأمر عبث أطفالٍ؛ ودخلت "أنجيل" وهي أشدّ ذهولاً، في حين كانت المعلّمة تخطو خطواتٍ جديدةً في مؤامرتها متمتّعةً بنشوة فوزها، ثمّ أضافت:

– "نحن، إذنْ، متّفقون: فعندما تنادون شخصًا له وجودٌ يأتي، وعندما تنادون مَن لا وجودَ له لا يأتي، لأنّه لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً؛ إنّ "أنجيل" كائنٌ من لحمٍ وعظمٍ، وهي تعيش وتسمع، وعندما

تنادونها تحضر؛ ولكن دعونا الآن نفرض أنّكم تنادون الطفل يسوع؛ هل منكم من لا يزال يؤمن بالطفل يسوع؟"

ومرّت لحظة صمتٍ، ثمّ ردّت بعض أصواتٍ خَجلى:

– "نعم، نعم..."

– وأنت، يا بنيّتي "أنجيل" هل تعتقدين حقيقةً أنّ الطفل يسوع يسمعك حين تنادينه؟"

"وأحسّت "أنجيل" وكأن عِبْئًا باهظًا انزاح عن كاهلها؛ فقد أدركت الشَرَك المنصوب لها، والتي كانت عاجزةً، من قبلُ، عن إدراك كنهه وأَبعاده؛ وأجابت في اندفاعٍ تلقائيٍّ:

– "أجل، إنّي أومن أنّه يسمعني!"

– "حسنٌ جدًّا، سنختبر ذلك. منذ لحظاتٍ شهدتم "أنجيل" تدخل عندما ناديتموها. وإذا كان الطفل يسوع موجودًا، فلا بدّ له من سماع ندائكم، فهيّا، إذن، وصِحْنَ جميعكنّ، بصوتٍ عالٍ: "تعالَ أيّها الطفل يسوع!" واحد، اثنان، ثلاثة، هيّا، جميعكنّ معًا".

وأطرقت الطفلات رؤوسَهن، في حين انطلقت من خلال الصمت المثقّل بالغمّ، ضحكةٌ تشنّجيّةٌ، تلاها تعليق المعلّمة قائلةً:

«تعالَ، أيها الطفل يسوع!»

– "هذا بالضبط ما كنت أرغب في أن أفضي بكنّ إليه! وهـذا هو دليلي. إنّكن لا تجرؤن على مناداته لأنّكن واثقـاتٌ أنّ الطفـل يسوع هذا لن يحضر؛ وإن كان لا يسمعكنّ، فمعـنى ذلـك أن لا وجود له أكثر من وجود "جلد الحمار" و"اللحية الزرقاء" وأنّه ليس سوى خُرافة... وقصّة تصلح لعجائز يُهوِّمْن قرب زاويـة المـدفأة، وأنّه لا يسوغ أخذه على مَحمل الجِدّ، لأنّه ليس واقعًا حقيقيًّا".

وظلّت الفتيات الصغيرات مذهولاتٍ واجمات، فالحجّـة مـن الفَظاظة والقوّة بحيث مسّتهنّ في الصميم؛ ولا حاجة للإلمام بـدقائق علم نفس الأطفال لإدراك ما تؤتيه فيهم من بليغ الأثَـر الحجـجُ المدعمة بالاختبارات الملموسة؛ ولقد أقرّت لي بعض الفتيات في مـا بعد أنّهنّ قد وقعن فعلاً فريسة الريبة، وشرعن يتساءلن عن سـبب عدم رؤيتهنّ ليسوع، إن كان له في الواقع وجودٌ.

" أمّا "أنجيل" فقد ظلّت منتصبةً، وقد كساها شُحوب المـوت، وقالت لي، في ما بعد، إحدى زميلاتها: "لقد خـشيت عليهـا مـن السقوط أرضًا" وكانت المعلّمة تبدي، بجلاء، تلذّذها بـالحيرة الـتي رمَت الفتياتِ في أحضانها، وبالظفر الذي أخيرًا أحرزتـه، وكانـت تدمدم في أعماقها: "لقد سحقتُه ذلك الحقير".

وفجأةً حدث أمرٌ لم يتوقّعه أحدٌ إطلاقًا، إذ انقضّت "أنجيل" إلى وسط الصفّ، وقد ومَضت في عينيها ألوف الأشعّة، وهتفت:

– "حسنٌ، سندعوه، أتسمعونني، فلنصرخ جميعًا: تعالَ أيّها الطفل يسوع!"

وفي لمحة عينٍ انتصبت الفتيات جميعهنّ واقفات، وضَمَمْن أيديهنّ، واتّقدت منهنّ الأبصار، وانتفخت منهنّ القلوب بأملٍ ضخمٍ، وهتفنَ معًا:

– "تعالَ أيّها الطفل يسوع!"

وفوجئت المعلّمة بما لم تكن تتوقّعه، فتقهقرت تلقائيًّا، وقد نشبت أبصارها "بأنجيل"، ومرّت لحظة صمتٍ ثقيلٍ ثقَلَ الاحتضار، ثمّ تعالى من جديدٍ صوت الطفلة النقيّ كالبلّور:

– "فلننادِه مرّةً أُخرى".

وكانت صيحةٌ كفيلةٌ بتهديم الجدران، على حدّ وصف إحدى الفتيات، امتزج فيها الخوف، والتلهّف، والتأرجح بين الشكّ والإيمان، وروح التضامن الذي أيقظته فيهنّ، فجأةً، إحداهنّ، وقد ارتجلت دور القيادة؛ لقد امتزجت لديهنّ جميع ضروب المشاعر، خلا توقّع "المعجزة"، وقد اعترفت لي "جيزيل": " لقد كنت أهتف عاليًا، ولكن لم أكن أتوقّع حدوث أيّ أمرٍ عجيبٍ".

"خلال تلك اللحظات، نشِب الحدَث العجَب، واسمحي لي أن أدع هنا الكلام للفتيات اللائي استجوبتهنّ، واحدةً فواحدةً؛ لقد كانت عباراتهنّ، في بساطتها الهزيلة أوفر صحّةً

من جميع تأويلاتنا، نحن الكبار؛ وقد رسخت بعض تلك العبارات في ذاكرتي رسوخًا لن يمّحي أبدًا؛ ولقد كنت أنا نفسي، كاهن الرعيّة المسكين، في حاجةٍ إلى علامةٍ من الله، إذ لا تجهلين ما يصيبنا أحيانًا، هناك، من إرهاقٍ مضنٍ.

"لم تكن أنظار الفتيات مصوّبةً شطر الباب، بل شطر الجدار المقابل، وعلى تلك الخلفيّة البيضاء، كانت عيونهنّ ناشبةً بوجه "أنجيل"، ومع ذلك، فالباب هو الذي فُتح في هدوءٍ ومن غير أيّ ضجيجٍ؛ وقد تبيّن لهنّ ذلك، حين آنسنَ فجأةً "أنّ كلّ ضوء النهار قد فرّ صوب الباب" وقد راح ذلك الضوء يتعاظم ويتعاظم إلى أن أمسى كرةً من نارٍ؛ حينئذٍ تملّكهنّ الذعر، غير أنّ ذلك الذعر كان من قصر الأمَد "بحيث لم يتهيّأ لهنّ الوقت للصراخ"، وانفتحت كُرة النار، ومن خلالها تجلّى طفلٌ "من الروعة بحيث لم يرينَ له قطّ، من قبل، نظيرًا"؛ وكان ذلك الطفل يبتسم لهنّ من غير أن يتلفّظ بكلمةٍ؟ وكان حضوره "فائق العذوبة"؛ هل استمرّ ذلك لحظةً؟ أم ربع ساعةٍ؟ أم ساعةً؟" من الغريب أنّ الشهادات حول ذلك قد تباينت؛ ولكن من الثابت أنّ مدّة الحدث لم تتجاوز الوقت المحدّد للدرس، وكان الطفل "مسربَلاً بالبياض" ويحاكي شمسًا صغيرةً" وهو الذي كان يحدث النور" وكان ضوء النهار" يبدو إزاءه أسود" بحيث إنّ بعض الفتيات قد بُهرن و"آلمتهنّ عيونهنّ" في حين كانت أُخرياتٌ يتأمّلن الطفل الصغير في غير عناءٍ. إنّه لم يقل شيئًا، بل كان يبتسم فحسب،

ثم اختفى في كرة النور التي "ذابت" شيئًا فشيئًا، وانغلق الباب بهدوءٍ "لوحده"، أمّا الفتيات فكنّ مسحوراتٍ، وقد "غمر الفرح قلوبهنّ" ولكنّهنّ لم ينبسنَ، هنّ أيضًا، بكلمةٍ.

وفجأةً شقّت الصمت السائد صرخةٌ حادّةٌ صادرةٌ عن المعلّمة التي زاغ نظرها "وخرجت عيناها من محجَرَيهما" وأخذت تزأر: "لقد جاء، لقد جاء" ثمّ "فرّت" صافقةً الباب بعنفٍ: أمّا "أنجيل" فبدت وكأنها "خارجةٌ من حُلم" وقالت في بساطةٍ:

– "أترون؟ إنّه موجودٌ؟ والآن فلنعبّر له عن شكرنا".

وجثت الفتيات جميعًا بهدوءٍ، وتلَوْنَ "أبانا" و"السلام" و"المجد لله" ثمّ غادرنَ الصف، إذ إنّ الجرس قد قُرع، مؤذنًا بفترة الاستراحة.

وبالطبع شاع النبأ، وجاءني الأهالي متقصّين حقيقة الأمر، وقد استجوبت الفتيات، واحدةً فواحدةً، وبوسعي أن أُؤكّد، مُقْسمًا، أنّني لم ألحظ في شهاداتهنّ أيّ تضارُبٍ؛ غير أنّ أشدّ ما أثار عجَبي أنّهنّ، في ما بعد، لم يجدن في الحَدَث أيّ غرابةٍ، وقد عبّرت عن ذلك إحدى الفتيات قائلةً: "لقد كنّا في حَرَجٍ، وكان على الطفل يسوع أن يأتي ليأخذ بأَزْرنا".

وسألت الكاهن: "وماذا من أمر المعلّمة؟" فأجاب:

– "عليّ، في الواقع، أن أُفضي إلى هذه النهاية: لقد أُودعتْ

الآنسة "جرترود" أحدَ المشافي العقليّة، وجَهدت الهيئة التعليميّة في كتم أمرها وطمس معالمه، ويبدو أنّها كانت لا تني تصيح باستمرارٍ: "لقد جاء، لقد جاء"، ومن البديهيّ أنّه كان يستحيل، والحالة هذه، الاحتفاظ بها؛ وقد حاولت أن أعودها، ولكن عبثًا، فالإذن بارتياد المَشافي العقليّة محظورٌ قطعًا على الكهنة، ولا بدّ من الملاحظة أنّ هذه المشافي حافلةٌ "بحالات" الهوسَ الدينيّ؛ ومعظم أولئك الذين ينتهكون حُرمات كنائسنا يُنهون أيّامهم فيها. ومع ذلك، فإنّني، كلّ يومٍ، أثناء القداس، أُصلّي من أجل الآنسة "جرترود".

– "وماذا عن أنجيل؟"

– "لقد أَنهت دروسها، وهي تساعد أمّها، فقد فاتني أن أذكر لك أنّها بكر أسرةٍ كثيرة الأبناء؛ أعتقد أنها كانت مهيّأةً لدعوةٍ رُهبانيّةٍ، ولكنّني، مذ غادرت البلاد على نحوٍ فجائيٍّ، لم أعد أقف لها على خبرٍ.

وأضاف الأب "نوبير" وهو ينفث دخان سيكارته، في لهجةٍ لا تخلو من بعض السخرية:

– "لست أدري، يا سيّدتي، هل تصدّقين روايتي؛ ولكنّني أراهن أنّك لن تجسري على نشرها".

– "وأنا أقبل الرِهان!"

– "موافق".

١٣

قدّاس الأب ميشيل الأخير

قدّاس الأب ميشيل الأخير

قال الأخ "أوربان": "إنّ هذا المرشّح لدخول ديرنا يبدو ذا سَحنةٍ غريبةٍ مستهجَنةٍ، فاحترز منه أيّها الأب الرئيس".

وإذ تلكّأ الأب في الإجابة، أضاف الأخ: "إنّني أَعزقُ حقل البندورة، تحت نوافذ ردهة الاستقبال، وفي انتظار نداءٍ منك، إذا ما احتجت إليّ".

ورفع الأب "برونو" بصره، ونظر إليه من فوق نظّارتيه، وأطبق كتابه، وردّ مبتسمًا:

– "أيّها الأخ أوربان، لا تخشَ شيئًا! إنّني أعلم، بفضل تجاربي، أن المرشّحين للحياة الرهبانيّة لا يوحون دائمًا بالاطمئنان"

واحمرّ وجه الأخ البستانيّ الذي قال: "إنها للكمةٌ مباشرةٌ؛ ومع ذلك، إنّني أُقسم بلحية القدّيس (بفنوس) أنّني كنت أَفضل من هذا

القادم الجديد! أوَليس أنفه كالقلقاس الروميّ؟ إنّه، به، يبدو مثل ملاكمٍ، بل أسوأ، ومن الواضح أن ليس هذا هو الأنف الذي ورثه من أمّه... ولذلك...".

غير أنّ الأب الرئيس قطع هذا الحديث بحزمٍ، متّجهًا شطر الباب، وقائلاً:

– "حسنٌ، أيّها الأخ، إنّ الله لا يديننا على شكل أنوفنا، ولطالما ضمّت الكنيسة، بين صفوفها، أشكالاً غريبةً".

وقبل أن يدخل ردهة الاستقبال، توقّف لحظةً أمام الباب الزجاجيّ، وخُيّل إليه أنّ الأخ "أوربان" ربّما كان محقًّا، إذ كانت تبدو على الرجل القابع في المقعد الخشبيّ، أَمارات لصٍّ أصيلٍ؛ وقد وثب منتصبًا، وكأنّ نابضًا خفيًّا قد همزه، لدى سماعه صوت الباب؛ وعندما رأى الكاهن حيّاه في ارتباكٍ، ودمدم:

– "أنا (بوكدان كريلا)؛ صباح الخير".

وابتسم الأب الرئيس مجيبًا: "فليتبارك اسم سيّدنا يسوع المسيح؛ يبدو أنّك لا تجيد التحيّة كما يفعل المسيحيّون. هيّا اجلس وأخبرني بما حملك على الحضور".

– "فليتبارك اسمه إلى الأبد، في الحقيقة، يا حضرة الكاهن، قد انقضى أمدٌ طويلٌ لم أحيّ فيه أحدًا تحيّةً مسيحيّةً؛ ولم أكن، بفعلي ذلك، أحمق، إذ كان زملائي كفيلين بتحطيم وجهي". ثمّ استدرك قائلاً:

– "بالطبع أنت تتأمّل أنفي... لقد كان ذلك نتيجة تصفية حساب، لأسباب بعيدة عمّا نحن بشأنه".

وردّ الأب الرئيس في رقّة:

– "لا بأس، أنا لا أنظر إلى أنفك، بل إلى نفسك؛ ألا قلْ يا صديقي، ما الذي جئت فيه!"

وكان الغريب يعبث بقبّعته في عصبيّة، ويدعكها بيديه المخشوشنتين، اللتين اسودّت منهما الأظافر المربّعة الشكل، فيما عبّرت قسَمات وجهه عن بلاهة متمكّنة، وبعد لأيٍ أجاب:

– "لقد تمكّن منّي، ولم يبقَ عليّ سوى مهمّة لا مهرَب منها: أن أعيش في دير".

– "ولكن مَن ذا الذي تمكّن منك؟ هدّئ روعَك، ولا تستعجل الأمور".

– "إنّه الأب ميشيل! أنت تعلم...".

– "نعم، أعلم".

لقد كانت محكمة (س) قد أصدرت حكمها بالإعدام على الأب ميشيل، الذي شُنِق شهرًا عقب إصدار ذلك الحكم، من غير أن يتاح له أيّ عونٍ روحيٍّ؛ وكان الأب "برونو" أحد الذين حاولوا المستحيل للتمكّن من ولوج السجن وزيارته، فاصطدمت جميع محاولاته برفضٍ قاطعٍ؛ واستأنف الغريب:

– "لقد كنت حارسه خلال الأسابيع الثلاثة التي سبقت إعدامه، إذ كنت مشرفًا على زنزانات المحكومين بالإعدام".

وأخذ الاضطراب من الأب "برونو" كلّ مأخذ، فاصطكّت منه الأسنان، واختنقت حنجرته بالعبرات المكبوتة، فيما كان قلبه يتلو آيات الشكر لله؛ فمن عبْر اللحد، كان صديقه يُنفذ إليه جوابه، ويرسل، بواسطة ذلك الغريب، وصيّته؛ وسأل الكاهن زائره، بعد فترة صمتٍ، بصوتٍ متهدّجٍ:

– "هل هو قد بعث لي معك برسالةٍ؟"

– "نعم ولا... عشيّة موته طلب منّي فقط أن أزورك، وأَروي لك كلّ شيءٍ، وها أنذا قد جئت، ولكن قبل مجيئي، قد حطّمت جميع الجسور، وقدّمت استقالتي".

وتمالك الأب "برونو" نفسه، وقد اجتاحته موجة حَذَرٍ مفاجئة، فالرجل الذي كان يخاطبه، لم يكن غريبًا فحسب، بل إنّه من نمطٍ لا يوحي باطمئنانٍ ما؛ فربّما كان مكلّفًا بمهمّة تحريضٍ، أو مبتزًّا، ولا سيّما أنّ كلّ كاهنٍ، منذ مجيء النظام الشيوعيّ، كان عليه أن يعدّ نفسه قلعةً في حالة حصارٍ؛ وسأل الغريب في عنفٍ:

– "وكيف لي أن أعرف أنّك لست تحاول أن تنصب لي شرَكًا؟"

– "صديقك نفسه هو الذي قال لي عشيّة موته: "يا (بوكدان)،

إن لم يصدّقك، فذكّره بحوارنا، على قمّة شجرة الخـــوخ، ونحـــن في الحادية عشرة من العمر، ذكّره بحوارنا ذاك وبقَسَمنا".

وارتعش الأب الرئيس من عنف الصدمة؛ وقد آبَ إلى ذاكرته ذلك اليوم الذي تعاهد فيه وصديقه أن يقفا حياتهما للرســـالة، وأن يموتا شهيدين؛ يومها قال ميشيل: "على مَن ســـيموت منّـــا أوّلاً أن يُخطر بذلك الآخر"؛ وحينئذٍ بصق كلاهما على الأرض مقسمين بألاّ يطلعا أحدًا على أمرهما؛ وقد كانا، حقيقةً، على قمّة شجرة خـــوخٍ. وقال في صوتٍ أجشّ:

– "هيّا تكلّم!"

أمّا "بوكدان كريلا" فكان لا يزال بادي الاضطراب، يعبـــث بقبعته، وأجاب:

– "إذًا، لا تقاطعني! إنّني لم آلَف سرد مثل هـــذه الروايـــات، ويلزمني، كي أسردها، بعض وقتٍ؛ لقد بدأت الحكاية عندما جاءوا به إلى القسم الواقع تحت إشرافي؛ وكان قميصه ملتـــصقًا بجـــسده، لكثرة ما كان قد نزف من دماء؛ ومع ذلك لم يكن يبدو حزينًا! وقد رأيت، في ذلك، العجَب، فجميع الآخرين كانوا يائسين. ولا تظـــننّ أنّ وظيفة حارس سجن هي خاليةٌ من المتاعب: فهنـــاك الـــصراخ، والصدام، والشتائم، والتشكّي. أمّا صديقك فلم يكن يصدر عنـــه شيءٌ من ذلك، مع أنّه لم يكن على أفضل حال، لقد كانوا أَوسعوه

ضربًا، وقد تسنّى لي مشاهدة آثار ما عانى على ظهره وصدره اللذين كانا قد حُرثا حرثًا، وانتشرت فيهما الكدَمات؛ ومن الواضح أنّه لم تأخذهم به رأفةٌ إطلاقًا.

"ولم يكن يعاملني معاملة عدوٍّ؛ بل كان يبتسم لي، وهذا ما كان يقلقني، إذ كنت أتساءل: ما الذي يحمله على الابتسام على هذا النحو؟ وذات مساء، بعد توزيع الحَساء على المساجين، دخلت زنزانته، وحينئذٍ بدأ كلّ شيءٍ.

"لقد سألته، من غير مقدّماتٍ: "ما الذي يدعوك إلى أن تبتسم على نحو ما تفعل؟ وأنت الذي سيشنق، في غضون عشرة أيّامٍ؟" حينئذٍ قال: "ليست هذه هي المصيبة، بل المصيبة في أن نكون مع اللهٍ على غير وفاقٍ". فثرت لهذا الجواب غاضبًا، وأجبته: "وهل أنت تظنّ أنّ إلهك معنيٌّ بك، وبأمر شنقك؟ من المؤكّد أنّه لن يكلّف نفسه عناء إنقاذك" فكان جوابه: "كيف لا يُعنى بذلك، وهو الذي لأجل فدائنا، شُنِق أيضًا على الصليب؟" وأتبع جوابه بضحكةٍ أَسهمت في مضاعفة إثارتي؟ فقلت له: "فداءٌ، فداء... هذه ترّهاتٌ تصلح لراهبات، وليس لرجالٍ من أمثالي وأمثالك؛ وإن أنتَ أخذتَ بها، فعذرك أنّكَ كاهنٌ، وأنت تتحمّل وِزْر اعتقالك. أمّا أنا، فانظر يديّ: أتعلم كم من الدماء بها قد علقت؟ لقد قضيت على أُناسٍ لا أستطيع إحصاءهم! وبالتالي فمن الواضح أن لا شأن لي بصليبك اللعين!" "ولكنّه اعترض قائلاً:

– "لا، بل إنّه من شأنك أنت، فإن كان الله قد رضي بالموت، فإنّما فعل ذلك من أجلك أنت!"

وتوقّف "بوكدان كريلا" هنيهةً، وهو يكاد يختنق من تأثير كلامه، ثمّ أردف:

– "وحسبته يهزأ بي، فأَوصدت النافذة في وجهه، ولكنَّ كلامه بات يقلقني. وفي الغداة، بعد تناول الحساء، بادرته قائلاً: "هل كنتَ جادًّا وأنت تروي لي تلك الحكايا؟". فسأل: "أيّة حَكايا"؟ وضحك، فانفجرت مُقْذِعًا القول:

"حَكايا إلهك اللعين، وصليبك اللعين! إنّني لأسخر من كلّ ذلك". إلا أنّه أجاب مؤكّدًا:

– "ولكنّ الله لا يسخر منك، بل إنّ الله يحبّك!"

– "يا للغرابة! أوَتقول إنّ الله يحبّني! أنا، أنا، أنا..." "وكان "كريلا" وهو يروي ذلك، يقرع صدره في انفعالٍ هائجٍ، فيرنّ كالطبل". ولكي أثبت له خطأه، سردت له سيرة حياتي، كلّ حياتي البائسة! وإنّها لسيرةٌ بشعةٌ، فأنا لست ممّن أوتوا حسن الطالِع: فلقد كانت عيلتنا تتألّف من أحد عشر فردًا، ووالدي كان عاملَ بناءٍ؛ وذات يومٍ خار قلبه، فهوى من فوق الصقالة، وللموه حُطامًا مسحوقًا؛ حينئذٍ، راحت والدتي تغسل للناس ثيابهم لتقوم بأَوَدِنا، وكان لي من العمر ستّ سنواتٍ، وما زلت أذكر كيف كانت

يداها، عندما تعود مساءً، أشبه بالإسفنج المنتفخ؛ ولم يعد لديها من الوقت متّسعٌ كي تُعنى بشؤوننا، فبتنا نعيش في الشارع، لا بل في الساقية، وكانت شقيقاتي جميلات، فانتهجن لأنفسهنّ سبيل عيشٍ، وهنّ ما زلن في الخامسة عشرة؛ أما أنا فاحترفت السرقة.

"وكنت في السادسة عشرة عندما قضت أمّي نحبها، بعد أن ذاقت المسكينة من العذاب ألوانًا، وقبيل موتها رجتني قائلةً: "يا بوكدان، كُفَّ عن معاشرة الرعَاع". ومن حسن الطالع أنّها كانت قد فارقت الوجود عندما وقعت في قبضتهم.

"ومهنة السرقة واسعة المجال، بل هي رياضةٌ مثيرةٌ؛ وأنا لم أعد أسرق بدافع الجوع، بل حبًّا بالسرقة، كما أصبحت، في ما بعد، أقتل حبًّا بالقتل؛ فالدم يبعث في الرأس مثل ما تبعثه الفودكا من نشوةٍ! وكنت أتمتّع برؤية الدماء على كفّيّ.

"ولكي أثير اشمئزازه، قصصت له كل جرائمي: تلك العجوز التي خنقتُها، وهي قطيعة اليدين، وتلك الطفلة التي كانت تقبّل يديّ – هاتين اليدين – متوسّلةً: "إرأف بي"، ولكن كان عليّ أن أجهز عليها، فالشرطة كانت في إثري؛ ثمّ الحرب وما وفّرته لي من ملذّات، فقد كنت أُنادم البولشيفيين، ونشرب معًا كرفاقٍ، وما لبثوا أن وفّروا لي عملاً قائلين: "لقد كنت تحت رحمتهم، والآن سيُمْسون هم تحت رحمتك"، وفجأةً تبدّلت الأدوار، وأصبح لي قبّعةٌ وعصا وما إليهما؛ وفي تلك الأثناء، تمّ لقائي بماريت، وتزوّجنا، فعرفتْ حياتي

شيئًا من الاستقرار، وكنت أحبّها، تلك العاهرة، ولكنّها خـــانتني، فتميّزتُ غيظًا، وإن لم أقتلها، فليس افتقارًا منّي للرغبة في ذلك، بل لأنّها تمكنت من الإفلات من بين يديّ؛ حينئذٍ عزمت على أن أنتقم لنفسي من المجتمع.

"وفي السجون يعوزهم أَوغادٌ مثلي. ومن ثمّ فقد كانوا يُجزلـــون لي الأَجر؛ وكلّما أتوني بمن حكم عليه بالإعدام، كنت أُخاطب نفسي قائلاً: "واحدٌ آخر سننتهي منه"؛ إلى أن تمّ لقائي بذلك الكاهن.

"ولقد هَتكت أمامه جميع خفايا حياتي، حَدَثًا حَدَثًا، أفضل ممّـــا فعلت أمامك؛ ولم أخف عليه أيّ تفصيلٍ مهما بلغ من الخزي، لا بل كنت أفعل ذلك عمدًا مستمدًّا من روايتي متعةً ماكرةً، وقد امتـــدّ ذلك، عشيّاتٍ عديدةً، في أعقاب تناول الحساء؛ أمّا، هو فلم يكـــن ينبس بكلمةٍ.

"ولكنّه، ذات مساء قال: أهذا كلّ ما لديك، يا بـــنيّ؟ هكـــذا خاطبني بقوله: "يا بنيّ". فبتّ ذاهلاً، ولكنّني أجبتـــه: "ألا يكفيـــك هذا، إذًا؟"، فردّ قائلاً: "إنّ دم المسيح كفيلٌ بغسل كلّ هذا؛ هـــل ترغب في أن أباركك وأحلّ خطاياك؟".

"وهذا ما لم أكن قطّ أتوقّعه، فسخرت منه، غير أنّني ما لبثت أن أخذت أنتحب مثل عجلٍ مسكينٍ؛ فللمرّة الأولى، منـــذ ســـنوات، تحرّك في أعماقي شيءٌ كان ميتًا. وتساءلت: ربّمَا كان ذلك حقيقيًّا؛

وإنّه لأمرٌ جديرٌ بالتقدير أن يحبّك إنسانٌ، في حين أنت من ذاتك مشمئزٌّ؛ ولم يكن يخالجني ريبٌ في أنّ الأب ميشيل كان يحبّني حقًّا، وأنا على ما تراه من قذارةٍ.

"ومنذئذٍ، علقت أتردّد عليه كلّ ليلةٍ فيحدّثني في الدين؛ وكنت قد ألممت ببعض مبادئ الدين في المدرسة، ولكنّني قد نسيتها جميعها منذ أمدٍ طويلٍ؛ غير أنّ ما كان يحدّثني فيه كان شيئًا جديدًا، وكان من الواضح أنّه كان يعيش ما يقوله.

"وعشيّة موته دعاني وقال: "قل لي يا بوكدان، هل لك أن توفّر لي قليلاً من النبيذ، وكسرة خبز فطيرٍ، ذاك الذي يدعونه خبز الميلاد؟ فبودّي أن أحتفل بالقدّاس الأخير".

"ومضيت فابتعت له زجاجة نبيذٍ أبيض، وأعطتني جارة شيئًا من خبز الميلاد، وجئته بكلّ ذلك، بعد فراغي من تفقّد المساجين؛ وقبل شروعه بالقدّاس، باركني غافرًا لي خطاياي، وفي أعقاب القدّاس قبّلني، فقلت له: "كيف تقوى على تقبيل إنسان قذرٍ مثلي؟" فأجابني: "إن لم أكن أنا مثلك، فليس لي في ذلك فضلٌ، بل هي نعمة الله التي حمتني. فأنت وأنا، إنما تخلّصنا الرحمة التي لا تعرف حدودًا". ذاك كان، بالحرف، جوابه، ولن أنسى أبدًا تلك الليلة؛ لقد استخدم قدحًا من صفيحٍ ليقوم بالذبيحة، ثمّ، ثمّ... وغطّى "بوكدان" وجهه بيديه قبل أن يضيف:

– "ثمّ ناولني القربان، لي، أنا!"

وقطع عليه النحيب حديثه؛ أما الأب "برونو" فكان ساكنًا، مطرقًا، وقد أخفى يديه بين طيّات أردانه، وكان قلبه يختلج في عنفٍ يكاد أن يحطّمه، ويردّد في سرّه: "الآن أدركت، يا ربّ، لماذا سلختَه عنّي!"

واستأنف "بوكدان كريلا" حديثه:

– "بعدئذٍ أعطاني عنوانك، وأوعز إليّ أن أروي لك كلّ شيءٍ، وأُنفّذ ما تأمرني به؛ ولكنّني كنت خجلاً من المجيء إليك، طالما كنت أقوم بعملي الحقير ذاك؛ ومن ثمّ فقد استقلت فور وفاته، وقد رفضوا، بادئ الأمر، استقالتي، لأنّني كنت أعلم من الخفايا قدرًا وفيرًا. ولكنّ الطبيب قد أقرّ بأنّ أعصابي تالفةٌ، فأذنوا لي بالمغادرة، بعد أن تبيّن لهم أنّني لم أعد ذاك الذي عهدوه؛ والآن عليك أن تحيطني علمًا بما يتوجّب عليّ عمله؛ إنّني شديد المِراس، ولست أخشى الجهد والعمل".

وأغمض الأب الرئيس عينيه لحظةً، في صمتٍ، ثمّ قال، في كثيرٍ من الرقّة:

– "يا بنيّ، إنّني أتقبّلك كإرثٍ من الأب ميشيل؛ ولكن عليك أن تتذكّر جيّدًا أنّ حياتك غارقةٌ في دماء المسيح؛ ومنذ الآن أحظر عليك أن تتحدّث عنها، إلاّ في كرسيّ الاعتراف، وإزاء المسيح والصليب؛ لا بل إنّي أحظر عليك أن تفكّر فيها إلاّ لكي تشكر لله الرحمة الكبرى التي أَسبغها عليك؛ ثمّ دنا من النافذة ونادى:

– "أيّها الأخ "أوربان"، أيّها الأخ "أوربان!".

وانقضّ الأخ كالقذيفة إلى قاعة الاستقبال، من غير استئذانٍ، وفأسه بيده، وافترّت شفتا الأب الرئيس عن ابتسامة حيال دهشة الأخ، إذ عوضًا عن مهمّة إنقاذ، كان يظنّ نفسه مقدمًا عليها، أسند إليه مهمّةً أكثر دقّةً؛ وقد قال له الأب الرئيس:

"أيّها الأخ "أوربان"، هوذا الأخ "بوكدان"، طالبنا الجديد؛ إنّني أوكل إليك تلقينه مبادئ الصلاة، والعمل والصمت".

وقد أكّد الأب "برونو" على هذه اللفظة الأخيرة، لفظة الصمت، لعلمه أنّ الأخ "أوربان"، وهو، على كلّ وجه، راهبٌ مثاليٌّ، كان مصابًا بالفضول، وكان في تلك اللحظة بالذات يتحرّق توقًا للوقوف على المزيد من التفاصيل.

ثمّ طوّق الأب بذراعه كتف "بوكدان كريلا" وقال للأخ "أوربان":

– "إنّني أَعهد به إليك، مثلما عُهِد به إليّ".

١٤

اللّيلة الكبرى

اللّيلة الكبرى

المكان: مطرحٌ ما في پـولونيا؛ التاريخ: نيـسان ١٩٥٥، في مصحٍّ مدعوٍّ "أصدقاء الطفولة" وهو مصحٌّ إلحـاديٌّ: وقـد بـات واضحًا للجميع أنّ الهدف الأوحد لإقامة هذه المؤسّسة التي تُغْـدق الدولة عليها إعاناتها بسخاء، والتي جعلـت لهـا فروعًـا واسـعة الانتشار، وأفرغت عليها صبغةً ماركسيّةً متعنّتةً، إنّما هـو إنـشاء أطفالٍ ملحدين، وفقًا لمواصفاتٍ محدّدة. وقـد أثبتـت دراسـاتٌ مستفيضةٌ، لحظت كافة الاحتمالات الممكنة، أجْرتها المقامات العليا، أنّ ما ستبذله هذه المراكز التثقيفيّة من جهودٍ مشتركة، ستقضي، في غضون عشر سنوات، على جميع مخلّفات الرأسماليّة، والدين إحداها؟ وقد أكّد مدير إحدى هذه المدارس، لزائرٍ سـاذجٍ، في كـثيرٍ مـن الخُيَلاء: "ههنا يُصهر الإنسان الجديد. لقد كان المخطّـط محكمًـا، وبات على الحصاد أن يؤكّد النتائج".

ومن ثمّ، فقد حُمِلَت والدة "تيريز" والأسى يفعم حناياها، على

إرسال طفلتها إلى ذلك المصحّ، تنفيذًا لأمرٍ صريحٍ أصدره الطبيب متذرّعًا بخشيته من "عواقب وبيلة" قد تنجم عن التهابٍ رئويٍّ حلّ بها حديثًا؛ ولم يكن بيدها خيارٌ، فقد كان الأمر أمر السلطات، ولم يكن بوسعها سوى الانصياع أَو الرفض، وكان لا بدّ لها من الإذعان.

وقبل مغادرتها، عقدت "تيريز" مع والدتها طائفةً من الأحاديث الطويلة، وكأنّ لها من العمر أكثر ممّا تعدّ من سنين، في حين كان والدها "پييرو" الذي استبدّ به القلق، يخبط باب المطبخ حيث تدور المناقشات بين زوجته وابنته. فقد كان يرى أنَّ "تيريز" ذات الاثني عشر ربيعًا، تنمو على نحو ما ينمو الهليون: رقيقةً، هزيلةً، بعينيها الزرقاوين، وأنفها الخانس حيث انتشر النمش، وضفيرتيها الشقراوين الممتلئتين؛ لقد كانت تبدو وكأنّها مكوّنةٌ من ساقين وذراعين تحار ما تعمل بها، وكانت تَدْلف نحو الفتوّة، حيث يساور البنات شعورٌ بأنّهنّ دميماتٌ، فتُضرّج وجناتهنّ حمرةٌ لأتفه سببٍ، وكثيرًا ما يتعرّضنَ لأزماتٍ عصبيّةٍ عارضةٍ. لقد كانت ما تزال على جانبٍ وفيرٍ من الطفولة والتودّد، غير أنّها صعبة المراس، حازمةٌ؛ وكانت تلك هي المرّة الأولى تُحمَل فيها على مغادرة المنزل، وكانت تحاول التظاهر باللامبالاة، غير أنّ الكآبة كانت تَغشى صدرها.

وفي المصحّ استقبلتها السيّدة المديرة بالحلوى، راجيةً لها الشفاء العاجل، وسجّلتها في القاعة "د" حيث تمارس الممرّضة، الآنسة

"إيرما"، سيادتها، في حزمٍ، وحيث سريرٌ واحدٌ شاغرٌ موقوفٌ لها؛ وقد التفت أحد عشر رأسًا، التفاتةً عنيفةً في اتّجاه القادمة الجديدة، مصوّبةً نحوها عيونًا منها الزُرق والسود والشُهل تتفحّصها في إمعانٍ؛ غير أنّ لفظةً واحدةً لم تعكّر صفو الصمت: وقد قدّمت الآنسة "إيرما" – وهي يهوديّةٌ – "تريز" بقولها: "يا بناتي، إنّني آمل أنّكنَّ ستستقبلنَها بروح التضامن الذي لا تني پولونيا الشعبيّة ترسّخه فيكنّ، فهي، أيضًا، ينبغي لها أن تَبلّ سريعًا من مرضها لتقوى على خدمة وطنها، والإعداد لاستتباب العالم الجديد، فالمستقبل ملكٌ للأجيال الصاعدة.

لقد كانت تلقي كلّ عبارةٍ من عباراتها، على نحو ما يُتلى درسٌ محفوظٌ، فيما كانت الفتيات تلتزمن الصمت؛ ثمّ أردفت الآنسة "إيرما" في صوتٍ تعب:

– "إذا ما دعتكنّ إلى أمرٍ حاجةٌ، فاقرعن الجرس، والآن طاب مساؤكنّ؛ وتحيا پولونيا الشعبيّة".

وردّ الأطفال في مثل إيقاع كورس:

– "تحيا پولونيا الشعبيّة".

وأُوصد الباب في صمتٍ، وحدّقت في "تيريز" عيون إحدى عشرة فتاةً جالساتٍ في أسرّتهنّ؛ وفجأةً، رسمت إحداهنّ في تؤدةٍ وتمهّلٍ إشارة الصليبِ، من غير أن ترفقها بكلمةٍ واحدةٍ، فما كانت

الفتيات جميعهنّ يحبسن أنفاسهنّ، حتّى كانت تسمع خفقات قلوبهنّ؛ واعترت "تيريز" الحيرة، إلاّ أنّها وضعت حقيبتها أرضًا، ورفعت يدها إلى جبينها... وعلى الفور، سرت الحركة في جميع الأسرّة البيضاء، وهتفت الفتاة التي كانت قد بادرت منذ لحظاتٍ برسم إشارة الصليب قائلةً:

– "إنّها مثلنا".

إلاّ أنّها توجّهت إليها محذّرةً: "لك الويل إن كنتِ تنافقين أو كنت مدسوسةً للتجسّس علينا".

وأَربك "تيريز" هذا الاستقبال الذي لم تكن لتتوقّعه، فاندسّت في سريرها وهي تحدّق في ما حولها، وفي لحةٍ، انقلبت ردهة النوم إلى مثل خليّة نحلٍ، وتنادت أصواتٌ مكتومةٌ، وباتَ يُسمعُ صرير مفاتيح، واستلّت عدّة فتياتٍ حقائب مخفيّةً في حرصٍ تحت أسرّتهنّ، وفتحنها وأخرجن منها أشياءً مختلفةً صففنها فوق أغطيتهنّ، وأعلنت إحداهنّ:

– "بوسعك الشروع الآن".

حينئذٍ، ضمّت الفتاة التي كانت قد استقبلت "تريز" بإشارة الصليب، يديها، وحدّقت إلى صورةٍ موضوعةٍ على ركبتيها، وشرعت تتلو: "أبانا الذي في السموات" وطفقت الردهة "د" تردّد صلاة المساء.

صباح اليوم التالي، سألت "تيريز":

– "ألا تخشينَ أن تسمعنا الآنسة إيرما؟"

فأجابتها "إيدفيك":

– "لا عليك، إنّها تخرج كلّ مساءٍ برفقة صديقٍ لها؛ وما قصّة الجرس، إلاّ من باب التضليل".

– "وماذا يحدث، إذًا، إن ألمّ فعلاً بأحدٍ سوءٌ؟"

وردّت "إيدفيك" وقد ضاقت ذرعًا:

– "يا عزيزتي، يبدو أنّك حمقاء، فلولا صديقها لما تسنّى لنا تلاوة صلواتنا".

وما عتّمت أن أصبحت "تيريز" عضوًا في منظّمة المقاومة التي يقودها أطفالٌ يتحدّون الإلحاد في عقر قلعته. وإنّ ما راحت تكتشفه، يومًا إثر يومٍ، لخليقٌ بمادّة كتابٍ من الحجم الكبير، إذ لم تكن الردهة "د" تنفرد بموقفها، بل على غِرارها، كانت الردهة "آ" والردهة "ب" والردهة "ث" وجميع الردهات الأُخرى، حيث تنتشر خلايا الأطفال الذين يصلّون. وفي واقع الأمر، كان الأطفال الذين لا يصلّون هم الذين لا يُغبَط لهم مصيرٌ، إذ كانوا يشكّلون أقلّيّةً ضئيلةً، تدفعهم إلى العزلة، ثمّ إلى الاستسلام، شيئًا فشيئًا، إلى جانب الأعداء، حيث يأخذون، هم أيضًا، يصلّون؛ ولا بدّ من الإقرار أنّ ما من مَصَحٍّ، في أيّ بلدٍ رأسماليٍّ، يصلّي فيه الأطفال في تقوًى وورَعٍ، على نحو ما يفعلون في مَشْتل الإلحاد ذاك، ولا سيّما أنّ الصلاة هي كلّ ما بقي لهم بعد أن حُظِر على الكهنة الاتّصال بهم، وحُرموا ولوجَ كنيسةٍ أو سماع قدّاسٍ؛ وقد انتاب "تيريز" الذعر عندما تنامت

إليها قصّة فتاة صغيرة، ظلّت حتّى آخر أنفاسها تصيح: "أريد أن أعترف، أريد أن أعترف، هاتوا لي كاهنًا" وقد أسرّت لها "فاندا" قائلةً: "لقد أعرتُها صورة سيّدة "شيستوهويا" التي كانت بحوزتي، فهدأ رُوعها، بعض الهدوء، وفي الغد كانت قد فارقت الحياة.

في الغد يحلّ عيد الفصيح، والآنسة "إيرما" التي كانت على عجلةٍ من أمر انصرافها، قد أغلقت الردهة نصف ساعةٍ قبل الموعد المحدّد. ولكن بعد ربع ساعةٍ كانت جميع الفتيات قد غادرن أسرّتهنّ. وقالت "كاترين":

– "من دواعي الأسف أنّنا إناثٌ، ولا يحقّ لنا حتّى أن نلقي عظةً!"

فردّت "يولاند":

– "لا بأس، إذ لا مانع من إلقاء خطابٍ"

أمّا "صوفي" فأعربت عن فكرةٍ بارعةٍ بقولها:

– "إنّ لنا الحقّ بالتعميد"

غير أنّ "كاترين" اعترضت:

– "وما جدوى هذا الحقّ، وجميعنا معمّدات؟"

وارتفع فجأةً صوتٌ رقيقٌ وَجِلٌ، صوت "كريستينا" التي أعلنت في خجلٍ:

– "أنا لست معمّدةً"

والتفتت جميع الرؤوس المتباينة الألوان، صوب الوثنيّة الصغيرة التي احمرّت خجلاً حتّى جذور شعرها، وأطرقت في حياءٍ، ثمّ دمدمت:

– "والدي في الحزب، وأنتم تعلمون، ثمّ..."

وكانت تعاستها باديةً بحيث أحجمت زميلاتها عن الإيغال في الاستفسار، ولا سيّما أنّهنّ قد سبق لهنّ الوقوف على مثل تلك الحالات، وبات كلّ ما كان يشغلهنّ، آنذاك، هو منح رفيقتهنّ سرّ العماد، لقد كنّ قد أعددن لكلّ شيءٍ عُدّته، سوى تلك الطقوس التي لم يتوقّعنها؛ وتنهّدت "ماريزا" قائلةً:

– "أيّتها الحمقاء، لماذا لم يخطر في بالك إنذارنا في وقتٍ أبكر، "لكي نتأهّب للأمر؟!"

ولكن لا وقتَ للعتاب والتحسّر، فالليلة هي ليلة الفصح، ولا بدّ من تعميد "كريستينا". وأعلنت "إيدڤيك" التي تَرئس الجماعة، في لهجةٍ واثقةٍ:

– "تشجّعن، فسنجد لنا مخرجًا، إنّ الأمر على جانبٍ من البساطة، إذ يكفي أن نأخذ بعض الماء فنسكبه على رأسها قائلاتٍ: "أعمّدك باسم الآب والابن والروح القدس" فيتمّ الأمر.

غير أنّ "فرانسواز" اعترضت:

– "والملح، إنّك تنسين الملح!"

وتردّدت "إيدڤـــيك" لحظةً، إلاّ أنّها ما لبثت أن قرّرت حازمةً: "تبًّا للملح، بما أنّنا نفتقر إليه، فسنستغني عنه، وقد أكّدت لي والدتي أنّ الماء، في حالات الطوارئ، كافٍ، والماء لدينا وفيرٌ".

وتساءلت "جاكلين":

– "إذًا، من ذا الذي سيقوم بالتعميد؟"

وانهالت الإجابات من الفتيات جميعًا، اللواتي رُحنَ يصحنَ على التوالي: "أنا، أنا، أنا".

ووضعت "إيدڤـــيك" إصبعًا على فمها في وقفـــة تفكـــيرٍ، ثمّ أعلنت، بعد فترةٍ: "لا بأس، سنعمّدها نحن جميعنا".

وكانت ليلة لا كالليالي، وقد انتصب على كلّ سريرٍ، فـــضلاً عن الهيكل المرتجل، بَيض الفصح، وشتّى أصناف الحلـــوى وقـــد تمّ توزيعها، كلّها، في عدلٍ صارمٍ.

واستقامت "إيدڤـــيك" في لباس نومها، فوق السرير، مـــستندةً إلى حواجزه، واستهلّت حديثها قائلةً:

– "يا أخواتي، أنا لست كاهنًا، ولا يسوغ لي إلقاء عظةٍ، غـــير أنّني سأطرح عليكم بعض الأفكار؟ إنّنا في ليلةٍ عظيمةٍ، ليلة الفصح، فالمسيح قد قام. لقد قضى نحبه يوم الجمعة، فظنّوا أنّه مات إلى الأبد، فأودعوه لَحدًا أُوصد بحجرٍ ضخمٍ، وخُيّل للجميع، عدا والدته، أنّ أمره قد قُضي؛ ثمّ، في صباح اليوم الثالث، وَمَضت البروق، وهَزَمت

الرعود، وزُلزلت الأرض، وخرج هو من القبر ساطعًا متلألئًا، وأُغمي على الحرس الذين كانوا يَخفرون لَحده، جَزَعًا، فسقطوا أرضًا، وامتشق السيّد المسيح بيده رايةً، ومثَل أمام تلاميذه، مثول الظافر المنتصر، وفي ذلك دليلٌ على أُلوهيّته، وإلاّ فكيف استطاع القيامة من الموت؟ فالإنسان لا يقوى على ذلك، ومن ثمّ فبما أنّه إلهٌ، علينا أن نُوليه ثقتنا؛ الملحدون يدّعون أنّه قد مات، أمّا نحن فنؤمن أنّه حيٌّ.

وصمتت "إيدڤيك" لحظةً، واثقةً من تأثير كلامها، فابتدرت "جاكلين" بسؤالٍ خَجولٍ:

– "والآن هل سنشرع بتعميدها؟"

فأجابها صراخٌ اشتركت فيه جميع الفتيات معًا:

– "نعم، نعم، نعم"

فأمرهن "إيدڤيك" قائلةً:

– "إذن فلتملأ كلّ واحدةٍ منكنّ كأس تنظيف أسنانها، ماءً"

ثمّ التفتت صوب المتنصّرة مخاطبةً: "عليك أن تعلمي أنّ العماد سيفرض عليك الشهادة، ولو كلّفتك غاليًا؛ ولكنَّ يسوع الربّ سيجعل منك مخلوقةً جديدةً وسيؤتيك أَزْرًا، والآن عليك أن تتأهّبي"

وانسلّت "كريستينا" من سريرها، وقد أخذ منها التأثّر كلّ مأخذٍ، وانتصبت واقفةً في وسط ردهة النوم، وهي ترتدي قميص

نومٍ طويلاً ينسدل حتّى قدميها، وتحلّقت حواليها، في مثل باقة حيّة، إحدى عشرة فتاةً، وامتدّت فوق رأسها إِحْدَى عشرة يدًا في كلٍّ منها كأسٌ طافحةٌ بالماء، وردّد أحد عشر صوتًا، في إيقاعٍ مهيبٍ، كلمات الأسرار المقدّسة:

– "أُعمّدك يا كريستينا باسم الآب والابن والروح القدس"

تلت ذلك فترة صَمْت، كان التأثّر خلالها يعصف بالفتيات، في حين كانت دموعٌ حارّةٌ تنهمر من مآقي "كريستينا"، والماء يسيل منها كما يسيل من مزرابٍ.

ولاحظت "إيدڤيك"، الدائمة التنبّه إلى دقائق الأمور، قائلةً:

– "أرى أنّ ماء العماد قد شكّل على الأرض مستنقعًا يجب تنشيفه؛ ولكن هل يسوغ أن نفعل ذلك بواسطة خرقة المَسح؟"

فردّت "جاكلين":

– "لا، بل سنمسحه بمناديلنا التي سنحتفظ بها فيما بعد بمثابة ذخائر".

وجثت، في هذه المرّة، اثنتا عشرة فتاةً، دائباتٍ على تنشيف ماء العماد، في جمّ من العناية والخشوع، حتّى إذا ما فرغن، بات الليل متقدّمًا، وقد استبدّ بهنّ النّعاس، فأَوينَ إلى أسرّتهنّ، مُرجئاتٍ للغد أمر التمتّع بطيّبات المآكل.

لقد نقلت إليّ هذه الرواية الواقعيّة والدة إحدى أولئك

الفتيات، وهي ما زالت تحتفظ "بمنديل العماد" احتفاظها بكنزٍ ثمينٍ؛ وعندما وضعته بين يديّ، علّقت قائلةً:

– "إنّه قذرٌ مثل الأرض المقدّسة، على حدّ ما يقول مثلنا البولونيّ، ولكنّه، لا مِراء، ذخيرةٌ مقدّسةٌ، لقد عادت ابنتي من مصحّ الملحدين مُعبّأة الروح، وكأنّها قادمةٌ من رياضةٍ روحيّةٍ، ولا بدّ من الإقرار بأنّ لله تعالى تدابير غريبةً".

فسألتها: "وماذا عن كريستينا" فردّت:

– "لقد أفلحتْ في ردّ أهلها إلى حظيرة الدين".

١٥

كيفَ احتَفَلَت كاترين بمُناوَلتهَا الأولى

كيف احتفلت كاترين بمناوكتها الأولى

أعلن الطبيب، هازًّا كتفيه:

– "إنها لم تَبُحْ بشيءٍ، ولست أقف لها على مرضٍ، إلاّ إذا أسمينا الفكرة المتسلّطة مرضًا؛ وأنتم ألم تلحَظوا في سلوكها شيئًا، خلال الفترة الأخيرة؛ أعني ألم تلحظوا أيّة ظاهرةٍ غريبةٍ؟ أهي لم تواجه مشاكل في المدرسة؟"

ونظر السيد (س) إلى زوجته التي أَومأت إليه بوضع إصبعها على فمها في حركةٍ من الخفّة بحيث تكاد لا تلاحَظ، ثمّ دمدم مجيبًا:

– "لا أذكر أنّ شيئًا من ذلك قد لفت انتباهنا".

– "ومع ذلك، هناك عقدةٌ لا بدّ من حَلّها؛ فالصغيرة في سنٍّ يتحتّم فيها مراقبة اتّزانها العصبيّ؛ والأمّهات، في مثل هذه الحالات،

أوفر نصيبًا بالنجاح من الأطبّاء؛ وبالتالي فإنّني أنصحك، يا سيّدتي، قبل أن نلجأ إلى العلاج النفسيّ، باستخدام ما لكِ، أنتِ، من تأثيرٍ على ابنتكِ... ومن حنانٍ، كي تحمليها على الإقرار بدوافع إضراب الجوع الذي أعلنته، فها إنّها قد أعرضت منذ ثلاثة أيّامٍ عن تناول أيّ طعامٍ، ولا يسوغ أن تستمرّ على ذلك! ولو كان الدافع هو السقَم، لما عارضت التغذية الاصطناعيّة، ولما تخبّطت كشيطانٍ متمرّدٍ، لتدفع يدي، على حدّ ما رأيتِ منذ لحظةٍ! وإنّني لعلى يقينٍ بأنّ إقلاعها عن الطعام إنّما هو قرارٌ مبيّتٌ، وله دافعٌ محدّدٌ، لا بدّ من الوقوف عليه... وإذا ما تبيّن لك أيّ جديدٍ في الأمر، فالرجاء أن تنذريني بالهاتف. موعدنا غدًا في مثل هذه الساعة... إنّني أعتمد عليك، يا سيّدتي".

وما كاد الباب يُغلق حتّى تبادل الزوجان نظراتٍ صامتةً. ثمّ سأل السيّد (س):

– "ماذا، إذن؟"

وأجابته زوجته في مثل سؤاله:

– "ماذا، إذن؟"

فردّ الزوج، بصوتٍ خفيضٍ، وهو يوقّع عباراته، في ثورة غضبٍ:

– "ملعونةٌ هذه الفتاة، هي وقصص الكهنة التي استولت على لبّها؛ إنّهم سيدفعون لي ثمن ذلك غاليًا؛ ولكن، في هذه الأثناء، صحّة

الطفلة في خطرٍ! ألا قولي أهي حقًّا لم تتناول شيئًا من الطعام منذ ثلاثة أيّامٍ؟ أليست تَطعَم أحيانًا خِلسةً؟"

– "للأسف، لا أظنّ أنّ ذلك قد حدث؛ فهي، أوّلاً، لا تغادر فراشها، وخزانة الطعام مقفلةٌ بالمفتاح؛ كما أنّني، وأنا أصلح لها غرفتها، لم أقف على أثرٍ لطعامٍ أو لفتات خبزٍ. ثمّ إنّ مثل هذا السلوك يتعارض مع خصالها، فهي أبدًا لا تكذب، وإن كانت في عنادها تحاكي حمارًا؛ ولا ريب أنّها قد ورثت عنك هذا العناد".

وتخطّى السيد (س) في حذَرٍ، المنطقة المنذرة بالحساسيّة، سائلاً من جديدٍ:

– "ما العمل، إذن؟"

فأجابت زوجته متنهّدةً:

– "هذا ما أتساءل عنه، أنا أيضًا. وعلى أيّ حالٍ، لا يسوغ أن ندعَها سادرةً في غيّها، فقد يقضي ذلك على مستقبلكَ بأكمله".

وكان السيد (س) في تلك الأثناء، يذرَع الغرفة، في خطواتٍ واسعةٍ، وهو يبصق الشتائم يمنةً ويسارًا؛ أمّا زوجته فقد حاولت أنْ تهدّئ من رَوعها بإشغال نفسها في حياكة دِثارٍ صوفيٍّ؛ غير أنّ أمارات وجهها، وارتجاف يديها، كانت تعبّر عن اضطرابٍ ناشبٍ بكلّ كيانها، وما لبثت أن تأوّهت:

– "إنّ سلوكها هذا سيُفضي بها إلى الموت".

واستدار الزوج على عقبيْه فجأةً، وانتصب واقفًا في حزمٍ إزاء زوجته، وقال في صوتٍ أجَشّ:

– "هذا ما كنّا، بعدُ، نفتقر إليه! وعلى كلّ حـــالٍ فالخطيئـــة خطيئتك، فأنت لم تحسني مراقبتها".

وردّت الزوجة ردّ من طُعنت كرامته:

– "حسبك يا كازيمير، حسبك إمعانًا في التمادي! من ذا الذي اختار لها مدرستها، أأنت أم أنا؟ ألم تناصر أنت اختيار مدرسة (س) لكونها مدرسةً علمانيّةً متحرّرةً من الخرافات الدينيّة؟ أليست جميـــع المدرّسات فيها ماركسيّات متزمّتات، وهل يجرؤ كاهنٌ أن يطأ بقدمه أرضها؟ فكيف السبيل لأنْ تقابل أيّ كاهنٍ هناك؟ بل أين يمكنها أن تقابله وأنت تعلم أنّني أعود بها أنا نفسي من المدرسة يوميًّا؟"

– "إذن فما الذي دَهاها؟"

فأجابته في جَرْسٍ حزينٍ:

– "هذا ما أتساءل عنه، أنا أيضًا".

واتّخذ السيد (س) لهجةً أوفر لينًا، فقال:

– "هل سمعت قول الطبيب؟ إنّك أنتِ المسؤولة عن فكّ هـــذه العقدة".

– "وإنّني لأتساءل كيف سبيلي إلى ذلك، إن هي ظلّت مقيمةً على رفضها؛ ولِمَ لا تحاول أنت؟ فأنتَ، على أيّ حالٍ، والدها، وأنا لا يسَعني أن أكون حازمةً نظيرك".

كاد الاستهجان يذهب بلبّه، وانفجر قائلاً:

– "أأنت، يا "أنّا" تتكلّمين هكذا، أنت الملحدة المناضلة؟ أتسمحين بحدوث هذه المهزَلة، بل هذه التهريجيّة؟"

وهبّت منتصبةً، مثل شمعةٍ، وقالت، وهي تصفِر بكلماتها صَفرًا بين أسنانها:

– "بالضبط! فبما أنّ الأمر برُمّته لا يتعدّى كونه هُراءً سخيفًا، لن يكون له نتائج على الإطلاق. وسيتبيّن لها أنّ الأمور، بعد تحقيق نزْوتها، لن تتغيّر حالاً عمّا كانت من قبل، وستُسهم دراساتها العليا، فيما بعد، في إعادتها إلى صوابها؛ أما المهمّة الفوريّة المتحتّمة الآن، فهي إنقاذها من الهلاك! وأنا أَوثق الناس بها معرفةً. إنّها لن تتراجع، ولو أدّى بها سلوكها إلى الموت".

– "وهل علينا نحن، إذن، أن نتراجع؟ أوَليس الأفضل أن تُقرّي بأنّ العالم يسير القَهقرى؟"

– صحيحٌ، ولكن هل أنت ترى حلاًّ آخر؟"

لقد كان السيد (س) يتبوّأ، في الحزب، مركزًا ذا بالٍ، ومسؤوليّاتٍ سياسيّةً خطيرةً. وكانت قناعاته الماركسيّة تقيم لديه، حتّى يومذاكٍ، انسجامًا وثيقًا مع "أنّا" زوجته، المكلّفة بمكافحة الخرافات الدينيّة؛ وكانا، كلاهما، بالاتّكاء على الجهاز البوليسيّ، وشبح الاتّحاد السوفييتي، يظفران بنتائج مرضيةٍ جدًّا؛ إلى أن انفجرت القنبلة، يومًا، عندما أعلنت ابنتهما "كاترين" ذات الأحد

عشر ربيعًا، في صراحةٍ لا مداورة فيها، أنّها تبغي الاحتفال بمناولتها الأولى؛ وعندما قوبلت برفضٍ قاطعٍ، لازمت سريرها، وأعلنت إضراب الجوع؛ وقد استخفّا بذلك، بادئ الأمر، زاعمين أنّها نَزْوة طفلة عابرةٌ؛ غير أنّها ما فتئت مستمرّةً منذ أيّامٍ ثلاثة، وقد انتابهما الهُزالُ؛ وهما لم يجسرا على البوح بشيءٍ حتّى للطبيبِ الذي تربطه بالأسرة أواصر صداقة، عن أسباب ذلك "السقم" الغامض؛ وكان الوقت يمضي فيزيدهما قلقًا وحيرةً؛ وما الحوار الذي أسلفنا إيراده، سوى تعبيرٍ عمّا صارا إليه من انهيارٍ واستسلامٍ.

في تلك الأثناء، كانت "كاترين" تحلم بدجاجةٍ مطبوخةٍ بالبازلاّء، وقد استحوذ عليها الجوع إلى حدٍّ يعسر احتماله؛ إلاّ أنّها ما برحت صامدةً، فهي قد قطعت على ذلك عهدًا، ولا بدّ من تنفيذ ما عقدت عليه عزمها، وهو الاحتفال بمناولتها الأولى مع "يانكا" و"إيوا" و"لويزا" و"ڤاندا" و"تولا" والأخريات اللواتي أسهمن جميعهنّ في تلقينها مبادئ الدين المسيحيّ. وهي تُزْجي الوقت في استذكار تلك المبادئ، إذ ليس من المسلّي أن يلتزم المرء سريره، وهو ليس بسقيمٍ؛ كما أنّها لا تَني تصلّي، مردّدةً، مرّاتٍ لا تحصى، الصلاة الربانيّة، والسلام الملائكيّ، مستعينةً بسبحتها الكَشّافيّة؛ وكانت أمّها قد سألتها، مرّةً، في لهجة ارتيابٍ وتحرّزٍ: "ما هذا الذي يحيق بإصبعك؟" فأجابتها في ابتسامةٍ بريئة: "إنّه طوطمٌ مكسيكيٌّ يحمي من الطاعون والكوليرا والبرص..." فاحتجّت الأمّ مستنكرةً:

"وهل أنتِ توقنين بمثل هذه الترّهات؟" غير أنّ الهواجس التي أخذت تؤرّقها، في ما بعد، حول صحّة ابنتها قد أَسْلتها ذلك الخاتم المحدَّب في إصبعها، والذي لم تقف له على معنًى.

وكانت "كاترين" عندما يشتدّ بها الجوع، تُهادنه بكأس ماءٍ، ثمّ توالي تلاوة سبحتها، مضيفةً من ابتكارها:

– "يا مريم القدّيسة، أمّ الله... اجعلي أبي وأمّي يوافقان سريعًا وإلاّ نَفَقت جوعًا؛ في الحقيقة، أنا لست راغبةً في الموت، لا، إطلاقًا؛ أمّا إذا اقتضى الأمر، فسأرضى بالموت، إلاّ أنّني لن أستسلم أبـــدًا؛ وإذن صلّي من أجلي، في ساعة موتي، إذا كـــان مـــوتي ضـــروريًّا؛ ولكنّني أوثر أن تبدّلي ما في نفس أبي وأمّي؛ إنّني أحبّك حبًّا جمًّا، يـــا والدتي السماويّة، وفيك أضع كلّ رجائي".

ويُفتح الباب، في تؤدةٍ ومن غير ضجيجٍ، فيتجلّى من فُرجتـــه شبحان واضحا المعالم، يغمرهما الضوء المتدفّق من الممرّ، ويقف عند العتبة السيّد والسيّدة (س) يَعروهما بعض حيرةٍ، ثمّ يسأل الوالد:

– "ماذا من جديدٍ، يا هرّتي الصغيرة؟"

وتضيف الوالدة، مداهنةً:

– "ألستِ جائعةً؟"

وانفجرت "كاترين" قائلةً:

– "جائعة؟ من المؤكّد أنّني جائعةٌ، لا بل إنّي، لشدّة جوعي، على

أهبة لتناول طبقٍ كاملٍ من الذُرة المكسّرة، ذلك الطاعون الأصفر الذي أمقته. بل إنّني مستعدّةٌ لتناول بقايا الخبز اليابس التي ألفنا إلقاءها في النُفايات، بل حتّى قشور البطاطا، نيئةً! ولكنّني قد قلت كلاّ، وذلك يعني كلاّ! إنّني جائعةٌ، ولكنّني لن آكل شيئًا؛ وسأموت، أؤكّد لكما أنّني سأَنفق جوعًا، حينئذٍ، ستضعان على قبري شاهدةً تقول: "ماتت جوعًا، بجريرتنا". هذا ما ستضعانه، وسيكون ذلك صحيحًا لا ريب فيه، فإن متّ، كان موتي خطيئتكم، ومَغبّة إصراركم العنيد على الرفض".

وتبادل الزوجان نظراتٍ ذاهلةً، إذ كانت تلك المرّة الأولى تعترف فيها "كاترين" بما تعانيٍ من جوعٍ، وكان يبدو جليًّا أنّ ابنتهما مرهقةٌ، منهكة الأعصاب، وساورتهما فكرة الإفادة من وضعها هذا لإعادتها إلى جادّة الصواب.

واتّخذ السيد (س) موقفًا متعاليًا، وأعلن في لهجةٍ جادّة:

– "يا ابنتي، نحن لا نرمي إلى غير مصلحتك؛ وإنّ ذلك الاحتفال الذي تتوقين إلى الإسهام فيه، لن يأتيك بشيءٍ إطلاقًا، سوى خيبة أملٍ مريرة؛ فهل بلغ بك الحمق حدّ الاعتقاد أنّ تلك القطعة المستديرة من الخبز الفطير تحتوي الله؟ إنّك ستبتلعينها لتجدي نفسك بعد ذلك باقيةً على ما كنت عليه من قبل؛ إلاّ أنّك ستكونين بفعلتك هذه قد حطّمت مستقبلي المِهْنيّ، ومستقبل والدتك؛ أجل، فالرفاق لن يصفحوا لنا أبدًا سماحنا لك بممارسة تلك المهازل. هل

تدركين ما أعني؟ بل هل أنت تحبّين أبويك؟ إنّني أميل إلى الاعتقاد بأنّك لا تحبّيننا مطلقًا"

وكانت "كاترين" تصغي ورأسها مدفونٌ تحت الأغطية، غير أنّها انتفضت فجأةً، وقد التمعت منها عينان تزدحم في مآقيهما الدموع وقالت:

– "آه! أأنا لا أحبّكما؟ أأنا لا أحبّكما؟ أهذا ما أفضَيتما إليه من استنتاجٍ؟ ألا اعلما، إذن، يا بابا ويا ماما، أنّني إنّما أقول لكما: "لا" لأنّني أحبّكما! ليس ذنبي أنّكما لا تؤمنان بالله! أمّا أنا فأُومن به، وسأظلّ أومن حتّى ساعة موتي! وحتّى إذا تعذّر عليّ التناول ماديًّا، فسأعمد إلى مناولة الرغبة؛ وأنتما تعلمان أنّها مشروعةٌ وتفي بالمَرام! وبعد موتي سأستمرّ أصلّي وأصلّي من أجلكما إلى أن ترتدّا إلى الإيمان".

واعترضت الوالدة، التي بفضل نشأتها في مدارس للراهبات كانت أكثر إلمامًا بشؤون الدين:

– "ولكن، أيّتها الحمقاء الصغيرة، كيف لك أن تتناولي، وأنت لم تظفري بعد حتّى بسرّ المعموديّة؟"

إلا أنّ "كاترين" ردّت في صيحة المنتصر:

– "بلى، إنّني معمّدةٌ، فقد عمّدتني البنات!"

واستحوذ على الوالدين الذهول، فسألا:

– "البنات؟ وأيّ بنات؟"

– "رفيقاتي، بالطبع، إذ بوسعهنّ التعميد، على الأقلّ".

– "وإذن فهنّ اللائي حشَون رأسك بالترّهات؟"

– "أوّلاً هذه ليست تُرّهات؛ ثمّ إنّهن بناتٌ على جانبٍ كبيرٍ من الكِياسة، ولا أريد أن تقولا فيهنّ سوءًا!"

وتوسّلت السيدة (س) زوجها قائلةً:

– "أرجوك أن تدعها وشأنها، فأنت ترى إلى أيّ سوء حالٍ قد آلت!"

واستأنفت "كاترين":

– "لا بأس! فطالما أنتما تقاومان رغبتي ستتفاقم حالي سوءًا، إلى أن أموت أخيرًا".

ونوبةً أُخرى، حاولت السيّدة (س) التذرّع بالحجج الدينيّة التي كانت قد زوّدتها بها نشأتها لدى الراهبات، فاعترضت:

– "إن كنت ضليعةً، إلى هذا المدى، في شؤون الدين، فلا بدّ أن تعلمي أيّتها الحمقاء الصغيرة، أنّ إلهك يأمرك بإطاعة أبيك وأمّك".

غير أنّ الفتاة ردّت في لهجةٍ منتصرةٍ:

– "إنّك قد أخطأت الحجّة يا أمّاه! فـــواجبي أن أطيعكمـــا في الأمور الصالحة؛ ولكن عندما تأمرانني بسلوك صراط السوء، فعليّ أن أعلن "لا"، وهذا واردٌ في الإنجيل الذي يطلب منّا أن نـــؤْثر الله

على أبينا وأمّنا؛ وما تأمرانني به هو سوءٌ، إذ بحَظركما عليّ الاحتفال بمناولتي الأولى، إنّما تفصلانني عن الله، وبالتالي فواجبي أن أقول لكما: لا، لا، ثمّ لا".

وراحت "كاترين" تنتحب من الجوع والغضب والانفعال، وأيضًا بدافعٍ تكتيكيٍّ؛ فهي في مَكرها النبيه، كانت تعلم أن ليس لوالدها قِبَلٌ بمقاومة دموعها؛ وبالفعل، فقد استوى على حافّة سريرها، وهمّ بأخذها بين ذراعيه، ولكنّها انزلقت مثلما ينزلق الأنقليس، وقالت:

– "كلاّ، يا أبتاه! إنّني لن أقبّلك طالما أنت لم توافق على رغبتي".

ولكنّه زمجر قائلاً:

– "لقد بلغ السيل الزّبى! إنّنا نسعى في سبيل إقامة عالمٍ أفضل، والأطفال هم الذين يعرقلون جهودنا... وهل ستتحسّنين حالاً إن أنا قلت نعم؟"

وابتسمت الفتاة، من خلال دموعها وقالت:

– "بالطبع يا أبتاه! فقبل كلّ شيءٍ سأَهرع إلى تناول الطعام، وأؤكّد لك أنّني إليه في جوعٍ شديد. ثمّ إنّي سأحتفل بمناولتي الأولى، مع رفيقاتي، في ثوبٍ أبيض فضفاضٍ، وسأصلّي من أجلكما ما استطعت إلى الصلاة سبيلاً؛ وإنّ يسوع لا يرفض طلبًا للأطفال

بمناسبة مناولتهم الأولى؛ وربّمَا سترافقانني إلى الكنيسة، شأن آبـــاء البنات الأخرَيات وأمهاتهنّ، أليس كذلك؟"

وأغرق السيد (س) في الضحك، وهو يقول:

– "هذا ما كان، بعدُ، ينقصنا! ألا ترين أنّ ابنتك قد بلغت من الجنون ما يوجب تقييدها بالأَغلال؟"

وأجابت الزوجة، وقد زمّت شفتيها:

– "إنّها ابنتك بقدر ما هي ابنتي! وإنّني لا أرى جـــدوى مـــن إطالة هذه المَهزلة. وإن كان علينا الاستسلام لنَزوات هذه المأفونـــة، فلنفعل ذلك فورًا ولنطوِ الأمر".

وتنهّد السيّد (س) قائلاً:

– "من اليسر قول ذلك، ولكن ما العمل إذا ما ذاع الأمـــر؟ فالبنات، في صفّ "كاترين"، اللواتي يتابعن دروسًا دينيّةً، هنّ أقلّيةٌ؛ أمّا الأخريات، مثل بنات آ... وج... ول... وب... فآبـــاؤهنّ رفاقٌ يعرفون كيف يربّون أولادهم. وهل تتصوّرين مواقفهم عندما يبلغهم أنّ "كاترين" قد احتفلت بمناولتها الأولى؟"

وردّت "كاترين" جَذلى:

– "إنّ موقفهم لم يختلف عن موقفك، فجميع بنات صفّي، من غير استثناء، تتأهّبنَ للمناولة الأولى، جميعهنّ، أتسمعني جيّدًا؟ ولقـــد كنت الأخيرة في مواجهة مقاومةٍ في هذا السبيل، وهذا ما حـــداني

على سلوك الطريق الوَعر؛ أمّا هنّ فلم يلقَين مثـــل هـــذا العنَـــت! وعليه، فلن يكون هناك وُشاةٌ، إذ إنّ الاحتفال سيتمّ في جوٍّ عائليٍّ. وكم أنتما طيّبان، وكم أنا أحبّكما، يا بابا ويا ماما!"

واعترض السيّد (س) وهو يَجهَد في إخفاء تأثّره:

– "مهلاً، أيّتها البلهاء! فبما أنّنا في مجال البَوح بالأسرار، قولي لي أمرًا آخر: كيف، بربّك، استطعت أنت والأخريات تعلّم مبادئ الدين المسيحيّ، وأنتنّ لم تغشَين الكنيسة، حيث تُلَقّنُ هذه المبادئ؟"

– "إنّ الأمر على جانبٍ كبيرٍ من البساطة، يا أبتاه. فـــاللواتي كنّ يذهبن إلى الكنيسة، كنّ ينقلن ما تعلّمنَه إلى اللائي لم يذهبنَ، بل كنّ ينقلن إليهنّ أيضًا ما سجّلنه في دفاترهنّ من معلوماتٍ".

– "وهل تزعمين أنّك، بفضل ذلك، قد بِتّ على علمٍ بشيءٍ؟"

وأجابت "كاترين" في لهجة تحدٍّ:

– "استجوبني، إن شئت، لتتأكّد! ولكن دعني قبل ذلك أصيب شيئًا من الطعام. وإذن، أنت موافقٌ، ولن تتراجع؟"

وتأوّهت والدتها مستنكرةً:

– "كاترين، كيف تجسُرين على مكالمة أبيك على هذا النحو؟"

– "ذلك، لأنّني أحبّ والدي. مَرْحى! لقد انتـــهى إضـــراب الجوع، أعطوني سريعًا بعض طعامٍ: شريحة لحمٍ، أو بعض فاصولياء، أو أيّ شيءٍ آخر".

وأجابت أمّها:

– "لن تنالي، أوّل الأمر، سوى شيءٍ من خبز الشعير، انتظري لحظةً".

وصارت إلى المطبخ، فلحق بها زوجها متسائلاً:

– "ماذا إذن؟"

فردّت:

– "ماذا، إذن؟"

– "لم يخطر لي قطّ ببالٍ أنّني قد أصل إلى مثل هذا، وإنّني لأشعر من جَرّاء ذلك بالصدمة".

– "أمّا صدمتي، أنا، فأشدّ قسوةً! ولكن عليك أن تُقرّ بأنّ الصغيرة شديدة المِراس".

– "هناك من تستمدّ منه ذلك!"

– "طبعًا إنّها تستمدّه منك!"

في تلك الأثناء، كانت "كاترين" جاثيةً في سريرها الصغير تصلّي:

"شكرًا يا أمّي السماويّة! كم قاسيت قبل الظفر بمبتغاي! ولكن لو لم تشدّي من أزْري، لما قويت على الصمود! والآن غيّري ما بقلبَيْ والديّ، كي يشتركا معي بالمناولة. إنّك على كلّ شيءٍ قديرةٌ، إذ إنّ الله لا يرفض لك أمرًا! لذلك، يا أمّي السماويّة، أتّكل عليك".

١٦

الصّلبان

الصّلبان

أَوجزت "پـــترونيل" كلامها، في لهجة مَن طُعنت كرامته، قائلةً:

– "أنا لست أدري! ثمّ ما شأني أنا بصلبانهم؟ أمس كانت هنا، وها هي اليوم قد خلَت منها الجدران. إنّ أحدًا قد انتزعها، ولكنّي لست أنا مَن انتزعها، على أيّ حالٍ".

لقد كان جميع موظّفي مركز الوقايـــة، حتّـــى المـــدير، يُولـــون "پـــترونيل" إجلالاً مقرونًا بالرهبة؛ فقد زوّدتها الترقية العمّاليّة بوقاحـــة جعلت أكثر الثوريّين تزمّتًا يحنّون إلى العهد البائد الذي كان قد استطاع، على الأقلّ، لجم ميل الخادمات الجامح إلى الثرثـــرة؛ أمّـــا في أعقـــاب استتباب حكم پـــولونيا الشعبيّة، فقد تحطّمت جميع الكوابح، فبـــات لا بدّ، حين تفتح حنفيّات الثرثرة، من حني الظهر لاستقبال التيّار المتـــدفّق؛ وكانت "پـــترونيل" تسرد كلّ ما تودّ سرده حتّى الحرف الأخير.

وفي ذلك الصباح، كان السيد "سارنيكي"، مدير المركز، هـــو الذي مهّد لطوفان ثرثرتها، عندما استجوبها عن الصلبان التي كانت

قد اختفت في أثناء الليل؛ وكانت قبضتا يديها مسندتين إلى وِرْكيها، وجديلة شعرها المكوّرة خلف رأسها مشعّثةً، ووجنتاها متّقدتين، وهي تنهي خطابها. حينئذٍ تجاسر السيد "سارنيكي" فردّ عليها:

– "أيّتها الرفيقة بشليكا، إنّ خطابك يهزّ مشاعري، غير أنّه لا يحلّ المُشكلة، إذ لا بدّ من معرفة أين تبخّرت جميع الصلبان".

وكانت "پترونيل" تهمّ باستئناف خطابها، عندما قُرع الباب، واندفعت الآنسة "أُلغا" الممرّضة اندفاعَ إعصار، وأعلنت لاهثةً:

– "لقد أعلن التمرّد، فالأطفال يرفضون النهوض والاغتسال".

واهتبلت "پترونيل" المناسبة لتتابع حديثها، في كثيرٍ من الخُيَلاء:

– "أرأيت أيّها الرفيق المدير؟ إنّني أراهن أنّها مكيدةٌ دبّرها أولئك الإمبرياليّون الأميركيّون! لقد سمعت من الراديو...".

إلاّ أنّها اضطرّت إلى قطع خطابها، فهزّت كتفيها غيظًا، عندما غادر السيد سارنيكي القاعة، ترافقه الآنسة أُلغا.

وكان ذلك النهار يبدو عاصفًا، إذ كان المركز في انتظار مفتّشٍ قادمٍ من وارسو؛ وللاحتفال بزيارته، كان قد تقرّر في العشيّة إجراء تصفيةٍ نهائيّةٍ لرواسب الخرافات الموروثة من الراهبات اللائي كنّ، من قبلُ، صاحبات المركز؛ فأُزيلت جميع الصور التقويّة، وبقيت وحدها الصلبان بارزةً في كلّ ردهة؛ وقد أسند إلى "سيلستان" البوّاب أمر تنسيقها على نحوٍ لائقٍ؛ ولكن، في الصباح، لم يعد هناك أيّ صليبٍ. وها هم الأطفال يعلنون ثورتهم.

واندفع المدير داخل أقرب ردهة اندفاعَ قذيفة، ليجد الأسرّة الثمانية الصغيرة جميعها مشغولةً، وقد رقد فيها الأطفال، بعد أن التفعوا بالأغطية حتّى رؤوسهم، وأقلعوا عن كلّ حركةٍ.

وصاح السيد سارنيكي في صوتٍ كالرعد:

– "ما هنالك؟"

فلم يردّ على صياحه أيّ جواب، فيما كانت ثمانية أزواجٍ من العيون تحدّق فيه وتتفحّصه كالمَثاقب؛ حينئذٍ انتهج لهجة أوفر استرضاءً وقال:

– "ما الذي دهاكم؟ إنّ الماء لساخنٌ، فلماذا ترفضون الاستحمام؟"

غير أنّ الردهة ظلّت وكأنّها مصابةٌ بالخَرَس، إذ لم يصدر أيّ جوابٍ عن أيّ طفلٍ.

وفجأةً سُمع صريرُ حَصْباء عند البوّابة، تلتها فرقعةٌ مألوفةٌ، واندفعت "پترونيل" مهرولةً، وهي تصيح:

– "السيد المفتّش!"

وكانت مفاجأةٌ مُربكةٌ، فوصول المفتّش لم يكن متوقّعًا قبل وقت الظهر؛ وثارت ثائرة السيد سارنيكي فأمسك بصبيٍّ في الثامنة، طفق يجأَر ويتخبّط مثل شيطانٍ صغيرٍ؛ ولكن ما كاد المدير يرفعه حتّى أطلق صيحة ألمٍ، إذ إنّ الصبيّ لم يتورّع عن عضّه كي يفلت من قبضته.

وجاء صوتٌ من خَلف ظهر المدير قائلاً:

– "ماذا هناك؟"

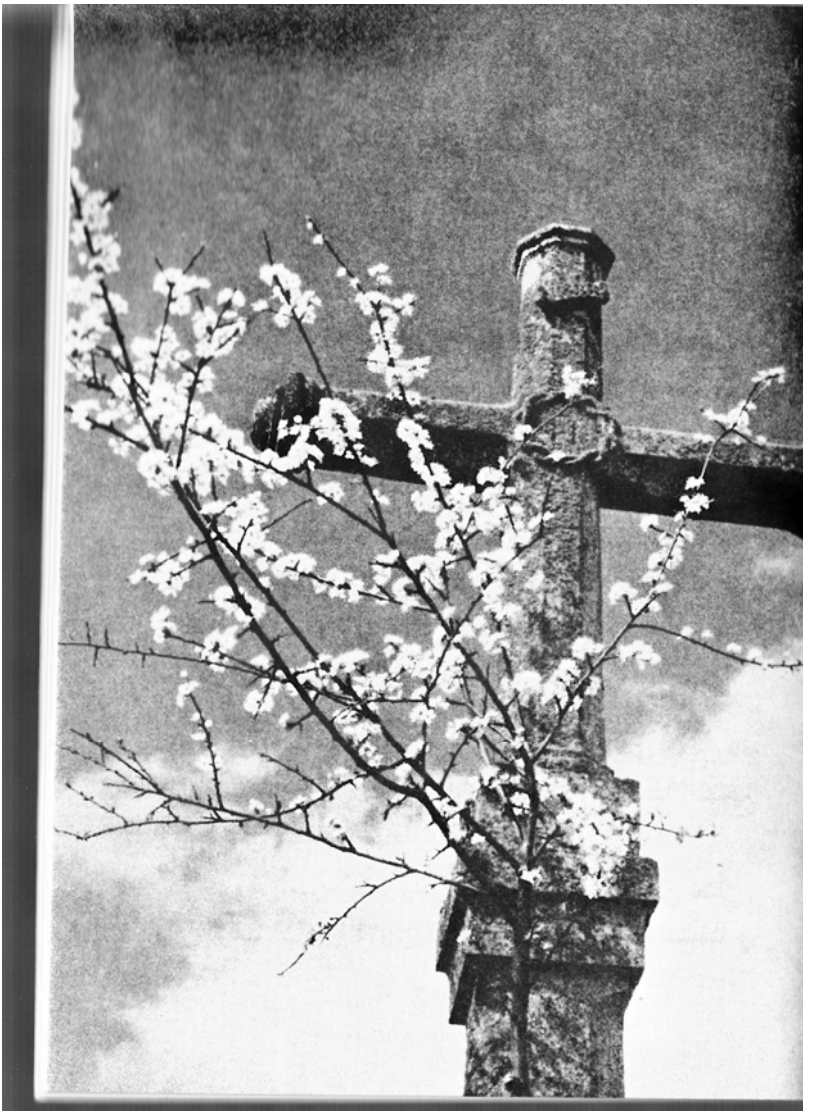

وكان ذاك صوتَ المفتّش الذي ولج الرَدهة لتوّه، وقد جذبته إليها الجلبة الناشبة، وكاد سارنيكي يفقد صوابه، فراح يتلعثم:

– "ذلك أنّ... ذلك أنّ الأطفال يرفضون النهوض والإجابة على الأسئلة. هذا ما تؤدّي إليه تربيةٌ رجعيّةٌ! فلو أنّ الأهالي..."

ودنا المفتّش من الصبيّ الذي كان قد دلّ على نزعته الاستقلاليّة، وحاول الجلوس عند حافّة سريره، غير أنّ الصبي عَلِق يصيح:

– "إيّاك أن تمسّني! إنّ ما نقوم به ليس بنَزْوةٍ، بل هو قرارٌ مبيّتٌ! فلقد عقدنا العزم جميعًا، صبيانًا وبناتٍ، على التزام السكون، فلا نتحرَّك، حتّى تُحقّق طلباتنا. إنّنا خاضعونَ لحكمٍ ديمقراطيٍّ، ونحن نؤلّف الأكثريّة، فما رأيك، إذن؟"

والتفت المفتّش نحو سارنيكي سائلاً:

– "وماذا يطلبون؟"

غير أنّ المدير كان قد استشاط غيظًا، وبحركة مداهمة، أمسك بخناق الصبيّ، ونهض به، رافعًا معه أغطية السرير كلّها، وسط عاصفةٍ من الركل كان الفتى يوجّهه الى المعتدي عليه في هياجٍ عنيفٍ.

وانطلقت صيحات الاستنكار والاستهوال من ثماني حناجر، تلتها رنّةٌ خاطفةٌ على البلاط، حيث استقرّ، بشكلٍ سافرٍ، صليبٌ ضخمٌ.

وللحال أعتق سارنيكي ضحيّته، في حين كان المفتّش يحدّق فيه بنظرات استفهامٍ، وفي مثل ومضة برقٍ، كان الصبيّ قد رفع الفراش، ودسّ الصليب في مكانه، وعاد فاستلقى، ساحبًا فوقه الأغطية.

وزأر المدير، وقد شحب لونه غضبًا:

- "الآن قد أدركت أين اختفت الصلبان، ستؤدّون لي ثمن عملكم غاليًا أيّها المدّعون المأفونون".

غير أنّ المفتّش، بحركةٍ منه، ألزمه الصمت، ووضع يده على رأس الصبيّ الذي كان يرتعد من التأثّر، وسأله:

- "ما اسمك يا صغيري؟"

- "يوريك... اسمي يوريك".

- "والآن، قل لي لماذا أخفيت هذا الشيء تحت فراشك". وطأطأ الصبيّ رأسه، فتعالى من زاويةٍ أُخرى من الردهة صوتٌ رقيقٌ قائلاً:

- "هيّا، تكلّم!"

في تلك الأثناء، كانت "پترونيل" قد دخلت خلسةً، ومكنستها في يدها، فرمقها يوريك بنظرة تواطؤٍ، وصوّب نحَو المدير إصبع اتّهامٍ وانتقامٍ، وقال، وهو يوقّع كلّ لفظةٍ من لفظاته:

- "إنّنا نرفض أن تُنتزع صلباننا".

فأصدى لإعلانه هذا انفجار تصفيقٍ انطلق من أيدي جميع رفاقه الذين استوَوا جالسين ليحيّوا قوله ويؤيّدوه؛ وحفزَ هذا التشجيع يوريك على استئناف شهادته، فقال:

- "نحن مسيحيّون، ونحن نلمّ بمبادئ ديننا، ونحن نصلّي، ونحن نؤلّف الأكثريّة! ومن ثمّ فقد قرّرنا الاحتفاظ بصلباننا في ردَهاتنا؛ وبما أنّهم كانوا يبيّتون نيّة انتزاعها اليوم، فقد سبقنا وأخفيناها تحت أَفرشتنا. وإن كنتم

تريدون أن ننهض، فلا بدّ من أن تقطعوا عهدًا بأنّ جميع الصلبان ستعود لتثبّت في أمكنتها؛ وإلاّ بقينا نحن في أماكننا، ولن نتحوّل عنها".

حينئذٍ انتشر التصفيق من ردهة إلى ردهة، وردّدت أصداءه قناطر الدهليز، وبدا جليًّا أنّ جميع نُزَلاء المركز كانوا على تربّصٍ ووفاقٍ.

أما المفتّش، فكان يفتل شاربيه، وقد استحوذ عليه ارتباكٌ سافرٌ، وأخيرًا قال:

– "طيّبٌ، طيّب، يا يوريك! سنعيد لكم صلبانكم؛ إنّكم ما زلتم صغارًا فلا تدركون، ولكنّكم في ما بعدُ، ستدركون".

فردّ عليه صوتٌ ضئيلٌ، من ركنٍ آخر من الردهة:

– "سندرك ماذا؟ فغدًا، مثل اليوم، الصليب هو الصليب!"

وتجلّت على المفتّش دلائل الهزيمة، فقال:

– "اهدأوا روعًا يا أولادي، ولا سيّما أنّ صلبانكم ستُعاد لكم. أمّا الآن، فعليكم بالاغتسال في انتظامٍ، وإلى اللقاء".

وفيما كان المدير والمفتّش يغادران المكان، كانت "پترونيل" من خلفهما، تضع إبهامها على أنفها، وتومئ بأصابعها تعبيرًا عن السخرية، ثمّ أغلقت الباب في تؤدةٍ، وانتصبت أمام يوريك وسألته:

– "هل أحسنت لكم نصحًا؟"

فوثب يوريك على عنقها هاتفًا:

– "إنّك لجوهرةٌ يا "پترونيل"".

إلا أنّها أفلتت منه قائلةً:

– "صه، فقد تضعونني في موقفٍ حرجٍ".

في تلك الأثناء، كان نقاشٌ مأساويّ الطابع يدور في مكتب المدير:

– "ألا ترى، أيّها الرفيق، أنّكم بمقاومتكم لهم بالعنف، تستفزّون تشبّثهم بالخرافات التي كان من شأنها أن تخمد سريعًا وتضمحلّ لو أنّكم لم تعيروها بالاً! ولا ريب أنّنا نضلّ السبيل، لو نحن أسهمنا في صنع الشهداء".

ولكن المدير ردّ في انفعالٍ:

– "وإذن، فعلينا أن نعطيهم لا الصلبان فحسب، بل كلّ ما عداها: الكاهن، والقدّاس، والاعتراف، والمناولة، وجميع الترّهات التي يطالبون بها. إلى أين، ترى، سينتهي بنا ذلك؟ ربّمَا قد تطلب مني أيضًا حضور القدّاس!"

وردّ المفتّش مفكّرًا:

– "ربّمَا، من يدري؟ إذ لا بدّ من الاندساس في صفوفهم للظفر بثقتهم واستمالتهم! أما الوسائل العنيفة، فهي قصيرة المدى؛ وبقدر ما ستتّسم مناوراتنا بالكتمان، سيكتب لها النجاح؛ إنّنا عاكفون على وضع مخطّطٍ يتّصف بالكمال. ولكن هل أنت واثقٌ من جهازك؟"

– "مثلما أنا واثقٌ من نفسي".

– "حسنٌ. إنّ الزمن يعمل لصالحنا".

– "وهل أنت على ثقةٍ تامّة من ذلك؟"

وابتسم المفتّش، وهو يسجّل هذه الملاحظة في ذهنه، متّهمًا الرفيق سارنيكي بشيءٍ من الانهزاميّة.

١٧

القدّيس أنطونيوس
والشرطيّ وَفطَائر المرفع

القدّيس أنطونيوس

والشرطيّ وفطائر المرفع

– "ناوليني خُفَّيّ، يا أنييس".

لقد كان الأب ميشيل عائدًا من زيارته للمرضى، مبلّلاً كالحَساء، ومتّسِخًا حتّى آذانه، وقد أعادت رؤيته لأرضيّة المدخل الخشبيّة، بنظافتها اللامعة، إلى ذهنه، بعض مبادئ النظام الصارمة التي أحدثتها في المنزل شقيقته القادمة حديثًا؛ وصاح من جديدٍ، بصوتٍ مُرعدٍ، وهو واقفٌ فوق المِمسحة:

– "أعطيني خُفّيّ، وإلاّ انتشر الطوفان".

وشقّ باب المطبخ، فبرز منه رأسٌ صقيل الشعر؛ وتجمّد الأب في مكانه حين لمح إصبع شقيقته منذرًا، وقد شفَعت إشارتها بتحذيرٍ قائلةً:

– "صهْ!"

ثمّ أضافت، بصوتٍ خفيضٍ، وقد اتّقد خدّاها، واتّسعت حدقتاها رعبًا:

– "إنّه هنا!"

وأُصيب الأب ميشيل بصدمةٍ. فوحده أمرٌ خطيرٌ كفيلٌ بصرف اهتمام أنييس عن نظافة الأرضيّة، ووحدهم رجال الشرطة السرّيّة قادرون على إيقاعها في اضطرابٍ، وسألها:

– "هل هو شرطيٌّ؟

– "أجل"

– "وهل جاء ليعتقلني؟"

– "أجل"

– "وهل تركته في المطبخ وحيدًا؟"

واستعادت أنييس رباطة جَأْشها لتردّ في حزمٍ:

– "لقد كان عليّ أن أُنذرك، فأوعزت إليه بمراقبة فطائري".

واستروحَ الأب ميشيل رائحة الحلوى، فتذكّر أنّ الوقت وقت المرفع، وأنْ لا أحد في الدنيا يحاكي شقيقته مهارةً في صنع الفطائر. أوَلم يستطع ذلك الوَغد اختيار يومٍ آخر؟ وتمتم، مستغيثًا بشفيع الأمور الميؤوسة، وهو ينتزع أحذيته القذرة، إذ كان احترام النظام، قد تغلّب، موقّتًا، لدى شقيقته، على الرهبة من وجود الشرطيّ، فجاءته بالخُفّ الذي كان أولاد عمٍّ له في أميركا قد أهدوه إيّاه.

وجهَد الأب ميشيل في استعادة رباطة جَأشه، بعد موجة

الاضطراب التي كانت الصدمة المداهمة قد أشاعتها في نفسه، وصار إلى المطبخ في خطواتٍ صامتة، وعندما فتح الباب، لمح شابًّا أمـــرد ممسكًا بمصفاةٍ؛ وابتدر الغريبُ، من غير أن يدير نظره، بالقول:

– "إنها قد أخذت تشقرّ".

ولكن، لّما لم يأته أيّ جواب، أدار رأسه، وهتف:

– "مساء الخير، يا حضرة الكاهن! لقد أحسنت عملاً بالمجيء، فقد كنّا في انتظارك؛ أما أنتِ، يا سيّدة، فاستعيدي مهمّتك، ولكن، حذارِ، فقد أوشكت فطائرك على النضوج؛ والآن فلننفـــرد نحـــن الاثنان!"

وفيما كان الأب ميشيل يوصد باب المطبخ، رأى شقيقته تلوّح بالمقلاة بإحدى يديها، في حين كانت تومئ له بالأُخرى لتنبئه بأنّ كلّ شيءٍ يسير على خير وجه، فهي قد أحاطت القدّيس أنطونيوس علمًا بالأمر، وهو كفيلٌ بضمانٍ سلامته.

وكان الكاهن ينظر شَزْرًا إلى ضيفه الدخيل، الذي خلَت ملامحه من أَمارات العِداء التي يتّصف بها عمومًا رجال الـــشرطة الـــسرّيّة، والذي كان واقفًا، وقد دَسّ يده في جيبه، وراح يجوس ببصره زوايا الغرفة المعتمة؛ ثمّ بادر بالسؤال:

– "هل أنت بمفردك؟

– "أجل

– " إذن، هيّا، إنّي آخذك.

– "يا الله، ولكن لماذا؟

– "ستعلم قريبًا! اصطحبْ معك عدّتك الكهنوتيّة كاملةً، وبعض الماء المقدّس".

وخُيّل إلى الأب ميشيل، في تلك اللحظة أنّ ساقيه قد تحوّلتا إلى ساقين من قطنٍ، وسأل، وهو يحاول التشبّث بآخر خيط أملٍ:

– "وهل عليّ أن أصطحب حقيبة أمتعتي أيضًا؟"

وردّ الشرطيّ، في تهكّمٍ مَمْجوجٍ:

– "لن تكون في حاجةٍ إليها؛ ولكن عليك أن تسرع، فأنا على عجلة". وداهمت الأب ميشيل وَعكةٌ مفاجئةٌ، فانهار على مقعد قريبٍ، وخيّل إليه أنّ الأمر قد قُضي، وأنّهم إنّما يدعونه كي يمنح الأسرار الأخيرة لبعض المحكومين بالإعدام، ثمّ يعمدون إلى القضاء عليه في زاويةٍ من شارعٍ مهجورٍ، فيمحون بذلك شاهد الجريمة؛ وتدفّقت إلى ذاكرته سوابق مشؤومةٌ مماثلةٌ، فطفق قلبه يدقّ بعنفٍ، وفي محاولةٍ لتهدئة روعه سأل:

– "وهل الماء المقدّس ضروريٌّ فعلاً؟"

وهزّ الشرطيّ كتفيه قائلاً:

– "وأنّى لي معرفة السير في دهاليز مَساخركم؟ ستقرّر أنت عندما ستصل. لكن من الأفضل أن تصطحب عُدّتك كاملة".

واضمحلّ كلّ شكٍّ كان لا يزال يساور الأب ميشيل، وتأكّد

له أنّه ماضٍ في رحلته الأخيرة، وكانت ساقاه ما زالتا تصطكّان، عندما شقّ باب المطبخ، وقال، في صوتٍ مرتجفٍ:

– "إنّني ماضٍ مع هذا السيّد يا أنييس".

وفي الحال، اندفعت خارجًا، وقد تخضّبت محمرّةً كشقائق النعمان، واعترضت مستنكرةً:

– "وفطائري؟"

وأربك هذا الاعتراض الشرطيّ، فأدار بصره نحوها، وأجاب في خشونةٍ:

– "إنّني آسفٌ؛ ولكنّ المهمّة التي تستوجب مساعي حضرة الكاهن الحميدة، هي أشدّ خطورةً من فطائرك".

وأطلقت أنييس صيحةً أليمةً:

– "أيّها القدّيس انطونيوس البادواني، هل خلا قلبك من الرحمة؟"

غير أنّ الأب ميشيل قال لها، في صوتٍ مضطربٍ:

– "دعكِ من هذا يا مسكينتي، وأعدّي لي سريعًا بدلتي وبطرشيلي والماء المقدّس".

وأضاف الشرطيّ:

– "ومرشّة الماء المقدّس أيضًا".

وانهمكت أنييس، وقد آنسَت بعض اطمئنانٍ؛ أما الأب ميشيل

فدسّ في جيبه كتاب الصلوات، ثم حشد جميع طاقاته الذهنيّة والنفسيّة لأداء فعل ندامةٍ كاملٍ؛ وانساب في ذاكرته شريط حياته، في سرعةٍ مذهلة، عائدًا به إلى مطلع حداثته؛ وتمنّى لو تسنّى له أن يعترف؛ ثمّ سأل:

– "هل بإمكاني إبلاغ الأسقف؟

– "هذا ما كان ينقصنا بعد! إنّني آمرك بالكُتمان التامّ! أسمعت؟، وأنتِ يا سيّدة، إن أطلعتِ أحدًا عن أمر زيارتي لكم هذا المساء، لأرسلتك فورًا إلى صديقك القدّيس انطونيوس! هل أصبحت جاهزًا، يا حضرة الكاهن؟"

وأومأ الأب ميشيل بالإيجاب، إذ كان التأثّر قد عقد لسانه؛ وقبّلته أنييس، وهي تهمس في أذنه:

– "أرجوك أن توقظني، عندما تعود".

وجالت في خاطر الكاهن فكرةٌ مريرةٌ:

– "يبدو أنّ هذه البلهاء لم تدرك بعد أنّني لن أعود!"

ومن غير أن يدير رأسه، تأثّر خطى الشرطيّ الذي كان يدلف إلى السيّارة، ولكنّه تبيّن فجأةً، أنّه، من جَرّاء اضطرابه، قد أغفل انتعال حذائه، فقال، وهو يرجو الظفر بمهلةٍ ولو قصيرةٍ:

– "إنّني ما زلت منتعلاً خفّيّ".

فردّ الشرطيّ قاطعًا:

– "ليس لذلك أيّ شأنٍ".

وانسابت السيّارة، على مهلٍ، ثمّ ما لبثت أن انطلقت مسرعةً؛ كانت تلك هي المرّة الأولى يستقلّ فيها الكاهن سيّارةً فارهةً، وخطر له أنها ربّمَا كانت المرّة الأخيرة أيضًا، فتنهّد بالدعاء:

– "ارحمني يا يسوع إلهي!"

فسأل الشرطيّ، وهو يضغط على جهاز السرعة: "ماذا تقول؟" فأجاب الكاهن بصوتٍ أجشٍّ حزينٍ:

– "إنّني أُوكل إلى الله نفسي".

وأغرق الشرطيّ في الضحك، بحيث زاغ بالسيّارة حتّى كاد أن يودي بها إلى الهوّة، ثمّ قال:

– "إنّك، في الحقيقة، بحاجةٍ إلى ذلك. هل تودّ أن أساعدك على فحص ضميرك؟"

وثار الكاهن مستنكرًا، وردّ في قسوةٍ:

– "شكرًا فدستورك الأدبيّ يختلف عن دستوري".

وأجاب الشرطيّ متهكّمًا:

– "هكذا، إذن! يسوّغون لكم اتّهام قريبكم بالخبث والدعارة والوحشيّة؟ والمقامات العليا على علمٍ بذلك...

في تلك الأثناء، كانت السيّارة تنطلق بسرعة ١٢٠ كيلومترًا، غير عابئةٍ بالمستنقعات والحفر؟ وبعد مضيّ نصف ساعة، اختلطت على الأب ميشيل مَعالم الطريق ودلائل الاتّجاه؛ ولكنّ أيّ شأنٍ،

بعدُ، للطريق، طالما أنّ الموت ينتظره في نهايته؟ ومنذ أن استقرّت في خلَده حقيقة ذلك المصير، آنسَ شيئًا من الاطمئنان، وراح يردّد في اندفاعٍ، وهو يتلو سبحته: "الآن وفي ساعة موتنا".

واجتازا كالبرق وسط وارسو، واندفعا شطر الضاحية؛ وتفاقمت حيرة الكاهن عندما تبيّن له أنّ مركز الشرطة السرّيّة لم يكن هو هدفهما؛ وسرَت في ظهره قُشعريرةٌ عندما تخيّل أنهم ربّمَا سيقضون عليه من غير محاكمةٍ ولا استجوابٍ، واستحوذ عليه الذُعر، فبات لا يتوقّع سوى مواجهة فصيلة تنفيذ الإعدام، عند مدخل الغابة، حيث الحفرة فاغرةٌ فُوهتها لالتهامه.

وفجأةً توقّفت السيارة أمام منزلٍ تشعّ منه أضواءٌ تحاكي ضوء النهار، وينساب منه إيقاع رقصٍ متدفّق الحيويّة، تقوده أنغام الأكورديون. وتنهّد الكاهن ساخطًا:

– "يروق أيضًا لهؤلاء الوحوش اللهو فيما هم يقتلون شرفاء القوم".

في تلك الأثناء، كان رفيق دربه يفتح البوّابة، صامتًا، وهو يجاريه عن كثَبٍ، ثمّ استلّ من جيبه مفتاحًا، وقال، في تأدّبٍ:

– "تفضّل بالدخول".

وسبَر الأب ميشيل المدخل بنظرةٍ متمعّنة، فازدادت حيرته، إذ لم يكن في المكان ما يحاكي قاعة انتظارٍ في مركز شرطةٍ. بل كانت

المشاجب مثقلةً بمعاطف الفرو، والمعاطف الواقية من المطر، وقد انتظمت تحتها في تنسيقٍ، جزمات نساءٍ وأولادٍ، في حين كانت الموسيقى المتدفّقة من الغرفة المجاورة تحاول تغطية استهلال وليدٍ يبكي.

وإذا بابٍ يُفْتَح، وبامرأةٍ شابّةٍ تنقضّ على عنق الشرطيّ قائلةً:

– "ما ألطفك يا عزيزي أنطوان. ها إنّ كلّ شيءٍ معدٌّ، فتفضّل بالدخول يا حضرة الكاهن".

ومدّت له يدها، وقد أشرق وجهها بابتسامةٍ ساحرةٍ.

ومن خلال فُرجة الباب، تجلّى مشهدٌ على جانبٍ كبيرٍ من الروعة: نساءٌ وأولادٌ وقد ارتدوا أجمل ثيابهم، وتحلّقوا حول سريرٍ يحتلّ مركز الصدارة في وسط الردهة، وعلى المنضدة التي تعلو الجمع، ارتقى فَتيان يعزفان بالأكورديون.

وكان هذا المشهد من الغرابة، بحيث ألمّ بالكاهن دُوارٌ؛ واتّضح له جليًّا سبب اختطافه على هذا النحو الفروسيّ، وأدرك أخيرًا الدافع إلى جلب البطرشيل، والماء المقدّس، و"عدّة الكاهن"...

وعند عتبة الباب، التفت الشرطيّ، وحدّق فيه بنظره الفولاذيّ، وقال منذرًا:

– "إن أنت بُحت بكلمةٍ واحدةٍ حول هذه المهمّة الدقيقة التي كُلّفتَ بها اَلْآن فستجد نفسكَ، في لمحة عينٍ، وقد صرت إلى أحضان إبراهيم. أمّا الآن، فهيّا عمّد ابني".

ورغم ذهوله، أخذ الأب ميشيل يستَروِح، استرواح خبيرٍ، الرائحة العطريّة المنبثقة من رُكام فطائر كانت تتصدّر المنضدة، والتي كانت تحاكي في طيبها تلك التي كانت تَضوع في منزله.

وتذكّر فجأةً أنّه لم يكن قد تناول أيّ طعامٍ منذ الظهر، وتساءل، وهو يرتدي بدلته، هل ستبلغُ القحة بأصحاب المنزل حدّ إعادته على الطَوى.

وفي تلك الأثناء، كانت ربّة المنزل ترسم، في تقوًى، إشارة الصليب وتصوّب نحو زوجها المنتصب كالشمعة، نظراتٍ صاعقةً وهي تقول:

– "هيّا يا انطوان، لقد أزِف الأوان".

فرسم الشرطيّ، في ارتباكٍ، إشارة الصليب، وتمثّل به جميع الحاضرين؛ ثمّ ما لبثت أن استولت على الوليد سيّدةٌ مسنّةٌ جسيمةٌ، وانحدر أحد الموسيقيّين من فوق المنضدة ليقف إلى جوارها؛ وأعلنت الزوجة الشابّة، في صوتٍ مفعمٍ بالتأثّر:

– "ذانِك هما العرّاب والعرّابة".

وسأل الكاهن، وهو ما زال يتخيّل أنّه في حلمٍ:

– "ما اسم الطفل؟"

فأجابت الأمّ، وهي تمدّ للكاهن مِمْلحةً:

– "اسمه أنطوان، مثل والده! وربّما إنّك قد نسيت الملح..."

وكان قد عقب الضجّة الصاخبة، صمتٌ رهيبٌ، حتّى الطفل الذي بات محطّ أنظار الجميع، والذي ارتاح إلى الهَدْهدة الرقيقة بين ذراعي عرّابته، قد صمت أخيرًا، وعلّق على القنديل عينين سوداوين تلتمع فيهما الدموع.

وابتدر الكاهن بالسؤال: – "ماذا تريد يا أنطوان؟"

فردّت أصواتٌ كثيرةٌ، في وقارٍ: – "الإيمان".

واستطاع الأب ميشيل أن يميّز وسط تلك الأصوات المتآلفة، جَرْس صوت رفيقِ دربه الرنّان، الذي كان يتأمّل وليده في ذهولٍ ونشوةٍ، وفي آنٍ معًا، يؤدّي ببراعةٍ دور خادم المذبح، فقد كان يمدّ للكاهن وعاءً يحتوي الماء المقدّس والمِرشّة.

لم تكن أنييس قد رقدت بعد، حوالي الساعة الثانية صباحًا، عندما توقّفت السيّارة أمام الباب؛ وهي كانت تتوقّع رجوع أخيها بعد أن أَوكلت أمره إلى القدّيس انطونيوس الكبير؛ ثمّ إنّ الفطائر التي كانت تفعم المنزل برائحتها العطرة كانت تبقيها يقظةً، إذ لا بدّ أن يكون أخوها الكاهن على جوعٍ شديدٍ، فيقبل بنهمٍ على الرائعة المطبخيّة التي استطاعت إتقانها رغم الانفعالاتِ الشديدة التي كانت تجتاحها.

وإذ تلكّأ بفتح الباب هرعت إلى النافذة لتستطلع السبب، فكادت تهوي على الأرض دهشةً، إذ إنّ ما رأته يكاد لا يصدّق، فكلٌّ من الأب ميشيل والشرطيّ، قد ضمّ الآخر بين ذراعيه، في

مصافحةٍ دافقةٍ بالودّ؛ وما كادت تسدل الستار، حتّى كان شـــقيقها يدخل وهو يتمتم أنشودةً جَذلى، ولم يكن يبدو عليه لا جـــوعٌ ولا إعياءٌ" ممّا زاد أنييس ذهولاً وبادرته بالقول، في لهجةٍ معتدّةٍ:

– "إنّ الأنظمة الجديدة المتعلّقة بالصوم الافخارستيّ، تتيح لك تناول بعض طعام؛ وإنّ الفطائر تذوب رقّةً، فتفـــضّل بـــالجلوس إلى المائدة!

وتملّص الأب ميشيل من دعوة شقيقته، بشيءٍ من الإحـــراج، فقال:

– "شكرًا، فأنا لست بجائعٍ

– "أيّها القدّيس أنطونيوس الكبير! هل أُصبت ببردٍ إذن؟

– "كلاّ، كلاّ، بل الذنب ذنب صديقك القدّيس أنطونيوس"

وتطلّعت إليه أنييس ذاهلةً:

– "وهل القدّيس أنطونيوس يمنعك من أكل فطائري؟"

وازداد إحراج الكاهن تفاقمًا، ثمّ ما لبث أن اتّخذ لهجةً متعاليـــةً، وقال:

– "يا شقيقتي المسكينة، أنتِ تنسين أنّني مقيّدٌ بسرّ المهنة. فقد أدبّر مع صديقك القدّيس انطونيوس خططًا لا يسوغ لك أن تدسّي أنفك في تفاصيلها. أمّا الفطائر فسنتناولها غدًا، أو بالأحرى، هـــذا النهار، والآن عِمْتِ مساءً".

وانسلّ بانتظامٍ، فيما كانت أنييس تطفئ الشمعة، تحاشيًا عمّا قد تسبّبه من حريقٍ لن يرضى عنه القدّيس أنطونيوس، وهزّت رأسها مدمدمةً: "أيّها القدّيس لقد استجبت تضرّعي، استجابةً فاقت توقّعي!"

فهي، شأن بنات حواء، كانت حريصةً على إقحام نفسها في الأحداث الخطيرة.

١٨

دمٌ بدمٍ

دمٌ بدمٍ

مدرسةٌ راعويّةٌ، في مكانٍ ما بالصين.

أحداثٌ، فيها، صُفر الوجوه، بعيونهم المغوليّة المشدودة الأطراف، يَتْلون صلاتهم في خشوعٍ لا يشوبه أيّ شرودٍ، على حدّ ما يحدث لأترابهم من أحداث العالم، بل هم يصلّون بكلّ خفقةٍ من قلوبهم، ويؤكّدون كلّ كلمةٍ يلفظونها، فيتردّد وقع اللغة الصينيّة الرشيقة على ثغورهم الورديّة، في مثل جَرْس نشيدٍ.

فجأةً راودت الطفلة "لي" خاطرةٌ رهيبةٌ: "ربّما كانت هذه هي المرَّة الأخيرة نتلو فيها صلاتنا الجماعيّة، كلّنا معًا، بصوتٍ عالٍ، ربّمَا، مَن يدري!"

غير أنّها ما لبثت أن أَشاحت عن هذا الشرود لتركّز تفكيرها حول الكلمات التي كانت تتلوها: "أعطنا خبزنا، كفاف يومنا".

قلّمَا كانت "لي" تتناول خبزًا، بل إنّ الأرزّ هو ما تَطعَمه يوميًّا، صبحًا وغُدوةً وعَشيّةً؛ وقد سبقت فسألت الراهبة المدرِّسة لماذا لم

يقل يسوع: "أعطنا اليوم أرزّنا كفافنا"؟ وفاجأ هذا السؤال الأخت "أوفرازي" التي لم تكن في علم اللاهوت طويلة باعٍ، ولكنّها كانت تحمل في صدرها قلبًا مفعمًا بالطيب، فأجابتها: "ذلك لأنّ الخبز الذي نطلبه هو الافخارستيّا... إنّك تطلبين من يسوع المناولة اليوميّة يا صغيرتي، فجسمك يفتقر إلى الأرزّ، أمّا نفسك التي هي أغلى من الجسد، فهي في جوعٍ إلى ذلك الخبز، خبز الحياة".

وفي شهر أيّار، احتفلت "لي" بمناولتها الأولى، وقد أسّرت، آنذاك، إلى يسوع الذي استضافته في قلبها: "هبْني أبدًا خبزك اليوميّ، كي تعيش نفسي وتنعم بالصحّة". ومنذئذ، ما انقطعت "لي"، قطّ، عن المناولة اليوميّة، وقد مارستها حتّى ذلك اليوم سبعًا وأربعين مرَّةً؛ وفي ذلك اليوم بالذات كانت تتوسّل إلى يسوع ألاّ يتيح للأشرار منعها من التناول اليوميّ، وتقول له: "ماذا أستطيع بدونك؟"

وفُتح الباب، فجأةً، بعنفٍ، فخرس الأطفال وقد جمَّدهم الرعب، عندما ظهر ضابط الشرطة محاطًا بأربعةٍ من مرؤوسيه، وفردَ طِرْسًا من الورق، تلا منه، بصوتٍ مزعجٍ، بعض عباراتٍ، ثمّ أسرع إلى الصليب المعلّق على الجدار، فطرحه أرضًا، وداسه وهو يزمجر:

– "إنّ الصين الجديدة لن ترضى بمثل هذه التُّرَّهات المقيتة". ثمّ خاطب الأطفال قائلاً: "هلمّوا ردّوا لي، على الفور، كلّ ما لديكم من أصنامٍ". وكانت "لي" تدرك جيّدًا مطلبه، فجميع تلاميذ المدرسة كانوا يحملون صوَرًا ذات رموزٍ مقدّسةٍ، وهذا ما كان يثير مخاوف

ممثّلي الصين الجديدة وسخطهم، وكان لا بدّ من تسليم تلك الصوَر، تحت طائلة أسوأ ضُروب الانتقام.

وتطلّع الأطفال إلى راهبتهم التي باتت خرساء كالتمثال، ثمّ راحوا ينفّذون الأوامر، وقد حطّم الأسى قلوبهم، فقد كان لصورهم الجميلة منزلةٌ في نفوسهم عزيزةٌ.

أما "لي" فقد كانت راغبةً في الاحتفاظ بصورة الراعي الصالح، التي كانت أَثيرةً لديها، إذ هي ذكرى مناولتها الأولى؛ وقد حاولت دسّها في صدرها، إلاّ أنّ صفعةً رنّانةً عاجلتها قبل أن تتمكّن من ذلك. وصاح بها الضابط قائلاً:

– "أيّتها القذِرة، أهكذا تخدعين الجمهوريّة؟ ألا هاتوا لي والد هذه الطفلة الشقيَّة".

بعد ربع ساعة، كانت "لي" ووالدها يُساقون، محاطين برجال الشرطة، مقيَّدي الأيدي خلف ظهورهم، إلى الكنيسة التي سبقهم إليها جميع أهالي القرية، وكُدّسوا فيها لسماع عظة الضابط الذي خُيّل إليه أنّه، بها، سيستطيع تصفية جميع حماقاتهم، دفعةً واحدةً، وإلى الأبد. وقد ارتقى درجات الهيكل، وراح يجود بالشتائم، ويُفرط في التمثيل، كي يبرهن بالدليل القاطع أنّ المبشّرين هم عملاء الإمبرياليّة الأميركيّة، وأنهم يحاولون التغرير بهم ليسلبوهم أموالهم.

ثم رفع عَقيرته، مضاعفًا صياحه، وأوعز إلى رجاله بتحطيم بيت القربان، والتفت إلى الشعب قائلاً:

"سنرى الآن هل مسيحكم يقوى على الدفاع عن نفسه. انظروا ما سأفعل به، وتبيّنوا بأنفسكم ما يخدعونكم به بشأن "الحضور الحقيقيّ" ومثل تلك الخُدَع التي يبتكرها القساتيكان ليتمكّن من استغلالكم على خير وجه".

وعندما فرغ من خطابه قذف أرضًا بكل ما كانت تحويه الكأس من قربانٍ، فارتدّ الجمع إلى الوراء مصعوقين...

وكتمت "لي" صيحة أَسًى، وهي ترى ما حلّ بخبزها العزيز. إنّها لم تكن تتوقّع، شأن بعض الحاضرين، أن تهبط صواعق السماء، فهي لم تكن في حاجةٍ إلى دليلٍ لدعم إيمانها، ولكن قلبها الصغير المُفعَم استقامةً وإخلاصًا، كان يَدمى لرؤية القربان مرميًّا على الأرض، ليس إلاّ.

وانفجر الضابط في ضحكةٍ وقحةٍ قائلاً:

– "أتأكّدتم الآن أنّ كلّ ما قيل لكم لم يكن سوى ترّهاتٍ؟ فلو كان مسيحكم مختفيًا تحت أعراض هذا الخبز، لما سمح لي أن أهزأ به..."

أمَّا "لي" فكانت تفكّر في نفسها: "ألم يهزأ بيلاطس أيضًا بيسوع؟ ولكنّ يسوع لم يقتله. إنّ الضابط يكرّر فعلة بيلاطس، وما القربان المرميّ على الأرض سوى المسيح في المحكمة، غير أنّه ليس للقربان دمٌ يسكبه، ولا يستطيع أن يموت مثلما مات يسوع على الصليب؛ لكنّه ربّمَا يتألّم؛ إنّني متيقّنةٌ أنّه يتألّم".

وأحسّت "لي" بالدموع تنساب على خدّيها، وتترك على شفتيها مَذاقها المالح؛ فهي تتألّم لألم يسوع، وتتنهّد لرؤية كلّ ذلك القربان المهدور.

في تلك الأثناء كان الضابط ينهي خطابه بقوله:

– "أفهمتم الآن؟ اذهبوا إذن، وويلٌ لمن يجرؤ على العودة إلى مغارة الخُرافات السوداء هذه!"

بعد لحظات كانت الكنيسة خاليةً إلاّ من الملائكة الذين كانوا، سجَّدًا، يبكون أمام القربانات البيضاء المرميّة على الأرض، ومن شاهد عِيان كان مختبئًا في جناح الجوقة العُلويّ، يتابع المشهد من خلال طاقة ضيّقة، هو المرسل الأب لوقا الذي روى لنا هذه الحادثة. لقد كان ينتظر ابتعاد عصابات المخرّبين، ويتلو، من الأعماق، صلاة تكفير حزينةً، وقد عزّ عليه استحالة نزوله لجمع القربانات المرميّة، لا خشيةً على ذاته، بل على أبناء رعيّته الذين كانوا قد تكتّموا عنه. وكان يردّد في أسًى: "يا سيّدي يسوع، ارحم نفسك، وامنع هذا التدنيس".

فجأةً فُتح باب الكنيسة بتؤدة وصمت، وانسلّت طفلةٌ في العاشرة، وسجدت، ثمّ دنت من الهيكل، وانحنت حتّى التقطت بلسانها قربانةً. وبعد صلاة شكرٍ وجيزة، قفلت راجعةً، في هدوء، مثلما دخلت.

ودُهش الأب لوقا عندما تبيّن له أنّها "لي" التي طالما عهِدها منطويةً على ذاتها، وراح يصلّي من أجلها، لئلاّ يكتشفها المضطهدون ويقع عليها منهم أذًى.

وفي غضون ذلك، كانت تتوالى عمليّات التطهير؛ وكانت قوّات أمن "الصين الجديدة" ماضيةً في تفتيش ضواحي القرية حيث اتّخذت لها مقرًّا، وقد سيطر الرعب على الفلاّحين فقبعوا في

أكواخهم لا يجرؤون على التحرّك.

وكلّ يومٍ، عند الفجر، كان المرسل المختبئ في الكنيسة يشهد مثلَ ما عاينه يوم الحادث المشؤوم: طفلةً تنسلّ إلى الكنيسة، فتسجد ثمّ تلتقط بلسانها إحدى القربانات، وتعود بتؤدة... وكم صلّى كي تستطيع التقاطها جميعًا! وأحيانًا كان يتساءل: "ألا تدري هذه الطفلة أنَّهَا تستطيع أن تتناول أكثر من قربانةٍ دفعةً واحدةً؟" إنّها، في الواقع، لم تكن تدري، فالأخت "أوفرازيا" كانت علّمتها أنّ قربانةً واحدةً كلّ يوم تكفي؛ ثمّ إنّها كانت حريصةً على أن تدوم سعادتها بالقربان أطول فترةٍ ممكنة...

إلى أن بقيت على الأرض قربانةٌ واحدةٌ.

وعند الفجر، دخلت "لي" كما ألِفتْ، ودنتْ من الهيكل، وسجدت.

كتم الأب لوقا صيحةً كادت تفلت منه، عندما شاهد شرطيًّا عند باب الكنيسة، يصوّب نحو الطفلة مسدّسه.

وانطلق صوت عيارٍ ناريٍّ، تلته ضحكةٌ مدوّيةٌ، وعبارةٌ وقحةٌ: "التقطيها أيّتها العاهرة!"

وخرّت الطفلة، وخُيِّل إلى الأب لوقا أنها لقيت مصرعها في الحال، ولكنّه ما لبث أن ذَهِل، عندما رآها تحبو صوب القربانة وتلصق بها فمها.

ثمّ انتابتها بعض ارتعاشاتٍ متقطّعةٍ تلاها ارتخاءٌ مفاجئٌ: لقد ماتت "لي".

ولكنّها، قبل موتها، كانت قد أنقذت القربانات جميعها.

١٩

وجهًا لوَجهٍ

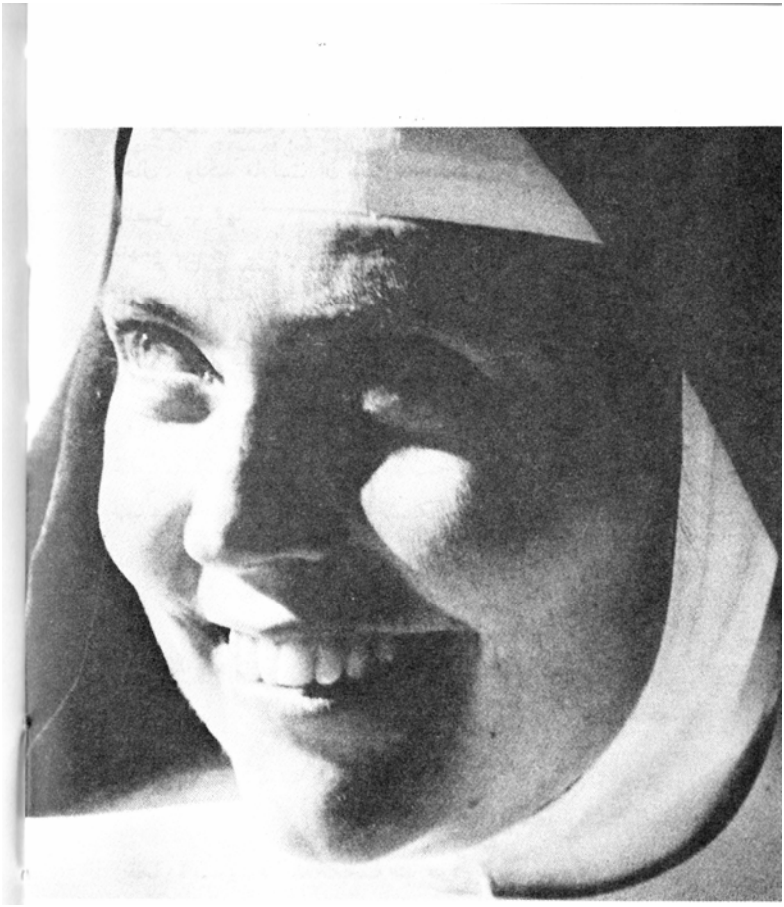

وجهًا لوَجه

منذ أسابيع، لا يزال "كرمل العناية"، القابع في مكانٍ ما بالصين، محاصرًا مثل برج حمامٍ لا منفذ له، ولا دعائم تسنده سوى صلات تشدّه إلى السماء. وملامسة الموت تصبح للنفوس الكبيرة مِهمازًا، إذ لم يتصاعد قطّ بخور الصلاة مستقيمًا ونقيًّا مثلما تصاعد في تلك الأيّام حيث الأخطار كانت داهمةً. وكانت الكرمليّات في حبسهنّ الطوعيّ، يقظاتٍ لما لدعائهنّ من شأنٍ خطيرٍ وضرورةٍ مِلحاحٍ، ولا سيّما أنّ لهذا الدعاء بالقدرة الإلهيّة ارتباطًا مباشرًا.

وكان على أولئك الراهبات، في ثيابهنّ الرهبانيّة البيضاء، مقاومة الغُزاة. وكانت الأخت مارتا، على الأخصّ، بما فُطِرت عليه من جرأةٍ وعنفوانٍ، تتصدّى لأعتى المهمّات والمخاطر التي تأذن بها العناية الإلهيّة، وكانت بعد أن وفّرت لضميرها أسباب الاطمئنان، تواجه يوميًّا الموت بكلّ بساطة، وهي تؤدّي واجبها.

لقد كان عليها القيام بأَوَدِ سكّان برج الحمام الإلهيّ، في حين

كانت المؤونات لا تَفتأ تتضاءل. كانت تنهج من الأساليب أبرعها، كي توفّر للجميع النصيب اليوميّ من الأرزّ الذي يتيح لهنّ استمرار العيش. وظلّت هذه الأساليب سرًّا لم يقف على مغاليقه سواها. ففي أيّام الإدقاع لم تكن تتورّع عن الارتماء بين أشداق الذئاب، لا يحميها سوى العون الملائكيّ، إذ إنّها كانت من التواضع والبساطة بحيث تلجأ أبدًا إلى الاستغاثة بالملائكة.

وكانت تحمل، ليلَ نهار، حزمةً ضخمةً من المفاتيح مثبتةً دائمًا إلى زنّارها، وقد استقرّ في يقينها أن مسؤوليّتها لم تكن موقوفة على الحمائم السجينة، بل تمتدّ أيضًا إلى السجين الإلهيّ، إذ كان المعبد تحت خِفارتها وقد أَودع فيه الكاهن المرشد، عند رحيله، القربان المقدّس، في حين كانت الثورة تزمجر في جوار الدير. وقد سُمح للكرمليّات بتناول تلك القرابين المقدّسة، إذا ما دعت إلى ذلك ظروفٌ ملحّةٌ، إلاّ أنّهن كنّ يتمهّلن في الإقدام على ذلك، راجياتٍ حدوث إنقاذٍ مُعجزٍ. ولم تكن الأخت مارتا فريسة أيّ وهمٍ، غير أنّها كانت تربَأ بنفسها عن حرمان حمائمها من زادهنّ الأخير، وبالتالي فقد كانت ترقد، في أثناء الليل، شأن كلب حراسةٍ، على حصيرةٍ عند باب المعبد الموصَد، فإن شاء الغُزاة أن يمرّوا فليمرّوا على جسدها!

وكانت ليلةٌ تحاكي الكثير سواها من الليالي، وقد اتّقدت نجومها وتألّقت في سماءٍ ساجيةٍ. وما كادت الأخت مارتا التي أنهكها النَصَب تستلقي، حتّى أيقظتها، مذعورةً، طرَقات أَعقاب البنادق على

الباب، وصوت ثَملٍ يصيح:

– "افتحي أيّتها الجيفة!"

وفي لمحة عينٍ هبّت واقفةً، والتفتت شطر بيت القربان متضرّعةً:

– "يا سيّدي يسوع، عليك أنت تدبّر الأمور. إنّ حمائمي في خطرٍ، وأنت نفسك، داخل الكأس، تبدو أعزل، فلا تسمح بالفضيحة والتدنيس!"

في تلك الأثناء كان الطرق على الباب يزداد عنفًا، فرسمت الأخت مارتا إشارة الصليب وأدارت المفتاح في القفل، ففتح الباب في صَخَبٍ، وظهر في فجوته مجنّدٌ يشهر مسدّسًا، وأعلن في الحال:

– "تفتيش باسم القانون. هيّا أَحضري الراهبات".

وتبيّنت الأخت مارتا على ضوء النور الخافت المنحدر من مصابيح الشارع قسماتٍ شنّجها الحقد، وعيونًا فوسفوريّةً تحاكي عيون الهِررة. وصوّب الدخيل مسدّسه إلى صدرها وهو يصيح:

– "نفّذي أوامري، وإلاّ...".

ولطالما أَلِفت الأخت مارتا مثل هذا التهديد، فلم تضطرب ولم ترتعد لها فرائص، بل راحت، في هدوءٍ وصفاء ذهنٍ، تقدّر فُرَص النجاة المُتاحة، والتي بدت لها، بشريًّا، معدومةً، إلا أنّها، من جهة الله، مُشْرَعة الأبواب.

وصاح المجنّد في جماعةٍ من الأشباح كانت تحوم في تؤدةٍ:

– "مكانَكم وانتظروا!"

فتجمّدوا، بغتةً، في أماكنهم، على بُعد مترين من البوّابة.

ثمّ التفت نحو الأخت مارتا وهو يصبّ عليها وابلاً من الشتائم سائلاً:

– "قولي، أيّها الطاعون المَقيت، هل هنا يرقد إلهك؟"

وأحسّت الأخت مارتا بساقيها ترتخيان وكأنّهما قضيبان من الخيزُران، وفي مثل وَمضة برقٍ تجلّى لها الخطر المُحْدِق وعجزها المُطبِق. وحارت في ما تجيب، ولكن لم تكن قادرةً على الكذب، فردّت:

– "أجل، إنّ إلهي يقيم هنا".

– "أفي هذه العلبة؟"

– "في هذه العلبة".

وأغرقَ الرجل في ضحكةٍ تشنّجيّة، وأعقب متهكّمًا:

– "إنّ إلهك لا يحتلّ من المكان حيِّزًا كبيرًا، ويبدو أنّه لا يُعيق كثيرًا. ولكن ماذا تظنّين سيحدث لو أنّي قضيت عليه؟"

وفجأةً استعادت الأخت مارتا هدوءها التامّ. لقد كانت يداها مدسوستين بين أردان أكمامها، وهي واقفةٌ مستقيمةٌ أمام المجنّد تتطلّع مثله إلى بيت القربان، وردّت في هدوءٍ:

– "أجل، إنّ إلهي قد رضي أن يتصاغر، بحيث لا يحتلّ سوى

حيّزٍ ضيّقٍ. ولكن اعلم أنّه، على صغره، أقوى منك، بل أقوى من العالم أجمع، ولن تستطيع أنت، النيل منه".

– "آه! أتظنّين ذلك؟ أتظنّين ذلك حقًّا؟ إذن فلنجرّب".

وفي الحال صوّب مسدسه نحو بيت القربان، فهوت الأخت مارتا جاثيةً على ركبتيها، وطفق المجنّد يزأر وقد تميّز غيظًا:

– "سنرى إن كان قادرًا على الدفاع عن نفسه، وسنرى إن كان هو الأقوى!"

وضغط الزناد، فحطّم الرصاصُ بيت القربان، وأشرع فيه فجوةً مثل جرحٍ فاغرٍ، وهوت من الكأس المحطّمة بضع قرباناتٍ استقرّت على غطاء المذبح.

وكانت مفاجأةً للأخت مارتا التي ظلّت حتّى اللحظة الأخيرة تتخيّل أنّ إلهها لن يتوانى عن الدفاع عن نفسه، ولكنّها حِيالَ الواقع المُفْجع، انخرطت في نحيبٍ حزينٍ. وكانت تلك المرّة الأولى، منذ نشوب الحرب، تخور لها فيها عزيمةٌ.

غير أنّ المجنّد بدا وكأنّه قد تجمّد، لا يؤتي نأمةً ولا حركةً، وهوت، شيئًا فشيئًا، يده المتشنّجة على قبضة المسدس، وقد زاغ بصره. وعرت الدهشة الأخت مارتا التي استهجنت ما كان يحدث أمامها، ولبثت لحظةً ثمّ وثبت ناهضةً، ولم يبدُ على المجنّد أنّه كان يلحظ وجودها بل ظلّ جامدًا نظير تمثالٍ من ملحٍ. وفي تؤدةٍ راحت تدور حوله، فبدا لها الوجه مختلفًا عن ذاك الذي كانت قد لمحته قبل

فترة وجيزة، وقد مسخَه الحقد. لقد باتت قسماتُه مجمّدةً في ذهـــولٍ جَمٍّ، وراحت عيناه تحدّقان في بيت القربان، وقد فغر فاه كأنّه يهُـــمّ بإطلاق صيحة.

وفجأةً هوى، شأن كتلة صمّاء، إلى الأمام، وقد فتح ذراعيـــه واسعتين، وكأنّ أحدًا، بعد أن ضربه، اســـتطاع أن يجذبـــه نحـــوه. وكانت الأخت مارتا، من قبلُ، قد رأت عددًا جمًّـــا ممّـــن أُعـــدموا بالرصاص، ومن ضحايا السكتة الدماغية، وكانت تعلـــم أنّ جميـــع هؤلاء، عندما يموتون، إنّما ينقلبون إلى الوراء.

وجثت أمامه، وانتظرت بعضًا من الوقت، ولكن الرجل ظـــلّ جامدًا لا يتحرّك، فرفعت رأسه، وتفرّست فيه عن كثب: لقد كانت الحياة قد فارقته، غير أنّ الوجه المنكوب كان شاهدًا علـــى صـــدمةٍ تَجِلّ عن الوصف.

وتمتمت الراهبة:

– "سيّدي يسوع، إنّهم لا يدركون ما يفعلون، فـــارحمهم". ثمّ دنت من البوّابة وصاحت:

– "تعالوا خذوا رئيسكم. فقد صُرِع لتوِّه ميتًا".

وقد شخّص الطبيب انسداد شرايين صاعقًا، وبالتالي فقد تُـــرك الكرمل وشأنه.

ولكن، منذ ذلك اليوم المشهود، أمست مهمّات التفتيش أكثر نَدْرةً وحِيطةً.